

كتابي
42
اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الرابع
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
والتوزيع
القاهرة

اعترافات جان جاك روسو

الجزء الرابع



الأجزاء السابقة .. فى سطور

الكتاب الاول

ولدت فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من ان يكرهنى ابى لذلك ، فانه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى .

تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عمد ابى إلى اسلوب خطر ، إذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

واضطر ابى إلى ان يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى ارسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى اخته . وكانت الآنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . وتركت الدراسة فالحقنى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن اشق طريقى فى المحاماة — فيما بعد — ولكنى لم استسغ هذا العمل ، فرأى خالى ان من

مصلحتى أن أتعلم حرفة . والحقنى كصبى — أو تلميذ صانع — لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت السرقة ، لا سيما وان معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فاننى لم اكن أسرق حبا فى المال او الحيازة .. وإلى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى اصبح تهوسا

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى هذه ، إلى الهرب من (جنيف) .. فانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » ، التى اشفقت على ، وارسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانية ، واصبحت كاثوليكيا .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وافردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، برغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد اوفدتنى «ماما» مرة لأعاون السيد « لوميتر » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون) . وعندما عدت إلى (انيسى) ، إذا بى أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت اعرفه من قبل ، وكان يزعم انه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، أنيقا ، مرحا ، يستهوى النساء .. وفى تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شىء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى !

انتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحت اتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، باذلا جهدى ـ فى الوقت ذاته ـ إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن اكون ملحنا ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى اعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم اكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شىء ! .. ومع ذلك ، فان تعلقى بها برغم ما كان عليه من تأجج وقوة ـ لم يكن ليحول بينى وبين ان احب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى ان اذهب إلى باريس ، ولكنى لم الق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامى . على اننى ظفرت هناك بنبأ جعلنى انطلق من جديد بحثا عن السيدة دى «فاران» . وهكذا اخذت اجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضا للتشرد ، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا أن « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت إليها .. وما كان احلاه من لقاء !

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على منصب فى « المساحة » ، فبدأت اكسب عيشى بعمل مشرف !.. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

واقمت فى دار « ماما » ، فى (شامبيرى) .. ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، إذ كانت موارد «ماما» فى تضاؤل ، وكانت امورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه » . وكان شابا لا يكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع اننى لم انج من الألم ، إذ ادركت ان ثمة من استطاع ان يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، إلا ان وفائى للسيدة امتد إلى الشاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل كل شىء !

وانصرفت إلى الموسيقى ـ فى تلك الأثناء ـ فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على أن استقيل من عملى فى « المساحة » ، وان استعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا إلى المجتمع الراقى ، وإلى دور ذوى الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فان سذاجتى ـ التى ذهبت إلى درجة الغباء ـ كانت تفوت على الفرص . إلى أن احست « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى فى احابيلها ، فأشفقت على من مخاطر شبابى ، ورأت أن تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها.. بأن تمنحنى نفسها !.. وهكذا اخذت « ماما » تروى عطشى إلى النساء من نبعها.. على

أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها « كلود آنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض !

وما لبث « آنيه » أن مات — وهو فى ريعان شبابه — فحللت محله فى تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت فى نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن اجنبها هاوية الافلاس . وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » إذا ألمت بها الفاقة .. وفى سبيل ذلك رأيت أن اتعلم التحلين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة !.. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات.. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف ، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. فى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الأذنين ، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . واقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما اكثرت من الأسفار ، انشد علاجا لعللى.

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى، حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالى عليها ، لم تتورع عن أن تكون هى البادئة بالعناق والتقبيل .. وأصبحت عشيقتى خلال الرحلة ! ولو أننى عشت مائة عام ، لما استطعت أن أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور على !.. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق .. أما مع السيدة دى لارناج ، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى .

وكانت صدمة لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا غيرى قد حل محلى أثناء غيابى .. وكان جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على «ماما» سلطانه ، فلم أستطع أن أطيق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهجر الدار ، وأن ارحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثانى

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكننى من التقدم إلى «الاكاديمية» برسالتى التى قدر لى أن يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتى. وبدلا من أن استسلم للقنوط ، أسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأمد بما تبقى من مواردى المتضائلة .

واخرجنى الأب « كاستيل » من استسلامى للكسل ، إذ عرفنى بالبارونة « دى بوزينفال » وابنتها المركيزة « دى بروجلى » ، وبالسيدة «دوبان» .. وكن يملن إلى الموسيقى.. ولقد أبدت لى السيدة «دى بروجلى» عطفا خاصا ، ونصحتنى بتعلم « الاتيكيت » !.. اما السيدة « دوبان » ، فكانت ناتئة الشخصية . وقد تعرفت لديها على السيد « فرانكويى » ، ابن زوجها . وقد اطمعنى لطفها ، فهمت حبا بها ، وكتبت لها رسالة غرامية ، ردتها إلى مع تأنيب جمد له دمى !.. وارتد عقلى إلى ـ بعد ذلك ـ فقنعت بصداقتها والتردد على دارها.

وفى تلك الأثناء ، واقبلت على وضع « أوبرا » عن حياة ثلاثة من الشعراء ، هم «تاس» ، و «أوفيد» ، و « أناكريون » .. وقد أسميتها « عرائس الشعر اللطاف » . وقبل أن أفرغ منها ، التحقت بالعمل كسكرتير للسيد الكونت « دى مونتيجى » ، سفير فرنسا فى البندقية .. ورحلت إلى هناك .

واستطعت فى هذا المنصب ان أبدى مهارة وحكمة ، وان اكتسب محبة الفرنسيين المقيمين فى (البندقية) ، وان اكتسبت عداء السفير ، إذ كان رجلا أحمق ، جاهلا ، جشعا ، اسلم قياده لمستشارين من الإيطاليين استغلاه أشنع استغلال ، واوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك .. واستطاعا ان يوغرا صدره على لأننى كنت مخلصا لعملى ، جادا فى مسلكى ، معتزا بكرامتى . وكان من جراء ذلك ان راح السفير يضايقنى ويكثر من مشاكستى ، حتى اضطررت ـ فى النهاية ـ إلى ان اترك العمل فى السفارة ، برغم ان السيد « دى مونتيجى » أبى ان يسوى حسابى ، وان يدفع إلى استحقاقى .

وفى (باريس) ، رحت أشكو تصرفات السفير معى لذوى النفوذ ، فكان كل امرىء يقرنى، على اننى اوذيت وظلمت، ولكن احدا لم يحاول ان ينصفنى .. على ان الرجل لم يلبث ان جنى على نفسه بتصرفاته الحمقاء ، فاستدعى إلى باريس ، واقصى عن منصبه ، واوعز إليه ان يرد إلى ما كنت استحق من نقود لديه .. على ان عدالة شكاياتى ، وعدم اكتراث احد بانصافى طيلة تلك الفترة ، خلفت فى نفسى بذور السخط على المدنية الحمقاء ، التى تضحى نظمها بالمصلحة العامة ، والعدالة الحقة ، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء !

وتفرغت لاستكمال « الأوبرا » التى كنت قد بدأتها .. وفى تلك الأثناء ، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل فى الفندق الذى نزلت فيه ، فسرعان ما برح بنا الهوى .. واعترفت لى بزلة وحيدة تعرضت لها فى فترة مراهقتها ، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبا لها !

واكتملت «اوبراى» ، فعرضتها على «رامو» ـ الذى كان واسع النفوذ فى الوسط الفنى ـ ولكنه تحامل عليها ، وأذكت تحامله تلميذته ـ السيدة دبلا بوبلينير ـ فراح يتهمنى بأننى سرقت الألحان.. على ان السيد «ريشيليو» شجعنى، وسألنى أن أغير الفصل الأخير من «الأوبرا» ليسعى لعرضها على مشهد من الملك. وما لبث أن شغلنى عنها بأن اناط بى تعديل «أوبرا» كانت من تأليف «فولتير» وتلحين «رامو» . وأدى اشتراكى مع هذين العظيمين فى عمل كهذا ، إلى [illegible] المعنوية . غير

ان « رامو » استطاع ـ بالتواطؤ مع السيدة ديلابولنيير ـ ان يحول دون ان يعرف الراى العام نصيبى فى ذلك العمل !

وادت كل هـذه الظروف إلى تثبيط عزيمتى نحو الرقى ، فلم اعد افـكر فى أكثر من كسب قوتى وقوت تيريز ، بالعمل كسكرتير للسيدة دوبان ، والسيد دى فرانكويى .. واقبلت و تلك الأثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير .

وانتجت علاقتى بتيريز ثمرة اسلمناها إلى ملجأ اللقطاء .. وكذلك فعلنا بأبنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة !

وما لبثت ان قرات صـدفة عن الموضـوع الذى حـدده المحفل العلمى بديجون لمباراته فى العـام التالى ، وهو : « هل ساعد تقدم العـلوم والفنون على إفسـاد الأخـلاق او على تطهيرها ؟ » .. وانتابتنى شبه غيبوبة ، واتانى خلالها إلهام اوحى إلى بمقال فى الموضوع ارسلته إلى المحفل .

وفى تلك الأثنـاء كنت قد اثثت لنفسى مسكنـا خاصـا ، ضممت فيه «تيريز» إلى .. وسرعان ما اقبلت اسرتها تعيش معنا . وبقدر ما سعدت بلحظات هانئة مع فتاتى ، فاننى شقيت بأهلهـا الذين كانوا يستنفدون مواردهـا ـ من عملهـا ـ وموارِدى .

وقدر لمقـالى ان يفوز فى العام التالى ـ ١٧٥٠ ـ بجائزة محفل ديجون ، فايقظ ذلك فى نفسى حب التحـرر من خدمة الغير ، والسعى إلى أن اكون إنسانا فاضـلا ، ذا استقلال ذاتى .

واضمحلت صحتى ـ فى هـذه الفتـرة ـ فاوحى إلى طبيب شهير باننى لن ابقى فى الحيـاة لاكثر من ستة اشهر .

فقررت ان اعيشها حرا مستقلا ، ولو اضطرنى هذا إلى حياة الكفاف .. واشـتد عزمى على ان اتمسـك باسـتقلالى ، فاستخدمت كل قواى الروحيه فى تحطيم اغلال الراى العام ، وفى ان اقدم بشجاعة على ما اراه خيرا ، دون ان احفل بآراء الناس . فأوغر مسلكى هذا صدور أصدقائى .

وعملت كناسخ للقطع الموسيقية ، بعـد أن استقلت من خدمة السيدة دوبان والسيد دى فرانكويى .. واخذت انحو نحو التقشف لأصلح من أمر نفسى . وكان مقالى قد أحدث فى تلك الأثناء ضجة ، فكثرت شواغلى الأدبية ، حتى الهتنى عن عملى فى نسخ الموسيقى . واثـار المقـال انتقادات مريرة ، اشترك فيهـا الملك « ستانيسلاس » البولندى بنفسـه ، فانصرفت إلى الذود عن آرائى فى جـراة خشى على بعض اصدقائى منها .

وما لبثت أن أدركت أن العيش فى فقـر وحريـة ، ليس بالسـهولة التى يتصورها المرء دائمـا !.. ولقد حاول بعض المعجبين بى أن يعوضونى عن ذلك بالهدايا ، ولكنى رحت أرفض جميع الهدايا ، دون ما استثناء .. ولم يصادف هذا المسلك هـوى من نفس السـيدة لوفاسير ـ أم تيريز ـ ولا أفلح ما اتسمت به ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى صدها عن قبول الهدايا من وراء ظهرى ، ومن إغرائها ابنتها على أن تقبلها هى الأخرى ، أو تكتم عنى أمرها ، على الأقل !

ومن هنا اشتد الخلاف بينى وبين السيدة لوفاسير التى راحت تحرض ابنتها على ، وتذمنى لدى اصـدقائى ، وتتآمر مع من كانوا يحاولون منهم أن ينـالوا منى .. ولقـد ادى

اندماجى فى المجتمع إلى ان أعمل على إذكاء اعتدادى بنفسى ، فأحالنى الحياء إلى هجاء لادع ، وإلى أن ازدرى آداب اللياقة .. فاضطر الساخرون إلى ان يحدوا من سخريتهم .

وادت قصة « عراف القرية » إلى تألقى فى المجتمع ، فكثر معارفى .. وكانت هذه « الأوبرا » من طراز جديد ، وقد استطاعت ان تكسب إعجاب الجمهور ، كما حضر الملك وحاشيته عرضها فى البلاط . ولقيت من التكريم ما أثار خجلى حتى أننى عندما دعيت إلى القصر الملكى ، وقيل لى إن من المعتقد ان الملك قد أزمع ان يعلننى بأنه قرر منحى معاشا سنويا ، بادرت إلى التهرب من المناسبة ، وتخليت عن المعاش .

وزاد النجاح من تنكر اصدقائى لى ، وتألبهم على .. وفى تلك الأثناء ، وضعت رسالتى عن : « حديث فى عدم المساواة » ، التى اثارت فيما بعد ضجة كبيرة ، واجتلبت على نقمة الحكومات ، لاسيما حكومة (جنيف) .

وفى ذات يوم ، دعتنى السيدة ديبيناى إلى مرافقتها إلى ضيعتها (لاشيفريت) ، حيث كان العمل جاريا فى إضافة جناح إلى القصر .. وهناك ، وجدتها قد جددت بناء كوخ صغير كان فى طرف المتنزهات الملحقة بالقصر ، فى متاخمة غابة (مونمورنسى) .. وكنت قد أبديت من قبل إعجابى به ، لقيامه فى موقع منعزل جميل ، فعملت السيدة على إعداده لسكناى ، ودعتنى للاقامة فيه . وبالرغم مما أثاره هذا من تخرصات « أصدقائى ! » ، الذين راحوا يروجون أننى أعيش على كرم

السيدة ديبيناى فاننى لم اتردد فى هجران باريس ، والإقامة فى (اليرميتاج) ـ كما كان ذلك الكوخ يسمى ـ مصطحبا « تيريز » وأمها .

وهناك ، تفرغت للانتاج الأدبى . ومع اننى بدات اشعر بان إقامتى على مقربة من السيدة ديبيناى ، وفى ضيافتها ، قد حد بعض الشىء من حريتى ، إلا ان هذا لم يحد من إقبالى على الإنتاج .

وفى هذه الفترة بالذات ، اشتد توثق العلاقات بينى وبين « تيريز » ، وازداد فهم كل منا للآخر .. وقد يعجب القارىء لهذه الرابطة التى توجتها فى شيخوختى ـ وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة ـ بالزواج .. قد يعجب القارىء لهذه الرابطة ، إذا صارحته بأننى لم احب يوما « تيريز » ولا اشتهيتها .. ومع ذلك فانها كانت « وماما » أعز امرأتين لدى !.. والواقع ان ما دفعنى إلى التعلق بتيريز ـ من البداية ـ هو أننى كنت أتوق إلى زميلة اندمج معها روحا وقلبا .. وكان لطفها وسذاجتها واخلاقها كفيلة بأن توحى إلى بأنها خير من تصلح لذلك . ولكن ولاءها لأمها وأسرتها ، وجشع هؤلاء ، كانا يفسدان علينا هناءنا !.. وكانا يجعلان تيريز ملكا لأهلها ، اكثر مما كانت ملكا لى ، أو ملكا لنفسها !

والآن .. تعال نعيش مع « روسو » فى العالم الذى كان يعيش فيه منذ قرنين كاملين :

* * *

ولم يكن جشعهم مؤديا إلى إفلاسها ، بقدر ما كان نصحهم مؤذيا لها !.. وقصارى القول انها إذا ما لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة ـ والفضل فى ذلك لحبها لى ولنفسها المفطورة على الطيبة ـ فانها كانت من الخضوع لهم بدرجة تمنع ، إلى حد كبير ، أثر المبادىء الطيبة التى سعيت إلى ان ابثها فيها .

هذا هو السر فى ان فراغ قلبى لم يلق فى علاقة خالصة متبادلة كهذه ـ اودعتها كل ما فى هذا من عاطفة ـ ما يملؤه تماما . وكان الأطفال كفيلين بملء هذا الخواء .. وقد رزقنا بهم ، ولكن انجابهم زاد الأمر سوءا . فلقد كنت ارتجف لمجرد التفكير فى إسلامهم إلى هذه الأسرة السيئة النشأة ، لتكفل لهم نشأة اسوأ !.. كان ما لتربية اللقطاء ـ فى الملجأ ـ من احتمالات سيئة ، اهون من ذلك بكثير !.. وهذا التبرير للقرار الذى اتخذته ، كان الوحيد الذى لم اجرؤ على ذكره للسيدة دى فرانكويى ، برغم انه اقوى بكثير من تلك التى سقتها فى خطابى إليها . فقد آثرت ان ابقى فى غير منجاة من لوم ثقيل الوطأة ، لكى اعول اسرة امرأة كنت أحبها . ولكن من الممكن ـ على ضوء اخلاق اخيها التعس ، إن لم نقل على اضواء اخرى ـ الحكم بما إذا كان من واجبى ، إذ ذاك ان أعرض ابنائى لأن يتلقوا تربية كتربيته !

وإذا لم استطع ان استمتع تمام الاستمتاع بهذه الصحبة الوثيقة التى كنت اشعر بحاجة إليها ، فقد سعيت إلى معززات وإن لم تملأ فراغ قلبى ، إلا انها جعلتنى اقل شعورا به . وإذ كنت افتقد صديقا يؤثرنى بكل وده ونفسه ، فقد وجدتنى

بحاجة إلى اصدقاء اوتوا من التحريض والتحفيز ما يطغى على تراخى وكسلى . ومن ثم فقد رحت انمى واعزز علاقاتى بديدرو والراهب دى كونديلاك ، واقبلت على علاقات جديدة ـ ولكنها اكثر توثقا .. بجريم ، وما لبثت ان وجدتنى فى النهاية ـ بفضل تلك « الرسالة » التعسة ، التى رويت قصتها من قبل ـ مرتميا ، دون ما تفكير ، بين احضان الأب ، الذى كنت اظننى قد هجرته إلى الأبد !

ولقد افضى بى ارتيادى الأول للأدب ـ خلال طريق جديدة ـ إلى عالم فكرى آخر ، لم اكن املك أن اتأمل بساطته وإيجازه السامى ، دون ما تحمس !.. وسرعان ما اصبحت بفضل انهماكى لا ارى فى معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة ، ولا ارى فى نظامنا الاجتماعى سوى ظلم وتعاسة . وفى انسياقى لضلال الغرور الأرعن ، خيل إلى اننى إنما خلقت لكى ابدد جميع هذه الاباطيل .. وإذ رأيت انه لابد لى من ان اجعل تصرفى يتمشى مع مبادئى ـ إذا شئت ان يكون رايى مسموعا ـ فاننى انتهجت المسلك الأوحد الذى لم يتح لى ان استمر فيه ، والذى لم يغتفر لى اصدقائى المزعومون ، ان جعلت نفسى مثالا وقدوة فيه ، والذى جعلنى ـ فى البداية ـ اضحوكة ، وكان خليقا بأن يجعلنى ـ فى النهاية ـ موضع الاحترام ، لو انه تسنى لى ان اثابر عليه !

* * *

ولقد كنت حتى ذلك الحين طيبا ، فأصبحت من تلك اللحظة فاضلا ، او نشوان بالفضيلة ، على الأقل !.. وقد

بدأت هذه النشوة فى رأسى ، ولكنها سرت إلى قلبى . وعلى أطلال الغرور المقوض ، نبتت أنبل كبرياء .. ولم أكن متظاهرا بشىء ، بل اننى غدوت كما كنت أبدو حقا. وفى خلال السنوات الأربع ــ على الأقل ــ التى دامها هــذا الفوران فى أقصى قوته ــ لم أعجز عن أن أعتنق ، بينى وبين السماء ، كل جليل وجميل يمكن أن ينتاب قلب بشر . ومن هنــا نبعت بلاغتى المفاجئة .. ومن هنا تولد ذلك اللهب السماوى الصادق الذى الهبنى وانتشر فى كتبى الأولى ، والذى لم يكن ــ أبان أربعين عاما ــ قد فقد شرارة واحدة . لأنه لم يكن قد استعر بعــد خلالها !

ولقد تغيرت تغيرا حقيقيا ، حتى ان أصدقائى ومعارفى لم يعودوا يعرفوننى. لم اعد ذلك الرجل الخجول ، الذى كان حييا اكثر منه متواضعا ، والذى لم يكن يجرؤ على ان يظهر نفسه ، ولا على ان يتكلم ، والذى كانت الكلمة الماجنة تربكه ، والنظرة الصادرة من اية امراة تبعث حمرة الخجل فى وجهه !.. وفى جراة ، وفخر ، وإقدام ، رحت احمل فى كل مكان اعتدادا كان وطيدا بقدر ما كان بسيطا ، وكان مقــره فى أعماقى ، وليس فى مظهرى ... وكان من جراء الازدراء التى الهمتنيه تأملاتى العميقة ــ نحو اخلاق ومبادىء وأوهام عصرى ــ أن أصبحت ابعد من ان اتاثر بسخريات أصحاب تلك الأخلاق والمبــادىء .. فكنت اسحق ملحهم ونكاتهم الصــغير بحكمى وأمثالى ، كما أسحق حشرة بين أصابعى . فيا له من انقلاب !.. لقد راحت باريس بأسرها تردد السخريات الوخازة اللاذعة التى اخذت تنبعث من رجل لم يكن قبــل عامين ــ ولا بعد عشرة

أعوام ــ يعرف كيف يهتدى إلى ما ينبغى عليــه ان يقوله ، ولا الكلمة التى يجدر به ان يستعملها !.. إن أى فرد يسعى إلى العثور على اشد الحالات مناقضة لطبيعتى ، لن يعثــر إلا على حالى هذه .. وإذا هو رغب فى ان يذكر فترة واحدة من الفترات القصار التى تخللت حياتى وكنت فيها على غير ما أنا بفطرتى ، فلن يعثر على بغيته إلا فى هذا الزمن الذى اتحدث عنه .. ولكنها فترة لم تدم ســتة ايام ، او ســتة أسابيع ، وإنما دامت ست سنوات ، ولعلها كانت قمينة بأن تدوم حتى الآن ، لولا الظروف الخاصة التى ادت إلى انتهائها ، والتى ردتنى إلى فطرتى التى حاولت ان انتشل نفسى منها !

وبدأ هذا التغير بمجرد ان بارحت باريس ، ولم تعــد مناظر الرذائل ، فى هذه المدينة الكبيرة ، تغذى الاستنكار الذى كانت تبعثه فى نفسى . ذلك اننى إذ اصبحت لا ارى الناس ، كففت عن ازدرائهم .. وإذ لم أعد ارى أهــل الخبث ، كففت عن بغضهم. فان قلبى المفطور على العزوف عن الكراهية ، لم يعد يملك ســوى الرثاء لتعسهم ، إذ انه لم يكن قادرا على أن يتبين فيه مكرهم . وسرعان ما أخمد هــذا الاتجاه ــ الأكثر لطفا ، ولكنه اقل سموا من اتجاهى السابق ــ حدة الاندفاع الذى ظل يجتاحنى طويلا .. وعدت ــ دون ان يفطن أحد ، بل ودون أن افطن انا نفسى تقريبا ــ خجولا ، مجاملا ، هيابا .. عدت ــ بايجاز ــ جان جاك الذى كنته من قبل ، تماما !

ولو أن الانقلاب لم يؤد إلا إلى ردى إلى حالى الطبيعية ، فلم يتجاوز ذلك ، لكان الأمر خيرا .. ولكنه [illegible] الحظ ــ

ذهب إلى ابعد من ذلك ، وحملنى مسرعا إلى النقيض . ومنذ ذلك الحين ، لم تعد نفسى ـ فى اضطرابها ـ تستقر فى نطاق الطمانينة ، ولامكنها التذبذب المتجدد باستمراره من أن ترين هناك وتبقى . فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثانى .. فقد كانت فترة رهيبة ، مشئومة ، فى مصير لا مثيل له بين البشر !

* * *

لما كنا مجرد ثلاثة أفراد فى مأوانا المنعزل(١) ، فقد كان من الطبيعى أن يؤدى الفراغ والوحدة إلى توثيق تآلفنا . وهذا ما حدث بينى وبين « تيريز » ، فرحنا نقضى ـ تحت الأشجار الوارفة الظلال ـ ساعات عذبة ، تنعم خلالها بعزلة لم أتذوق من قبل مثل حلاوتها ! ولاح لى أن « تيريز » هى الأخرى كانت اكثر استمتاعا بخلواتنامنها فى اى وقت مضى ، ففتحت لى قلبها دون ما تحفظ ، واطلعتنى على امور ـ عن امها واسرتها ـ اوتيت المقدرة على أن تكتمها عنى زمنا طويلا . فقد اعتادت امها ان يتلقيا من السيدة « دوبان » هدايا كثيرة ، كنت انا المقصود بها ، ولكن العجوز الماكرة آثرت بها نفسها وابناءها الآخرين ـ لتفادى غضبى ـ دون أن تدع شيئا لتيريز ، ومع تحذيرها ، اشد تحذير ، من أن تقول لى شيئا عنها .. وهو أمر كانت الفتاة المسكينة تنفذه فى طاعة تفوق التصور !

ومما أدهشنى اكثر من اى شىء آخر ، أن تبينت انه إلى

---

(١) (لبرميتاج) .. الكوخ النائى الذى افردته له السيدة ديبيناى .

فرحنا نقضى ـ تحت الأشجار الوارفة الظلال ـ ساعات عذبة ، تنعم خلالها بعزلة لم أتذوق من قبل مثل حلاوتها !

جانب الأحاديث المتكتمة ــ التى أكثر « ديدرو » و « جريم » من عقدها مع الأم وابنتهـا ليصرفاهما عنى ، والتى لم تفلح بفضل مقاومة تيريز ــ فان الاثنين راحـا يعقـدان كثيرا من الاجتماعات السرية مع الأم ، دون أن تدرى الابنة شيئا مما كان يدبر بينهم .. كان كل ما علمته هو أن الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورا فى الموضـوع ، وأنه كانت ثمـة جيئـات وروحات ، كانوا يحاولون التستر عليها ، وكانت هى تجهل الباعث عليها جهلا تاما !.. وعندما رحلنا عن (باريس) . كان قد انقضى وقت طويل ، اعتادت خلاله السيدة لوفاسير زيارة « جريم » مرتين أو ثلاثا فى الشهر ، حيث كانت تقضى بضع ساعات فى أحاديث كان الحرص على تكتمهـا يدعو إلى إقصاء خادم « جريم » عن المسكن فى كل مرة !

وقدرت أن الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذى حاول ديدرو وجريم أن يستدرجا الابنة إليه ، حين وعدا بأن يحصلا لها ولأمها ــ بمعونة السيدة ديبيناى ــ على تصريح بالاتجار بالملح ، أو حانوت لبيع التبغ .. وبإيجاز عنـدما لوحا لهمـا بفرص الكسب . ولقد أوحى إلى هاتين المرأتين بأننى لم أكن فى وضع يمكننى من أن أفعل من أجلهما شيئا ، بل ولم أكن أملك ــ بسببهما ــ أن أفعل شيئا لنفسى . ولما كنت لم أر فى كل هذا سوى نوايا حسنة ، فإننى لم أحمل لأحد ضغينة ، على الاطلاق . ولم يثرنى سـوى الغموض ، لا سيما من جانب العجوز التى راحت ــ فوق كل هذا ــ تزداد رياء ودهـاء نحوى ، يوما بعد يوم ، دون أن يمنعها ذلك من أن تلوم ابنتها

باستمرار ــ وفى الخفاء ــ على أنها كانت مسرفة فى حبهـا إياى ، وأنها كانت تصارحنى بكل شىء ، وأنها لم تكن سوى غبية لن تلبث أن تتبين أنها كانت ضحية غفلتها !

لقد أوتيت هذه المرأة أعلى درجات البراعـة فى اصطياد عصفورين بحجر واحد ، وفى أن تخفى عن أحـد المتواطئين معها ما تلقته من الآخر ، وأن تخفى عنى أنـا ما تسلمته من الجميع !.. وكان بوسعى أن أغفر لهـا جشـعها ، ولكنى لا أستطيع أن أغفر لها رياءها . أى شىء كان يجوز لها إخفاؤه عنى .. عنى أنا ، الذى كانت تدرك تماما أن سـعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هى ؟.. إن ما بذلته لابنتها ، إنمـا كنت أبذله لنفسى .. أما ما فعلته من أجلها هى ، فقد كان جديرا بالعرفان منها .. كان حريا بها أن تعترف بالفضل لابنتها ، على الأقل ، وأن تحبنى إكراما لحبها لابنتها التى كانت تحبنى !.. لقد انتشلتها من البؤس الكامل وكانت تستمد قوتها منى ، وكانت مدينة لى بكل أولئك المعارف الذين عرفت كل المعرفة كيف تفيد منهم !.. ولقد ظلت «تيريز» وقتا طويلا تعولها بما كانت تكسـبه من عملهـا ، وأصبحت تغذيها من خبزى !.. كانت مدينة بكل هذا لابنتها ، دون أن تفعل لهذه الابنة شيئا !.. وكانت بناتها الأخريات ــ اللائى منحتهن تيريز مهورا (دوطات) استنفدت كل ما لها ــ أبعد من أن يساعدنها ، بل أنهن رحن يلتهمن مواردها ومواردى .. وتبينت أنه كان حريا بالسيدة « لوفاسير » ــ فى مثل هذا الموقف ــ أن تتطلع إلى كصديقها الأوحد

عنها ويكفلها ، وبدلا من أن تكتم عنى الأمــور التى كانت من ذات شئونى ، وبدلا من أن تتآمر ضدى فى عقر دارى ، كان عليها ان تطلعنى فى إخلاص على كل ما كان خليقا بأن يهمنى، إذا ما علمت به قبلى . فبأية عين كان بوسعى — إذن — أن أرى مسلكها الغادر ، الغامض ؟.. وما الذى كان ينبغى أن أظنه — فوق كل شىء — عن المشاعر التى تذرعت بها لدى ابنتها ؟.. اى حجود هائل كان حجودها ، عندما سعت إلى ان توسوس إليها ؟

كل هذه الخواطر البت فؤادى — فى النهــاية — ضد هذه المراة ، حتى اننى لم اعد انظر إليها دون احتقار .. على اننى لم اكف قط عن ان اعامل أم شريكة حياتى باحترام ، وان ابدى لها — فى كل شىء — ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير .. بيد اننى لم اكن — فى الحق — لأحب أن أمكث معها وقتا طويلا ، ولم يكن بوسعى أن اغصب نفسى على ما لا تحب !

وهنا ايضا كانت إحدى تلك اللحظــات القصيرة التى مرت بحياتى ، والتى رأيت فيها السعادة جد دانية ، دون ان اقوى على نيلها ، ودون ان يكون لى ذنب فى فواتهــا !.. ولو ان هذه المراة كانت طيبة الشخصية ، لظل ثلاثتنا سعداء حتى نهاية اعمارنا .. ولكان آخر من يبقى منا على قيد الحياة وحيدا ، جديرا بالرثاء . ولكنكم سترون — بدلا من ذلك — تطور الأمور ، وستحكمون بأنفسكم : أكان بوسعى أن أغير حال هذه المراة ؟

ذلك ان السيدة لوفاسير — حين رات اننى وطدت مكانتى فى فؤاد ابنتها ، وأنها فقدت الفتاة — راحت تناضل لاستعادتها ، وبدلا من ان تتقرب منى عن طريقها ، اخذت تسعى إلى إيغار صدرى عليهــا . وكان من الوسائل التى استخدمتهــا ، ان استدعت اسرتها إلى معاونتها . وكنت قد رجوت تيريز بألا تستقدم احــدا إلى (ليرميتاج) ، فوعدتنى بذلك .. غير أنهم كانوا يستدعون فى غيابى ، ودون استشارتى ، وكانت تيريز تحمل على أن تعد بألا تقول لى شيئا . وما أن تمت الخطــوة الأولى ، حتى غــدا كل شىء ســهلا . فان المرء إذا اخفى — مرة — عمن يحب أمرا ، فانه لا يلبث أن يكتم عنه كل شىء ، دون تورع . فما كنت اذهب إلى (لاشيفريت)(١) ، حتى كان (ليرميتاج) يزخر بأناس يقبلون على الاستمتاع بالمقام هناك فى استمراء . والأم دائما ما تكون قوية السلطان على الابنة التى فطرت على الطيبة .. ومع ذلك فان العجوز لم تستطع — برغم كل جهودها — ان تغرى تيريز على أن تأخذ بآرائها ، أو ان تستدرجها إلى التآمر ضدى ، أما عن نفسها ، فانهــا كانت قد وطنت عزمها — دون انتكاس — على وضع خاص : فكانت تنظر — من ناحية — إلى ابنتها وإلى انا ، كشخصين تستطيع ان تقيم فى دارهما فحسب .. وكانت تنظر — من ناحية اخرى — إلى ديدرو ، وجريم ، ودلبــاخ ، والسيدة دبيناى ، كأشخاص يعدون بأمــور كثيرة ، ويمنحون بعض

---

(١) (لاشيفريت) الضيعة التى كان بهــا قصر آل دبيناى ، والتى كان (ليرميتاج) فى اقصى الغابات الملحقة بها .



اشياء .. وما خطر لها قط انها كانت تخطىء إذ تسير فى ركاب زوجة ناظر عام للزراعة ، وبارون . ولو اننى كنت دقيق النظر ، لرأيت ــ منذ ذاك الحين ــ انى إنما كنت اغــذى افعى فى احضانى . بيد ان ثقتى العمياء ، التى لم يغيرهــا شيىء حتى الآن ، كانت لا تدع لى سبيلا إلى ان احدس ان هناك من يبغى الشر بمن هو جدير منــــه بالحب !.. وفى الوقت الذى كنت ارى فيه الف دسيسة تحيط بى ، لم اكن املك ان اشكو إلا من جور اولئك الذين كنت ادعوهم اصــدقاء لى ، والذين كانوا يسعون إلى ان يجعلونى ـ بالرغم منى ـ سعيدا على نسقهم ، لا على النسق الذى كان يحلو لى !

ومع ان تيريز ابت ان تنحاز إلى امها فى تآمرها ، إلا انهــا ابقت على سرها ، وكان باعثها على ذلك خليقا بالتقدير ، ولن اقطع بما إذا كانت قد احسنت او انها اساءت !.. وعنــدما يكون بين امرأتين سر ، فانهما تشغفان بالثرثرة معــا . وقد قرب هذا بين تيريز وامها . واصبح مسلك تيريز ـ إذ وزعت ولاءها ـ يشعرنى ، فى بعض الأحيان ، بالوحدة ، لأننى لم اعد اعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صحبة ومعاشرة . وفى تلك الفترة ، اشتد شعورى بالخطأ الذى ارتكبته ، فى بداية رابطتنا ، إذ اننى لم استغل اللين الذى كان حبها يوحى به إليها ، لــكى ازينها بمواهب ومعرفة كانت كفيلة بأن تقرب بيننا فى معتكفنا ، وبأن تملأ وقتها ووقتى على خير وجه ، دون ان تدعنا نشعر قط بفــوات الــوقت فى عزلتنــا . وليس معنى هــذا ان الحديث بيننا كان مجديا ، ولا انها ابدت اية بادرة تمت عن

ملل خلال نزهاتنا ، وإنما معناه انه لم يكن لدينا عدد من الآراء المشتركة يكفى لكى يكون موردا مدخرا .. ولم يكن بوسعنا ان نتكلم بلا انقطاع عن مشروعاتنا ، التى اقتصرت ــ منــذ ذلك الحين ــ على لهونا . وكانت الأشياء المحيطة بنا توحى إلينا بخواطر كانت فوق إدراك تيريز .

ولم تكن علاقة كعلاقتنا ـ دامت اثنتى عشرة سنة ـ بحاجة إلى كلام ، إذ اصبح كل منا يعرف الآخر إلى درجة لم يعد يجد معها سبيلا إلى مزيد . ومن ثم فان المورد الوحيد الذى تبقى للحديث بيننــا ، تمثل فى الثرثرة غير المجدية ، والفضــائح ، والنكات الركيكة !.. ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكر ، قدر ما يشعر فى العزلة ، بوجه خاص . أما انا ، فلم اكن بحاجة إلى هذه الميزة كى اهنأ بصحبة تيريز . بيد ان تيريز كانت بحاجة إليها كى تجد دائما ما يسرها فى صحبتى . وكان اسوأ ما فى الأمر ، اننا كنا مضطرين إلى ان نعقد لقاءاتنا الخاصة فى الخفاء ، إذ ان امهــا اصبحت تضايقنى وتضطرنى إلى ان اتحين الفرص لتلك الخلوات .. كنت مقيد الحرية فى دارى ، بأوجز تعبير . وكان جو الحب يفسد جو الصداقة . ومن ثم فاننا كنا نمارس علاقة بدنية ، دون أن نعيش فى محبة قلبية !

وما ان خيل لى اننى لاحظت على «تيريز» انها كانت تتعلل احيانــا للتهرب من النزهــات التى كنت اعرض عليهــا ان تشاركنيها على الأقدام ، حتى كففت عن ان اقترحها عليها ، دون ان اطلعها على اى استياء من انها لم تكن تلتذ فيها من

المسرة ما كانت ألقى . ذلك لأن السرور شيء لا يتوقف على الإرادة . ولقد كنت واثقا من ولاء قلبها ، فكان فى هذا الكفاية لى .. وطالما كانت مسرأتى هى عين مسراتها ، فاننى كنت اقبل على الاستمتاع بها معها .. اما حين لا يكون الأمر كذلك، كنت أوثر رضاها على رضائى !

وهكذا قدر لى ، وأنا نصف مخدوع بآمالى ، وقد رحت أمارس حياة تتفق ومزاجى ، فى بقعة منعزلة اخترتها لنفسى ، ومع شخص كنت أعزه .. وهكذا قدر لى ان اشعر ــ برغم كل هذا ــ باننى وحيد !.. كان ما ينقصنى يحول دون تذوقى لما اوتيت ، فقد اعتدت ــ فيما يتعلق بالسعادة والسرور ــ أن أنال كل شيء ، او لا أنال شيئا على الاطلاق !.. ولسوف يتجلى ــ فيما بعد ــ السر فى أن هذا الإيضاح بدا لى لازما . اما الآن . فاننى أمضى فى رواية قصتى :

* * *

كنت أؤمن باننى امتلك كنزا حقيقيا ، تمثل فى المخطوطات التى دفع بها إلى الكونت دى « سان ــ بيير » . فلما فحصتها ، تبينت انها لم تكن اكثر من مجموعة من مؤلفات عمه ، التى نشرت من قبل ، وقد نقحت وصححت بيده ، واضيفت إليها بضع قطع صغيرة اخرى لم تر الضوء من قبل . ومما كتبه فى الموضوعات الخلقية ، تأكدت لى فكرة ، كانت قد اوحت لى بها بعض رسائل منه اطلعتنى عليها السيدة « دى كريكى » . ومؤداها انه اوتى من العقل فوق ما كنت اتصور . بيد اننى حين تعمقت فى فحص مؤلفاته السياسية ، وجدت انها لم

تكشف لى إلا عن آراء سطحية ، ومشروعات نافعة ولكنها ليست عملية بفضل الراى الذى لم يقدر للمؤلف ان يتخلص منه .. الراى القائل بأن البشر يهتدون فى أعمالهم بمعارفهم وليس بعواطفهم !.. كانت الفكرة العظيمة التى داخلته بصدد الوان المعرفة الحديثة ، جعلته يعتنق هذا المبدا الزائف ، عن إمكان وصول العقل إلى درجة الكمال .. المبدا الذى قامت عليه كل النظريات التى اقترحها ، والمنبع الذى فاضت منه كل سفسطاته السياسية . إن هذا الرجل الفذ ، الذى كان مفخرة عصره وجنسه ، قد يكون الأوحد ــ منذ وجود العنصر البشرى ــ الذى لم يشغف فى حياته بغير العقل. ولكنه ــ مع ذلك ــ كان يتخبط من خطأ إلى آخر فى آرائه ونظرياته ، رغبة منه فى أن يجعل كل الناس على نسقه ، بدلا من ان يأخذهم على علاتهم ، وعلى ما هم عليه ، وما سيظلون عليه !.. ومن ثم فهو لم يكن يشقى إلا من اجل كائنات وهمية ، وهو يخال أنه إنما يعمل من اجل معاصريه !

وإذ تبينت كل هذا ، ألفيتنى فى حيرة من امر القالب الذى أصوغ فيه عملى . فلو أننى أبقيت على آراء المؤلف ، لما اديت شيئا نافعا .. ولو أننى عدلتها كما كان ينبغى ، لجاء عملى منافيا للأمانة ، إذ ان تسلمى المخطوطات كان إلزاما لى بأن اكون امينا إزاء مؤلفها . وانتهيت اخيرا إلى الراى الذى بدا لى اكثر ملاءمة ولياقة ، واعظم حكمة ونفعا .. وذلك بأن اعرض آراء المؤلف وآرائى ، كلا على حدة ، وبذلك احفظ نظرياته ،

واوضحها ، وأوسع نطاقها ، دون ان اضن بشيء لكى تنال حظها من التقدير !

ومن ثم فقد كان لابد لعملى من أن يتألف من جزءين منفصلين تمام الانفصال .. احدهما يخصص لشرح مختلف غايات المؤلف ، على النسق الذى ذكرته .. أما الثانى — الذى لم يكن ليظهر إلا بعد ان يحدث الأول مفعوله — فكان على ان أعرض فيه حكمى على تلك الغايات ذاتها .. مما كان خليقا بأن يبينها ، فى بعض الأوقات ، كقصيدة من نظم شخص مبغض للبشرية !.. وكان لابد من ان يتوج هذا الكتاب كله بايراد حياة المؤلف ، وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد ، التى رحت ازين لنفسى أننى لن اشوهها إذ استخدمها . وكنت قد التقيت بالأب « دى سان — بيير » مرتين أو ثلاثا — فى شيخوخته — فكان التبجيل الذى اكنه لذكراه ضمانا يطمئننى إلى أن السيد الكونت لن يستاء من الطريقة التى عاملت بها قريبه ، فى مجموعها !

واجريت محاولتى الأولى على « السلام الدائم » ، وهم الأبحاث التى تضمنتها المجموعة واكثرها نصيبا من العناية . وقبل ان استغرق فى افكارى ، تجلت فقرات كل ما كتبه الراهب — فى هذا الموضوع البديع — بحذافيره ، دون أن اضيق قط بما كان يتخلل حديثه من إطالة وتكرار . ولقد اطلع الرأى العام على هذه الرسالة المستخلصة ، ومن ثم فليس لدى ما اقوله عنها . اما الحكم الذى ارتأيته بصددها ، فلم يطبع قط ، ولست ادرى إن كان سيطبع يوما ، ولكنه كتب فى

ذات الوقت الذى أعددت فيه كتابة الرسالة . وانتقلت من ذلك إلى نظرية « البوليسينودى » ، أو تعدد المجالس .. وهى الرسالة التى وضعها فى عهد الوصاية على العرش ، ليروج للنظام الحكومى الذى اختاره الوصى ، والذى أدى إلى إقصاء الراهب « سان — بيير » عن المحفل الفرنسى « الأكاديمى فرانسيز » — من جراء بعض رسالات كتبت ضد النظام الحكومى السالف الذكر ، الذى أحنق الدوقة « دو مين » ، والكاردينال « دى بولينياك » . وقد أتممت هذا العمل كما فعلت بسابقه ، سواء الرسالة أو الحكم . ولكننى توقفت عند هذا الحد ، دون ما رغبة فى مواصلة هذا المشروع ، الذى ما كان ينبغى ان ابدأه !

وكان الخاطر الذى أوحى إلى بنبذه ، قد وافانى من تلقاء ذاته . وكان من المدهش أنه لم يخطر لى قبل ذلك . فإن معظم كتابات الراهب ، كانت فى مجموعها — أو كانت تشتمل على — ملاحظات نافذة لبعض نواحى نظام الحكم فى فرنسا . وكان بعضها من الصراحة والتحرر بدرجة يعتبر معها الراهب مجدودا لأنه أفلت من العقاب الذى كانت خليقة بأن تجره عليه . على أنه كان يعتبر فى الأوساط الوزارية — طيلة الوقت — كواحد من المبشرين ، أكثر منه كسياسى حقيقى ، ومن ثم فقد ترك يقول كل ما كان يحلو له ، لأنه كان من الجلى أن أحدا لم يكن يصغى إليه . غير أن الأمر كان يختلف إذا ما حملت أنا انتقاداته إلى الأسماع .. ولقد كان فرنسيا ، ولم أكن أنا كذلك ، فإذا كررت انتقاداته — ولو باسمه — لتعرضت لأن اسأل منها سؤالا

عسيرا صارما ـ ولكن دون ما ظلم ـ عما كنت أقحم نفسى فيه. وقبل أن أوغل فى ذلك ، فطنت ـ لحسن الحظ ـ إلى المأخذ الذى كنت اتيحه ضد نفسى ، وتراجعت مسرعا . فلقد كنت ادرك أننى ـ إذ اعيش وحيدا وسط رجال ، ورجال كلهم أقوى منى ـ لن أقوى قط ، ومهما تكن وسائلى ، على ان اقى نفسى اى اذى يحلو لهم ان يوقعوه بى . ولم يكن ثمة فى وسعى ـ إزاء ذلك ـ سوى امر واحد ، ذلك هو أن أجعل من المستحيل عليهم ـ إذا هم راموا إيذائى ـ ان يفعلوا ذلك ظلما . وهذا المبدأ ـ الذى جعلنى اهجر الأب « سـان ـ بيير » ـ كثيرا ما حملنى على ان اطرح عنى كثيرا من المشروعات التى أعتز بها . والذين يبادرون دائما إلى ان يجعلوا من المحنة جريمة ، كانوا خليقين بأن يدهشوا ، إذا عرفوا كل ما تجشمت فى حياتى ، لكى لا يقال لى ـ عن صدق ـ فى اوقات محنى : « لقد استحققتها تماما ! » .

وتركنى نبذ هذا العمل حائرا ـ بعض الوقت ـ بشأن ما اتولاه بعده . وكانت هذه الفترة من البطالة مضيعة لى ، إذ جعلتنى احول افكارى إلى نفسى ، نظرا لعدم وجود ما يشغلنى . فلم تعد لدى مشروعات للمستقبل تروق لخيالى ، كما انه لم يكن من الميسور أن ادبر شيئا من هذه المشروعات ، لأن وضعى الراهن كان هو عين الوضع الذى جمع كل رغباتى .. ومن ثم فاننى لم اذكر فى مشروعات جديدة ، ومع ذلك فقد ظللت اشعر بفراغ . ومما زاد هـذه الحال قسـوة ، أننى لم اكن اجد ما بفضلها إذ كنت قـد اوقفت أرق عواطفى على امرأة راقت

لفؤادى ، وقد بادلتنى هـذه العواطف ، فعشت معها على سجيتى ، وفق ما حلا لى ، كما ينبغى أن يقال . ومع ذلك فان ضيقا خفيا ظل يستولى على فؤادى ، لا يبرحه فى قربها ولا فى بعدها . وكنت اشعر ـ وانا ضجيعها ـ انها ما زالت غير خالصة لى .. وكان مجرد التفكير فى اننى لم اكن لها كل من لها ، يجعلها تبدو لى شيئا لا يذكر تقريبا !

وكان لى أصدقاء من الجنسين ، ارتبطت بهم بأخلص الود، وبأكمل التقدير ، وكنت مطمئنا إلى انهم يكنون لى ـ مقابلها ـ أصدق المشاعر ، فلم يخطر ببالى قط ـ ولو مرة واحدة ـ ان أرتاب فى إخلاصهم . ومع ذلك فقد كانت هذه الصداقة مبعث عذاب ـ لا نعيم لى ـ نظـرا لعنادهم ، بل ولالحـاحهم فى معارضة كل ميولى واهوائى وطريقة حياتى ، إلى درجة انه كان يكفينى ان ابدى رغبة فى شىء لا يهم سـوای وحدى ، ولا يتوقف عليهم ، حتى اراهم يتآزرون ـ فى الحال ـ لإقناعى بالتخلى عنه . هذا الإصرار على السيطرة على كل اهوائى ـ الذى كان يزيده جورا أننى لم اكن بمنأى عن محاولة السيطرة على اهوائهم فحسب ، بل اننى لم اعن قط بتعرف هذه الأهواء ـ لم يلبث ان اصبح مرهقا لى إلى درجة قاسية ، حتى اننى لم اعد ـ فى النهاية ـ اتسلم رسـالة منهم ، إلا وشعرت وانا افضها ، بشىء من الخوف كانت مطالعة الرسالة لا تلبث ان تبرره !.. ولقد تبينت ـ بالنظر إلى انهم كانوا يصغروننى سنا ، وكانـوا فى اشـد الحاجة إلى الدروس التى يخصوننى بهـا ـ ان معاملتهم لى كانت اقـرب ما تكون إلى معـاملة الكبـار لطفـل صـغير . وكنت اقـول لهـم :

« أحبونى ، كما احبكم . وفيمـــا عدا ذلك ، فلا تتدخلـــوا فى شئونى ما دمت لا اتدخل فى شئونكم . وهذا جـــل ما اسالكم إياه ! » . وإذا كانوا قد أولونى، احد المطلبين ، فمن المؤكد انه لم يكن المطلب الأخير !

ولقد كان لى مسكن ناء ، فى عزلة فاتنة ، وكنت سيد دارى وربها ، وكان بوسعى ان اعيش هناك على هواى ، دون ان يفرض على مخلوق سيطرته . ولكن هذه السكنى فرضت على واجبا كان اداؤه يحلو لى ، لولا انه كان محتوما على . فلم تكن حريتى بأسرها سوى أمر موقوت . بل إنها كانت خاضـــعة لسلطان يفوق مجرد الأوامر .. وكنت مضطرا إلى قبول هذا الوضع باختيارى .. لم أكن أملك صباحا واحدا أستطيع ان أقول فيه لنفسى ، وأنا استيقظ : « سأستغل هذا اليوم كما يحلو لى » . فالى جانب اننى كنت رهنا لتدبيرات الســـيدة ديبيناى ، كنت رهنا كذلك لإزعاج اكبر .. إزعاج الجمهور والوافدين . إذ ان المسافة التى كانت تفصلنى عن باريس ، لم تحل دون ان يأتى إلى يوميا زرافات من المتبطلين ، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفيدون من وقتهم ، اللهم إلا أن يبددوا وقتى دون اى اكتراث !.. وكنت افاجأ بهجومهم دون رحمة ، وانا ابعـــد ما اكون عن توقعهم .. ونادرا ما رسمت خطـــة بديعة لنهارى ، دون ان أراها تقلب رأســـا على عقب ، من جراء وصول وافد !

وقصارى القول اننى — فى غمرة النعم التى كنت اشد ما اكون شوقا إليها — لم احظ قط بالسرور الخالص .. فرحت أرتد

وثبا إلى ايام صباى الصافية ، وكنت أهتف لنفسى أحيانا ، وانا اتنهد : « آه !.. لست هنا فى (شارميت) ! »(١) .

❋ ❋ ❋

وافضت بى ذكريات المراحل المتباينة من حياتى ، إلى التفكير فيما انتهيت إليه ، ورايتنى وقـــد بلغت أعتاب الشيخوخة ، فريسة لشرور اليمة .. واعتقدت اننى كنت اقترب من نهاية حياتى العملية ، دون ان أكون قـــد نعمت فى أوجها بشىء من تلك المتع التى كان القلب يصبو إليها .. ودون ان اكون قد افسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة . التى كنت اشعر بأن قلبى كان يدخرها .. ودون أن اكون قد استمرات ، بل دون أن أكون قد تذوقت — على الأقل — تلك اللذة المسكرة ، التى كنت أحس بها فى أعماقى ، فى عنفوانها ، والتى كان افتقادها الهدف والمجال يجعلها دائما مكبوحة ، عاجزة عن أن تنطلق بكل قواها اللهم إلا خلال زفراتى !

فكيف قدر لرجل حبته الطبيعة بروح واسعة الآفاق ، وكانت الحياة لديه هى الحب .. كيف قدر لى ان اعجز — حتى ذلك الحين — عن العثور على صديق يكون لى كل نفسه .. صديق صادق ، وانا الذى كنت اشعر اننى خلقت لكى اكون كذلك ؟.. كيف قدر لى ، وقد أوتيت مشاعر متأججة ، وقلبـــا مفعما بالحب ، والا أكتـــوى مرة واحدة — على الأقل — بلهب هذا

---

(١) « شارميت » بقعة فى الريف السويسرى ، قضى فيها « روسو » فترة النقاهة التى قدر له بعدها ، أن يفترق عن السيدة « دى فاران » .

الحب ، من أجل شخص معين ؟.. ورأيت نفسى أقترب من أعتاب الشيخوخة ، والحاجة إلى الحب تفرى فؤادى ، دون أن أملك قط لها إرضاء أو إشباعا .. رأيتنى أوشك أن أموت ، دون أن أكون قد نعمت بالحياة !

هذه الخواطر الحزينة — وإن كانت ناعمة مفعمة بالحنان — حملتنى على أن أرتد بأفكارى إلى نفسى فى حسرة لم تخل من لذة !.. فقد لاح لى أن القدر كان مدينا لى بشىء لم يستطع أن يمنحنيه . فلماذا خلقت إذن بميزات ومواهب طيبة ، إذا كان قد قدر لى أن أتركها إلى النهاية دون أن أستغلها ؟.. كان الشعور بقيمة الميزات الكامنة فى نفسى ، يوحى إلى بالشعور بالغبن ، ولكنه كان — فى الوقت ذاته — يعوضنى بما يخفف من وطأته ، يحملنى على أن أذرف الدمع الذى كنت أرتاح إلى أن أتركه ينساب !

* * *

وافتنى هذه الخواطر فى أجمل فصول السنة .. فى شهر يونيو ، وفى البساتين الرطبة ، بين شدو البلابل وخرير الجداول .. لقد تكالبت جميعا على دفعى إلى أحضان هذا النعيم المغرى الذى خلقت له .. ولكنها دفعتنى فى حالة ذهنية قاسية ، صعبة ، تولدت عن المشاعر التى ظلت تتفاعل طويلا فى نفسى ، فكانت كفيلة بأن تسلمنى إلى هذا الوضع إلى الأبد !.. ووجدتنى — لشقوتى — أميل إلى تذكر مائدة العشاء

فى قصر « تون »(1) ، والتقائى بتلكما الفتاتين الساحرتين(2) ، فى فصل من العام كهذا الذى كنت فيه — فى هذه المرحلة — وفى بقعة قريبة الشبه من هذه التى كنت فيها فى الآونة التى أتحدث عنها .. ولقد اجتلبت لى هذه الذكرى — التى زادها فتنة ما كان فيها من ريح البراءة — ذكريات أخرى من نوعها. وما لبثت أن رأيت الأشخاص والأشياء التى أيقظت مشاعرى فى صباى ، تتجمع حولى : الآنسة جالى ، والآنسة دى جرافينرييه ، والآنسة دى بريى ، والسيدة بازيل ، والسيدة دى لارناج ، وتلميذاتى الحسان .. حتى «جوليتا» اللاذعة ، التى لم يستطع قلبى أن يسلوها !.. وألفيتنى محوطا بسراب من الحوريات ، من معارفى القديمات ، اللائى لم يكن الشوق المتأجج نحوهن ، بالشعور الجديد لدى .. وفار دمى وسخن، ودارت رأسى بالرغم من شعرى الذى دب إليه الشيب ، وإذا بالمواطن الجنيفى الجاد الوقور ، وإذا بجان جاك المتقشف الذى أشرف على الخامسة والأربعين من عمره ، يرتد فجأة هائما وراء الحب .. ومع أن النشوة التى تملكتنى ، كانت مباغتة وجامحة ، إلا أنها كانت قوية وثابتة ، فلم يكن من سبيل إلى شفائى منها ، إلا عن طريق نوبة الشقاء الفظيعة — غير المرتقبة — التى أسلمتنى إليها هذه النشوة ذاتها !

---

(1) ورد ذكر هذه المناسبة فى الجزء الأول ، صفحة ١٥٤

(2) روى « روسو » قصة هذا اللقاء فى الصفحات من ٢١٦ إلى ٢٢١ من الجزء الأول .

بيد أن هذه النشوة لم تصل ـ برغم ما ذهبت إليه ـ إلى الحد الذى يجعلنى أنسى سنى ومركزى، فأخدع نفسى بأن لدى القدرة على ان أوحى الحب إلى الحسان ، مرة أخرى .. أو إلى الدرجة التى تجعلنى احـاول ان افرج عن هـذا اللهب المتاجج ، وإن كان غير مثمر ، اللهب الذى كنت اشعر ـ منذ طفولتى ـ بقلبى يحترق فيه عبثا !.. بل اننى ما كنت آمل فى ذلك ، ولا كنت اشتهيه ، فقد أدركت أن زمن الهوى قد ولى ، وكنت من الشعور بالسخرية التى تنهـال على العشاق إذا ما غووا فى كبرهم ، بحيث أننى كنت اربأ بنفسى ان اتعرض لها .. وما كنت بالرجل الذى ينقلب مغرورا معتدا بنفسه فى سنى التداعى ، بعد ان كنت مقسطا فى سنى ازدهارى !.. ثم اننى ـ كمحب للسلام ـ كنت اخشى العواصف المنزليـة ، وكنت احب تيريز فى إخلاص بالغ يجعلنى أربا بأن اعرضها للوعـة رؤيتى منساقا إلى سواها ، بمشاعر اشـد احتداما من تلك التى كانت تثيرها فى نفسى ؟

فما الذى ترانى فعلت ، فى هذه المناسبة ؟

لابد ان يكون قارئى قد حدس تصرفى ، لو انه كان قد تتبعنى ـ حتى الآن ـ فى شيء من الانتباه !

ذلك أن استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية ، طوحت بى إلى عالم الأوهام والخيالات .. وعنـدما عز على أن أرى فى الوجود من هم اهل لصبابتى ، وحتى اغذى هذه الصبابة من عالم مثالى ، سرعان ما عمره خيالى الخصب بأناس ممّن يميل

إليهم فؤادى !.. ابدا ما لقى هـذا المنبـع منى مثل هـذا الترحيب ، وابدا ما كان يوما مثمرا إلى هذا الحد !.. ورحت فى نوبات الهيام أسكر بجرعات دسمة من ابهج المشاعر التى دبت يوما فى قلب إنسان !

وتناسيت العنصر البشرى تماما ، فجعلت لنفسى مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال .. مخلوقات سماوية فى فضائلها وجمالها .. أصدقاء أمناء . موفورى الحنان والوفاء ، لا سبيل إلى مثلهم فى العالم الدنيوى . وشغفت بالتحليق فى هذه الآفاق، بين الأطياف الفاتنة التى كانت تحف بى ، حتى اننى اصبحت أنفق الساعات ، بل الأيام فى ذلك ـ دون حساب ـ وانسى كل شيء آخر ، فما ان التهم لقمة من طعام فى عجلة ، حتى اتحرق لهفة إلى الفرار ، لكى اهـرع إلى الاحراش ثانية . فاذا قدر لى ـ وقد تأهبت للانتقال إلى عالمى السحرى ـ ان ارى تعسا من اهل الأرض يفيد، فاننى كنت أعجز عن أن اتلطف او ان اكتم غيظى ، وكنت ـ إذ افقد سيطرتى على نفسى ـ استقبلهم فى جفاء ، يكاد أن يوصف بالعنف غير المهذب . ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة اشـتهارى بأننى مبغض للبشر ، فى حين انه كان خليقا بأن يكسبنى شهرة مناقضة لذلك ، لو اتيح للنـاس ان يقرأوا قلبى ، حق القراءة !

* * *

وفى أوج نشوتى الكبرى ، وجدتنى اجذب كما تشد الطائرة الورقية بالخيط ، لأرد إلى مكانى الطبيعى ، بفضل نوبة حادة من نوبات دائى . فاستخدمت العلاج الوحيد الذى كان يسرى

عنى ، إلا وهــو المجسات(١) ، الأمر الذى أوقف غراميــاتى
الملائكية !.. ذلك لأنه إلى جانب ان المرء لا يميل إلى الهــوى
وهو يعانى الألم ، فان خيالى ــ الذى اعتاد ان يذكو فى الريف
وتحت الأشجار ــ يذوى ويحتضر داخل الحجرات ، وتحت
الواح السقوف الخشبية . ولكم كنت أتحسر إذ أذكر ان ليس
لجنيات الغاب(١) وجــود ، فلا مراء فى اننى كنت خليقــا بأن
أوقف عليها عواطفى !

وضاعف من أســاى أن حدثت فى تلك الفترة ذاتها ، متاعب
منزلية أخرى . فلقد كانت السيدة لوفاسير ماضــية فى بذل
قصارى جهدهــا لتؤلب ابنتهــا على ، فى الوقت الذى كانت
تؤثرنى فيه بأبدع المجاملات .. ولقد تلقيت رسائل من جيرانى
القدامى ، انبئت فيها بأن العجوز الداهية ، كانت قد تورطت
ــ دون علمى ــ فى ديون عديدة ، باسم « تيريز » وبعلمها ..
ولكن هذه لم تذكر لى شيئا عنها . ولم استأ لاضطرارى إلى
دفع هذه الديون ، بقدر ما استأت لأنها ظلت مكتومة عنى !..
كيف تسنى لمن لم اكتم عنهــا سرا ، أن تخفى عنى مثل هــذا
السر ؟.. وهل للمرء أن يخفى أمرا عن اولئك الذين يحبهم ؟..
وكانت عصبة « دولباخ » قد بدأت تخشى جديا ــ إذ رأتنى

---

(١) روى « روسو » حديث مرضه وعلاجه ابتداء من صفحة ١٣٨ (٥٩٢) من الجزء الثالث .

(١) « الدرياد » .. جنيات الغاب ، فقد ورد فى أساطير الاغريق ذكر غابة كانت تتقمص كل شجرة فيها حورية ، أو جنية فاتنة .

لا أزور باريس ــ أن أكون قد استطبت الإقــامة فى الريف .
وانني قد أكون من الحماقة ــ فى رأيهم ــ بحيث أبقى هناك .
ومن ثم بدأت المشاغبات التى أريد بها حلمى ــ بأسلوب غير
مباشر ــ على العودة إلى المدينة . وبدأ « ديدرو » ــ الذى
لم يشأ ان يكشف عن دوره سريعا ــ بأن صرف عنى «ديلبير»
الذى كنت قد عرفته به ، والذى تلقى ما شاء ديدرو ان يوحى
به إليــه من إيعازات ، فنقلهــا إلى دون ان يدرى الفرض
الحقيقى الذى كان مقصودا بها !

ولاح كأنما أجمع كل شىء على انتزاعى من أوهامى الناعمة ،
الطائشة !.. وقبل ان أفيق من نوبة المرض ، تلقيت نسخة
من قصيدة خراب (برشلونة) ، التى ظننت أنها أرسلت إلى
من لدن المؤلف(١) ، فألزمنى هذا بأن أكتب إليه ، وبأن أتحدث
عن قصيدته .. وهذا ما فعلته فى خطاب طبع بعد ذلك دون
ان استشار فى أمر نشره ، كما سيرد فيما يلى :

فلقد ذهلت إذ رأيت هذا المسكين يتخبط فى حيرته ــ كمــا
ينبغى أن يقال ــ إزاء الثروة والمجد ، فيحمل فى مرارة على
محن الحياة وتعاساتها ويخلص إلى ان كل ما فى الحياة شر
وسوء ، فتولتنى رغبة رعناء فى ان أرده إلى رشده ، وان أثبت
له أن كل ما فى الحياة خير وطيب . فالواقع ان «فولتير» ــ وإن
بدا دائما مؤمنا بالله ــ لم يؤمن قط بغير الشيطان !.. إذ أن
الهه المزعوم لم يكن سوى كائن شرير ، لا يجد لذة ــ فى رأى

---

(١) كانت من قصائد « فولتير » .

فولتير ــ إلا فى الأذى . وإذا كان سخف هذا الراى واضحا ، إلا انه مثير لصدوره ــ بوجه خاص ــ من رجل اثقل بالخيرات من كل نوع ، فاذا به يسعى ــ من احضان هنائه ــ لبث القنوط فى نفوس اقرانه ، بأن يصور لهم كل النكبات ــ التى كان هو بمنجى عنها ــ فى صورة بشعة قاسية !.. ولما كنت احق منه بأن اعدد مساوىء الحياة الإنسانية وان ازنها ، فقد استعرضتها فى غير تحيز ، واثبت له ان الحكمة الإلهية براء من كل هذه المساوىء .. وأن هذه إنما تدين بأصولها إلى سوء استخدام الإنسان لمواهبه ، اكثر منها إلى الطبيعة ذاتها. ولقد عاملته فى هذا الخطاب بكل اعتبار ، وكل مراعاة ، وكل تلطف .. بل إنى لأذهب إلى القول بأننى عاملته بكل احترام ممكن . ولما كنت أعرف مدى سهولة اهتياج حبه لنفسه ، فاننى لم ابعث بهذه الرسالة إليه شخصيا ، وإنما ارسلتها إلى الدكتور « ترونشان » ــ طبيبه وصديقه ــ وخولته مطلق السلطان فى ان يسلمها إليه او ان يكتمها عنه ، وفقا لما يراه مناسبا .. وقدم « ترونشان » الرسالة ، فرد على فولتير ببضعة سطور ابدى فيها انه كان مريضا ، وساهرا على مريض ، ومن ثم فانه راى ان يرجىء رده إلى وقت آخر .. ولم يقل شيئا فى الموضوع . وإذ ارسل لى ترونشان هذا الخطاب ، ارفقه بآخر منه ، اعرب فيه عن قلة تقدير للشخص الذى عهد به إليه !

ولم اقدم على نشر هذين الخطابين ، بل ولا على إطلاع إحد عليهما ، فما احببت قط عرض مثل هذه الأنواع من

الانتصارات الصغيرة ، بيد ان اصولها موجودة فى اضابيرى (الملف « أ » ، رقما ٢٠ و ٢١) . ولقد نشر فولتير ــ بعد ذلك ــ الرد الذى وعدنى به ، والذى لم يرسله إلى قط . وما هذا الرد سوى قصة « كانديد » ، التى لا أملك أن اتحدث عنها ، لأننى لم اقراها !

* * *

كانت كل هذه الشواغل خليقة بأن تبرئنى تماما من غرامياتى الوهمية .. ولعلها كانت وسيلة ارسلتها السماء إلى لتحول دون معقباتها المشئومة . ولكن نجمى المنحوس كان فى صعود ، فما أن شرعت فى الخروج ثانية ــ بعد شفائى ــ حتى عاد راسى وقلبى وقدمى إلى عين الدروب السالفة . واقول « عين » فى نطاق ضيق ، وإذ أن آرائى كانت ــ فى هذه المرة ــ اقل سموا وجموحا ، فظلت على الأرض . ولكنها أحسنت اختيار نخبة من كل ما امكنها العثور عليه من الأشياء المستحبة ، فلم تكد هذه النخبة تقل فى وهميتها عن العالم الوهمى الذى هجرته !

فلقد رسمت لنفسى الحب والصداقة ــ وهما معبودا قلبى ــ فى ابدع الأشكال الخلابة . وطاب لى ان أزينهما بكل ما كنت اعجب به دائما من مفاتن الجنس . ولقد ملت إلى تصورهما صديقتين ، وليسا صديقين ، لأن مثل هذا المثال من الصداقة ، وإن كان نادرا ، إلا انه اكثر ملاءمة ولطفا فى الوقت ذاته !.. وخلعت عليهما شخصيتين متجانستين وإن كانتا مختلفتين ، ووجهين ليسا بالغى الكمال ، ولكنهما ... ، بشعان

رحمة وإحساسا . وجعلت إحداهما سمراء ، والأخرى ناصعة البياض .. إحداهما كثيرة الحركة والمرح ، والأخرى رقيقة هادئة .. إحداهما عاقلة حكيمة ، والأخرى ضعيفة ، ولكنه ضعف يهفو بالأفئدة ، إلى الدرجة التى تمكن الفضيلة من الكسب بفضله !.. ووهبت احدهما حبيبا ، كانت الأخرى صديقته الحنون .. بل وأكثر من ذلك . ولكننى لم أدع مجالا لتزاحم ، أو خصام ، أو غيرة ، لأنه من العسير على ان اتصور المشاعر المؤلمة ، ولم اشأ ان اشوه الصورة الفاتنة بشىء يحط من قدر الطبيعة . وإذ شغفت بالنموذجين الفاتنين ، تمثلتنى ــ قدر الامكان ــ العاشق والصديق .. بيد اننى جعلته مليحا وشابا ، وخلعت عليه ــ فوق ذلك ما كنت اراه فى نفسى من فضائل وعيوب .

ولكى أضع هاتين الشخصيتين فى وسط يلائمهما ، رحت استعرض ــ تباعا ــ أجمل البقاع التى رايتها خلال اسفارى . ولكنى لم أهتد إلى أحراش ذات بهجة كافية ، ولا بلد كاف لتحريك العواطف ، وفق ما كان يروق لى . ولقد كانت وديان (تيسالى) خليقة بأن ترضينى ، لو اننى كنت قد رايتها . ولكن خيالى كان قد تعب من الابتكار ، فرغب فى بقعة حقيقية تصلح لأن تكون اساسا ، ولأن توحى إلى بصورة عن حقيقة أولئك الذين كنت أزمع ان اسكنهم هذا المكان . ولقد فكرت طويلا فى جزر بوروما(١) ، التى كان منظرها الساحر قد اطربنى . ولكنى وجدت فيها من الوشى والزينة المصطنعة

(١) فى بحيرة ماجيورى .

اكثر مما كنت ابغى لشخصياتى . ومع ذلك ، فقد كان لابد من بحيرة ، فانتهيت إلى اختيار تلك التى لم يكن قلبى يكف عن التحويم حولها . واستقررت على ذلك الجزء من الشاطىء الذى كانت أمانى قد أقامت عليه مقامى منذ أمد بعيد ، فى السعادة الوهمية التى جعلنى حظى اقتصر عليها .. فلقد ظل مسقط رأس « ماما » المسكينة ينطوى على سحر خاص بالنسبة لى . وادى تباين المواقع ، وغنى البقاع وتنوعها ، وروعة ، وجلال المنظر فى مجموعها .. هذه الصفات التى تبهر الحواس ، وتهز القلب ، وتسمو بالروح ، ادت إلى ان اقر الراى ، وان أوطد مقام شخصياتى الشابة الحبيبة فى (فيفاى) .. كان هذا جماع ما تصورته إذ ذاك ، اما الباقى فلم يضف إليه إلا فيما بعد .

ولقد قصرت نفسى على هذا المشروع المبهم المعالم ، زمنا طويلا ، إذ انه كان كافيا لأن يملأ خيالى بأطياف مستحبة ، وفؤادى بعواطف كان يحب ان يتغذى عليها . ولم تلبث هذه التصورات أن اكتسبت ــ بحكم تكرر ترددها على ــ قدرا كبيرا من الثبات ، فوطدت نفسها فى عقلى ، تحت شكل محدد . وإذ ذاك ، خطر لى أن اعبر على الورق عن بعض المواقف التى كانت توحى إلى بها ، فاسترجعت كل مشاعر شبابى ، لأتيح المجال ــ إلى مدى معين ــ للرغبة فى الحب .. تلك الرغبة التى لم استطع قط أن أشبعها ، والتى كنت أشعر بأنها تلتهمنى !

والقيت على الورق ــ فى البداية ــ بضعة حروف متناثرة .

دون تسلسل او ترابط . وكنت كلما حاولت ان اضم بعضها إلى بعض ، اجد نفسى فى حيرة شديدة . والأمر الذى لا يكاد ان يبدو معقولا ، وإن كان هو الحقيقة بعينها — برغم ذلك — هو أن الجزءين الأولين كتبا بأسرهما — تقريبا — بهذه الطريقة ، دون أن يكون لدى خطة مكتملة التكوين ، بل ودون ان اتوقع أن انساق يوما إلى أن اجعل منهما عملا ادبيا منسقا . ومن ثم فسوف يرى ان هذين الجزءين المؤلفين — بعد وقت طويل — من مواد لم تكن مهيأة للمكان الذى وضعه فيه ، مليئان بحشو من كلام مسهب ولكنه مقل فى معناه ، مما لا يوجد فى الأجزاء الأخرى .

***

وفى عنفوان تخيلاتى ، زارتنى السيدة « دوديتو » ، فكانت هذه أول زيارة تؤديها لى فى حياتها ، ولكنها — لسوء الطالع — لم تكن الأخيرة ، كما سيبدو فيما بعد .. وكانت الكونتة « دوديتو » ابنة المرحوم السيد دى بليجارد ، الناظر العام للزراعة ، واخت السيد ديبينًاى والسيدين دى لاليف وديلا بريس ، اللذين صارا من مقدمى السفراء »(١) . ولقد ذكرت من قبل ، كيف تعرفت إليها قبل زواجها . ولكنى لم أرها بعده إلا فى الحفلات التى كانت تقام (لاشيفريت) ، وفى ضيافة أخت زوجها ، السيدة ديبيناى . وإذ قدر لى ان اقضى

---

(١) مقدمو السفراء ، كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والامراء الاجانب عند زيارتهم الملك او رئيس الدولة .

عدة ايام معها ، سواء فى (لاشيفريت) أو فى (ايبيناى) ، فاننى لم اجدها مفرطة اللطف فحسب ، بل إننى خلت أننى رايت منها ميلا نحوى . وكانت جد مشغوفة بالتريض معى على الأقدام ، وقد كان كل منا قديرا على المشى ، ولم يكن الحديث يفتر بيننا . بيد اننى لم ازرها قط فى باريس ، بالرغم من انها دعتنى بل والحفت على فى ذلك . ولقد زاد من اهتمامى بها ، علاقاتها مع السيد « دى سان — لامبير » ، الذى كانت عرى الصداقة قد بدات تتوثق بينى وبينه .. ومن اجل إبلاغى أنباء هذا الصديق ، كان مجيئها إلى (ليرميتاج) .

ولقد بدت هذه الزيارة — إلى حد ما — كفاتحة قصة غرامية . ذلك لأنها ضلت الطريق — اثناء قدومها — إذ انحرف سائق عربتها عن الطريق عند منحنى فيها ، واراد ان يقتضب المسافة ، بأن يسعى فى خط مستقيم بين الطاحون القائمة فى (كليرفو) و (ليرميتاج) . ولكن العربة غاصت فى الوحل فى قاع الوادى الصغير ، فقررت السيدة ان تبرحها وان تقطع ما بقى من الرحلة على قدميها . ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبثا ان ابتلا ، ثم غاصت هى فى الوحل ، ولقى خدمها اشد العناء فى تخليصها .. وقدر لها أن تصل اخيرا إلى (ليرميتاج) . وقد ارتدت حذاءى رجل ، وسط رنين الضحكات التى مزجت بها ضحكاتى حين شهدت منظر الوصول !.. وكانت السيدة مضطرة إلى ان تغير جميع ثيابها . وقد تولت « تيريز » هذه المهمة ، بينما اقنعتها انا بأن تطرح عنها كبرياءها ، وان تشاركنا وجبة (تصبيرة) ريفية ، لم تلبث ان استمرأتها .

وكان الوقت قد فات ، فلم تمكث سوى برهة وجيزة . بيد ان اللقاء كان مرحا ، وقد راق لها ، وبدا عليها الميل إلى ان تأتى مرة اخرى . ومع ذلك فانها لم تحقق ذلك إلا فى العام التالى . ولكن ، وا أسفاه .. إن هذا الارجاء لم يعصمنى فى شىء !

* * *

وقضيت خريف تلك السنة فى عمل لا يخطر ببال أحد .. ذلك هو حراسة فواكه السيد ديبيناى . فلقد كان خزان المياه التى تروى بساتين (لاشيفريت) يقوم عند مبنى (اليرميتاج) ، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية ، وقد زرعت فيها اشجار متباينة ، كانت تمد السيد ديبينــاى بفواكه تفوق فى كميتها إنتاج الحديقة الملحقة بمطابخ (لاشيفريت) ، برغم أن ثلاثة ارباعها كان يسرق . ولكى لا اكون ضيفا عديم النفع ، فاننى تكفلت بشئون الحديقة ، وبالاشراف على البستانى . وسار كل شىء على ما يرام ، حتى حان موسم الفاكهة ، فاذا بها تختفى تباعا ، كلما نضجت ، دون أن ادرى ما كان يحل بها . واكد لى البستانى أن جرذان الحقل التهمتهــا جميعا ، ومن ثم فقد اعلنت الحــرب على الجرذان حتى قضيت على كثير منها . ومع ذلك فقد ظلت الفاكهة فى اختفاء . واحكمت الرقابة ، حتى اكتشفت أخيرا ان البستانى نفســه ، كان الجرذ الأكبر .. فلقد كان يقيم فى (مونمورنسى) ، وكان يفد مع زوجته وأولاده فى جنح الليل ، فيحملون الكميــات التى يكون قد أعدها ــ فى النهار ــ من الفاكهة ، ليعرضها الرجل



ثم غاصت هى فى الوحل ، ولقى خدمها أشد العناء فى تخليصها ..

للبيع فى سوق (باريس) جهارا ، وكأنه أوتى بستانا ملك يمينه !.. وكان هذا التعس الذى اغرقته بخيراتى ، والذى كست تيريز أولاده ، والذى أصبحت أعول اباه تقريبا ، بعد أن كان يتسول .. هذا التعس كان يسرقنا نحن ايضا ، بسهولة وقحة ، إذ لم يكن بيننا نحن الثلاثة من أوتى يقظة كافية لأن توقفه عند حده .. ولقد استطاع ـ فى ليلة واحدة ـ أن يفرغ قبو مسكنى ، فاذا بى لا أعثر فيه على شىء ، فى الصباح التالى !

ولقد كنت احتمل اعماله ، عندما كان يبدو انه يقصر نشاطه على وحدى .. اما وقد رغبت فى تحمل مسئولية الفاكهة ، فانى اضطررت إلى أن افضح السارق . ورجتنى السيدة ديبيناى أن انقده اجره ، واسرحه من الخدمة ، وابحث عن سواه . ففعلت.. ولما راح هذا الشقى يحوم حول (اليرميتاج) كل ليلة ، متسلحا بقضيب حديدى ضخم، كان يبدو كالهراوة ، ومتبوعا بأنذال آخرين من صنفه ، فقد رأيت لكى اطمئن « الدادتين »(١) اللتين أفزعهما هذا الرجل إلى اقصى حد أن أدعو خليفته لأن ينام فى (ليرميتاج) كل ليلة . ولكن هذا لم يهدىء من روعهما ، فطلبت من السيدة ديناى بندقية احتفظت بها فى غرفة البستانى ، مع تنبيهه إلى عدم استعمالها إلا عند الحاجة ـ عندما تبدر محاولة لاغتصاب الباب أو تسور الحديقة ـ والا يطلق فى هذه الحال سوى البارود ، لمجرد

(١)« الدادتان » هو الاسم الذى أطلقه أصدقاء «روسو» على تيريز وأمها.

إرهاب اللصوص . ولا مراء فى ان هذا كان اقل احتياط يتخذ من أجل السلامة العامة لرجل معلول ، يقضى الشتاء وسط الغابات ، وحيدا مع امراتين رعديدتين . وحصلت اخيرا على كلب صغير ليستخدم فى الحراسة .

وإذ جاء « ديلير » لزيارتى فى تلك الفترة ، فقد رويت له قصتى ، وضحكت معه من استعدادى العسكرى . فلما عاد إلى (باريس) ، رغب فى أن يضحك « ديدرو » بدوره .. ومن هنا علمت عصبة « دولباخ » أننى كنت اعتزم جادا أن أقضى الشتاء فى (ليرميتاج) ، فأسخطهم هذا الاصرار على عزمى ، إذ لم يكن بوسعهم أن يتصوروه وعملوا ـ ريثما يرسمون بعض الأحابيل لكى يعكروا إقامتى(١) ـ إلى الوقيعة ، عن طريق « ديدرو » ، بينى وبين « ديلير » ، الذى اعتبر احتياطى ـ فى

(١) عقب «روسو» على هذه النقطة ـ بعد الفراغ من كتابة اعترافاته ـ بقوله : « اننى ـ فى لحظتى هذه ـ أعجب من غبائى اذ لم أبصر ، عندما كنت أكتب هذه السطور ، أن الاستياء الذى استشعرته عصبة « دولباخ » ـ حين تبينت أننى كنت مزمع الاقامة فى الريف ـ لم يكن راجعا الا الى أنهم لم يعودوا يجدون السيدة لوفاسير ، فى متناول يدهم ، لترشدهم فى خططهم بان تحدد لهم الأماكن والمواعيد . وهذه الفكرة ـ التى لم تتوانى الا أخيرا جدا ـ توضح تماما غرابة مسلكهم الذى يبدو غير واضح تحت أية افتراضات أخرى » .. ولم يوجد هذا التعقيب فى اية طبعة سابقة على سنة ١٨٠١ مما ينم عن أن هذه الفكرة وافته عندما لـ[illegible] النسخة [illegible] من المخطوطات فى حوزته .

البداية — مجرد أمر طبيعى ، ولكنه لم يلبث أن انتهى إلى انه أمر مناقض لمبادئى ، واسوأ من أن يستحق السخرية فحسب .. وصارحنى بذلك فى خطابات اغرقنى فيها بنكات لاذعة ، بلغ من لذعها انها كانت تمس كرامتى ، لو أن مزاجى كان ميالا إلى هذا الاتجاه . ولكننى كنت مغرقا — إذ ذاك — فى المشاعر الرقيقة ، اللطيفة ، فلم اشك فى اى شىء آخر ، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرد مداعبات للاضحاك ، كما اعتبرت « ديلير » مجرد ماجن ، فى حين ان اى امرىء غيرى كان خليقا بأن يعتبره مخبولا ! (١) .

وبفضل اليقظة والعناية ، افلحت تماما فى حماية الحديقة ، التى درت ثلاثة أمثال ما درته من الفاكهة فى العام السابق ، برغم ان المحصول كان فاشلا — تقريبا — فى هذه السنة . بل اننى رافقت الشحنات التى ارسلتها إلى (لاشيفريت) و (ابيناى) ، وحملت بنفسى بعض السلال . وإنى لاذكر اننى و « العمة »(٢) حملنا فى إحدى المرات سلة بلغ من ثقلها اننا اضطررنا — لكى نتفادى التداعى تحت وطأة الحمل — إلى ان نستريح كل اثنتى عشرة خطوة .. ووصلنا — فى النهاية — مبللين بالعرق !

---

(١) أضاف « روسو » الى هذه العبارة : « ومن ثم فان الذين حرضوه ، أضاعوا جهدهم سدى فى هذه المناسبة . فقضيت الشتاء فى هدوء بالغ ! » .

(٢) العمة : لقب اعتاد « روسو » ان يطلقه على « تيريز » .

سنة ١٧٥٧

عندما شرع فصل الطقس السىء فى إلزامى مسكنى ، وددت ان أعاود مهامى التى تؤدى فى البيت ، ولكننى لم أجد إلى ذلك سبيلا ، إذ اننى لم اعد أرى فى كل مكان سوى الصديقتين الفاتنتين(١) ، وصديقهما ، وما يحيط بهما ، والبلد الذى يقيمان فيه ، والأشياء التى خلقها خيالى او هذبها من اجلهما . ولم اعد ملك نفسى لحظة واحدة ، فان هذا الحلم لم يعد يفارقنى ، وبعد جهود كثيرة ، غير مجدية ، لإقصاء هذه الرؤى الخيالية عنى ، وجدتنى انساق لغوايتها ، فلا اشغل منذ ذلك الحين إلا بمحاولة توفير شىء من النظام وشىء من التتابع فيها ، لكى اجعل منها نوعا من القصص الخيالى .

وكان اعظم ما حيرنى ، هو ذلك الخجل الذى ساورنى ، إذ شعرت بأننى اناقض نفسى صراحة وفى جراة . افبعد المبادىء الصارمة التى ارسيتها بكل هذا الضجيج ، وبعد الآراء التقشفية التى رحت ابشر بها بكل هذه القوة ، وبعد الحملات اللاذعة التى حملتها على الكتب الناعمة (المخنثة) التى كانت تفوح بالحب والميوعة .. افبعد كل هذا يكون ثمة ما هو ابعد عن الارتقاب ، وأدعى للدهشة والاستنكار ، من ان ارى فجاة وقد انضويت — بمحض إرادتى — بين مؤلفى تلك الكتب التى انتقدتها بكل هذه القسوة ؟!.. لقد احسست بهذا التذبذب فى عنفوان قوته ، فرحت ألوم نفسى ، واستحيى منها ، واسخط

---

(١) يقصد الشخصيتين اللتين ابتدعهما خياله —

عليها .. ولكن كل هذا لم يكن كافيا لأن يردنى إلى حجاى .
وكان على ــ فى انصياعى التام ــ ان أخوض كل المخاطر ، وان أتهيأ لمواجهة كل ما يقال .. وأن أعد ذهنى لكل شىء اللهم إلا ان اتعرض لأن اقرر ــ فيما بعد ــ ما إذا كنت أنشر كتابى على الناس او لا انشره . إذ أننى لم اكن اعتقد أننى قد أنشره !

وإذ انتهيت إلى هذا الرأى ، ألقيت بكل نفسى فى غمرة تصوراتى ، وبفضل تقليبها فى ذهنى مرارا ، رسمت فى النهاية مشروع الخطة التى شاهد الرأى العام الكتاب يخرج بمقتضاها . ومن المحقق ان هذا كان خير ما يستمد من نزواتى .. فان حب الخير ، الذى لم يغادر قلبى البتة ، حول هذه النزوات تحويلا طبيعيا نحو أهداف نافعة ، كان من الممكن ان تغدو مثمرة وذات نفع خلقى . لقد كانت مناظرى المستوحاة من الحب خليقة بأن تفقد بهاءها ، لو أعوزتها صبغة البراءة اللطيفة . إن الفتاة الضعيفة تكون موضع إشفاق ، قد يجعله الحب مادة مشوقة لا تفتر متعتها فى كثير من الأحيان . ولكن منذا الذى يطيق ــ دون استنكار ــ منظر الآداب والأخلاق فى إطار حديث ؟.. اى شىء أدعى للتقزز من غرور الزوجة الخائنة ، التى تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارا ، ثم تزعم ــ برغم ــ ذلك ــ ان زوجها خليق بأن يتقبل فى عرفان عميق ، ما تمنحه من صنيع ، إذ تتكرم فلا تدع نفسها تباغت وهى تمارس الخيانة ؟!.. ليس للمخلوقات المثالية الكاملة وجود ، ومن ثم فان الدروس التى توحى بها جد بعيدة عن ان

نستسيغها . أما إذا قدر لشابة ، منحتها الطبيعة قلبا يزخر بالشرف بقدر ما هو مفعم بالحنان ، أن تدع الحب يغلبها وهى فتاة عذراء ، ثم تجد من نفسها القوة على ان تهزمه بدورها ــ وقد غدت امراة ثيبا ــ لتغدو عفيفة من جديد ..! إن الذى يقول لك إن هذه الصورة فى مجموعها فاضحة ، وغير مفيدة ، لكاذب ومنافق ، فلا تصغ إليه ، مهما يكن !

وكان لدى إلى جانب الاخلاق والأمانة الزوجية ــ اللذين يرتبطان ارتباطا جوهريا بكل نظام اجتماعى ــ هدف أعمق واكثر تواريا .. ذلك هو التوافق ، والوئام العام .. وهو هدف أعظم من سابقه ، وربما كان ــ فى حد ذاته ــ اكثر قيمة وأهمية .. بل إنه كان كذلك فى تلك الآونة حقا .. ولم تكن العاصفة التى أثارتها « الموسوعة »(١) قد خمدت ، بل إنها كانت ــ فى هذه الفترة ــ فى أوج احتدامها . فقد انطلق كل من الفريقين(٢) يهاجم الآخر فى سعار جامح ، وكأنهما قطيعان من ذئاب مسعورة ، تأهب كل منهما لأن يمزق الآخر فى هياجه .. لا فريقان من مسيحيين(٣) وفلاسفة تواقين لتبادل المعرفة والاقناع ، كى يهدى كل منهما الآخر إلى طريق الحقيقة !.. بل إنه لمن الجائز أن يقال إن كلا من الفريقين لم تكن تنقصه

---

(١) أورد « روسو » ذكر « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » فى صفحة ١١٥ (٥٦٩) من الجزء الثالث .

(٢) يقصد أنصار المشروع ومعارضيه .

(٣) يستعمل « روسو » كلمة « المسيحيين » هنا بمعنى المتدينين ، المتورين .

سوى قادة عاملين ذوى شهرة ، كى ينقلب النزاع إلى حرب اهلية !.. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب اهلية دينيـــة ، كانت اقسى الوان التعصب تكمن فى قرارة كل من الجانبين !

* * *

ولـمـا كنت بفطرتى عدوا لكل تحزب ، فاننى افضيت إلى كل من الجانبين بالحقائق المريرة التى ابوا ان ينصتوا إليها . وانطت بنفسى مهمة اخرى تراءت لى — فى سذاجتى — جديرة بالاعجاب. تلك هى ان أخفف من العداء المتبادل بين الفريقين ، وان اقوض اباطيلهما ونعراتهما ، وابين لكل كفـــاءة الآخـــر وفضائله وجدارته بالتقدير العام ، وباحترام الجنس البشرى بأسره[1] ولقد ظفر هذا المشروع غير المعقول — الذى قادنى إلى عين الخطأ الذى اخذته على الأب « سان بيير » — بالنجاح الذى كان يستحقه . إذ انه لم يقرب بين الفريقين ، وإنما البهما معا ضدى !.. وإلى ان تكشفت لى حماقتى ، اقبلت عليها بكل حماس جدير بالحافز الذى الهمنيها ، كما ينبغى ان يقـــال ، فرسمت شخصيتى « فولمار » و « جولى » ، وانا فى نشـــوة حملتنى على ان آمل فى ان اجعلهما معا خليقين بالحب ، وان يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر !

وإذ ارتحت إلى رسم الهيكل البدائى لمشروعى ، عدت إلى المواقف التى كنت قد عينتها للتوسع والتفصيل . فادى النظام

(١) كان تنفيذ هذه المهمة يتمثل فى انتاج كتاب هو محور حديثه فى هـــذه الفقرات .. وهو كتاب « جولى ».

الذى رتبتها بمقتضاه ، إلى الجزءين الأولين من كتاب «جولى»، الذى كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء ، فى غبطة لا سبيل إلى وصفها ، مستعملا ابدع ورق مذهب الحواف ، ومستخدما مسحوقا أزرق وفضـــيا لتجفيف مداد الكتابة ، وشريطا ازرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتى . وموجز القول اننى لم اضن بكل شىء انيق وبديع على فتاتى الفاتنتين ، اللتين عشقتهما وكأننى « بيجماليون » آخر[1] . فكنت فى كل مساء ، اقرأ — إلى جانب مدفأتى — هذين الجزءين وارددهما على سمع «الدادتين» . فكانت الابنة تذرف معى الدمع حنانا ، دون أن تنبس ببنت شفة . اما الأم التى لم تجد فيمـــا كنت اقرأ اية مجاملات ، فانها لم تفقه شيئا ، فكانت تمكث ساكنة ، مكتفية بأن تردد لى دائما ، فى لحظات الصمت : « هذا بديع جدا يا سيدى » !

واقلق السيدة « ديبيناى » أن تعلم اننى كنت وحيدا — فى الشتاء — وسط الغابات ، وفى منزل منعزل ، فراحت تكثر من إيفاد من يتسقطون أنبائى . وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لى ، كما ان مشاعرى لم تكن يوما اكثر حرارة مما كانت فى مقابلة ودها . وإنى لأذنب إذا أغفلت أن اذكر من هذه الشواهد انها ارسلت إلى صورتها ، وسألتنى

(١) « بيجماليون » ملك زعمت الاساطير الاغريقية أنه صنع تمثالا من عاج للمراة — كمـــا كان يراها — فاذا به يتدله فى هوى التمثـــال ، حتى بثت « افروديت » الحياة فى العاج ، فانقلب التمثال فتاة تزوجها الملك الفنان .

ان آذن لهـــا بالحصول على صورتى ، بريشة « لاتور » ، ثم عرضتها فى قاعة جلوسها (صالونها) . كذلك ينبغى الا أغفل لفتة اخرى من لفتاتها ، قد تبدو مضحكة ، ولكنها من معـــالم تاريخ شخصيتى ، وذلك بفضل الأثر الذى احدثته فى نفسى. ففى ذات يوم ، وقد اشتد تكاثف الصقيع ، فضضت حزمة أرسلتها هى لى ، وضمنتها عدة أشياء تكفلت باعدادها لى ، فوجدت بينهـــا « جونلـــة » داخلية قصيرة ، من «الفانيلا » الإنجليزية ، ذكرت انها اعتادت ان ترتديهـــا ، وأعربت عن رغبتها فى أن أصنع منها صدارة . وكان اسلوب رسالتهـــا ساحرا ، مليئا بالحنان والسذاجة . وبدا اى هذا الدليل على العناية ــ الذى كان يفوق كل ما تمليـــه الصـــداقة ــ بالغ الحنان ، حتى لكأنها قد تعرت لكى تكسونى ، وحتى أننى ــ فى جيشان عواطفى ــ قبلت الرســـالة و « الجونلة » عشرين مرة ، وانا ابكى ! وظنت « تيريز » أننى قد اختبلت !.. ومن العجيب حقا أن شيئا من دلائل الود ــ التى اسبغتهـــا على السيدة ديبيناى ــ لم يؤثر فى نفسى قـــدر ما أثر هذا الدليل الذى ما اعتدت ان أتذكره دون أن تخفق مشاعرى ، حتى بعد القطيعة التى ضربت بيننا . وقد احتفظت برسالتها القصيرة أمدا طويلا ، وكنت خليقا بأن أظل محتفظا بها ، لولا أنها لقيت مصيرها مع رسائلى الأخرى التى تمت إلى هذه الفترة(١) .

---

(١) نشرت هذه الرسالة فى مذكرات السيدة ديبيناى ، وقد جاء بهـــا : « أرسل الى ناسكى هذه الأشياء للسيدتين لوفاسير . ولما كان الرسون الذى =

ومع أن احتباس البول لم يدع لى نصيبا يذكر من الراحة ، فى ذلك الشتاء ، ومن أننى كنت أضطر ــ لفترة من الزمن ــ إلى استخدام المجسات .. مع ذلك فان هذا الفصل كان أمتع الفصول التى قضيتها ــ منذ وصولى إلى فرنسا ــ واكثرها هدوءا !.. ففى خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التى ساعد سوء الطقس على زيـــادة اعتـــكافى وعزلتى عن الزائرين ، استمرت هذه الحياة المستقلة ، المسترسلة ، البسيطة ، كما لم استمرئها من قبل .. ولم يزدها الاستمراء ــ فى نظرى ــ إلا قيمة .. ولم يكن لى من أنيس سوى « الدادتين » ــ فى عالم الحقيقة ــ وابنتى جنسيهما ، فى عالم الفكر ، وفى ذلك الوقت بالذات ، رحت أهنىء نفسى يوما بعد يوم ، على القرار الذى أوتيت من حسن الإدراك ما مكننى من اتخاذه ، دون أن احفل بصيحات أصدقائى .. الذين اغضبهم أن رأونى أفلت من تسلطهم(١) .. ولكم حمدت اتســـاء عنـــدما سمعت عن

=

استخدمه جديدا ، فهاك بيان ما أرسلت معه » ..وفى نهاية الأشياء قالت : « وقطعة من « الفانيلا » الحريرية جد صالحة لها (أى السيدة لوفاسير) لتصنع منها صدارة مناسبة لها ، أو لك انت ، وعم صباح ياملك الدببة ».! .. ومن الواضح أن هذه الرسالة لا تستحق كل هذا الاسهاب الذى ذكرها به « روســو » ، ولكن ايرادها فى سياق ذكرياته ــ على هذا النحو ــ يدل على مدى تقديره لما كان أصدقاؤه يؤثرونه به من كـــرم وعطف ، وعلى أن ما لقيه من بعض هؤلاء الأصدقاء ، لم يحمله على أن يجحد أفضالهم فى أوقات الصفا !

(١) يقصد قرار النزوح عن باريس والاعتكاف فى الريف

محـاولة معتـوه (١) ، وحين حدثنى « ديلبير » والسـيدة « ديبيناى » ، فى خطاباتهما ، عن الاضطرابات والقلاقل التى سادت باريس ، إذ كنت بمنأى عن مناظر الارهاب والجريمة ، التى لم يكن لها من اثر سوى تغذية وشحذ المزاج الصفراوى ، الذى كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره فى نفسى .. فى حين اننى لم اكن ارى نفسى — فى هذه الفترة — محوطا بغير اطياف باسمه ، وادعة ، فكان فؤادى غير منسـاق لغير الأحاسيس المستحبة اللطيفة . إننى لأسجل هنا فى انتشـاء ، سير تلك اللحظات الوادعة التى كانت آخر ما اتيح لى ان انعم به . فان الربيع الذى اعقب هذا الشتاء الهادىء ، شـهد تفتح بذور المصائب التى بقى على ان اصفها ، والتى لن يقدر لامرىء ان يرى — خلال نسيجها — فترة تشبه هذه التى كنت أستطيع ان اجد فيها متنفسا !

* * *

ومع ذلك ، اراني اتذكر اننى — خـلال هـذه الفتـرة المطمئنة ، بل وفى اعماق عزلتى — لم ابق بمنجى تام من عصبة « دولباخ » . فقد اثار « ديدرو » بعض مضايقات لى ، وما لم اكن موغلا فى الخطأ ، فاننى اظن ان « ابناء السفاح » — وهى القضية التى سأتحدث عنها توا — ظهرت فى هـذا الشتاء . ولست بحاجة إلى ان اذكر عـددا جد ضئيل من الوثائق التى يمكن الاستناد إليها فيما يتعلق بهذه الفترة .. بل إن الوثائق

(١) محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر ، فى ٤ يناير سنة ١٧٥٧

التى تركت لى منها ، غير دقيقة التواريخ إلى حد كبير . فان ديدرو لم يكن يثبت التاريخ على رسـالة قط ، وكذلك لم تكن السيدة ديبيناى والسيدة دوديتو تؤرخان خطاباتهما بغير ذكر اسم اليوم ، وكان ديلبير يحذو حذوهما فى اكثر الأحيان . فلما اردت ان ارتب هذه الرسائل ، كان على ان اتحسس طريقتى فى الظلام لأحدس تواريخ لا يمكن الجزم بصحتها ، ولا أملك ان اركن إليها . ومن ثم فاننى — إذ اعجز عن إثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة — اوثر ان اروى فيما بعد — فى قسم منفصل — كل ما أستطيع ان اذكره عنها .

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتى العاطفية ، فاذا بى فى نوباتى الولهانة أصوغ — للجزءين الأخيرين من "جولى" — عدة خطابات تطفح بالنشوة التى كنت فيهـا وانا اكتبهـا . واستطيع ان اذكر الرسالة التى دارت حول جنة الوثنيين ، والرسالة التى وصفت النزهـة على ضفاف البحيرة ، وهما اللتان — إذا صح ما اذكر — تختمان الجزء الرابع . فاذا قدر لأحد ان يقـرأ هاتين الرسالتين دون ان يشعر بقلبـه يلين ويذوب فى نفس المشاعر التى املتها على ، فخير له ان يغلق الكتاب ، لأنه غير قـدير على ان يعـرف للأشياء العاطفية قيمتها !

وفى تلك الآونة بالذات ، تلقيت زيارة ثانية — لم تكن مرتقبة — من السيدة « دوديتو » . فلقد وفدت على (أوبون) — فى وسط وادى مونمورنسى — فى غياب زوجها ، الذى كان ضابطا فى الشرطة ، وشيقها الذى كان كذلك فى السلك العسكرى .

وكانت قد اتخذت لإقامتها هناك بيتا بديعا للغاية . ومن هذا البيت ، جاءت فى نزهة ثانية إلى (ليرميتاج) . وقـد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد ، وفى زى الرجل . ومع أننى لا أميل إلى مثل هذا الخلط فى الأزياء ، إلا أننى اعجبت بمـا كان فى تنكرها هذا من جو شاعرى ، خيالى .. وكان شعورى فى هذه المرة هو .. الحب !. وإذ كانت هذه هى المرة الأولى ــ والوحيدة ــ فى حياتى باسرها ، وقد تركت معقباتها اثرا على ذاكرتى طبع بقــوة لا تجعله ينمحى ، فلا بد لى من أن أخوض هذه المسألة بشىء من التفصيل .

كانت السيدة الكونتة دوديتو تقترب من عامها الثلاثين ، ولم تكن جميلة على الاطلاق ، فقد ترك الجدرى آثاره على وجهها ، وكانت بشرتها تفتقد النعومة ، كما أنها كانت قصيرة النظر ، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغى .. بيد أنهـا أوتيت مع كل هذا إشراقة الشباب ، وكانت قسماتها ــ التى جمعت بين الحيوية والرقة ــ جذابة .. وكانت تمتلك فيضا من شعر أسود رائع ، مجعد بطبيعته ، ومنسدل حتى ركبتيها .. أما قوامها ، فكان صغيرا لطيفا ، وكانت تودع كل حركاتها خفرا وبهاء فى وقت واحد . وكان ذكاؤها عاديا ومقبولا للغاية ، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة أهنأ اقتران . فكانت تنساب فى سيل من الدعابات الفاتنة التى لم تكن تتكلفها البتة ، والتى كانت تنطلق بالرغم منها أحيانا . وكانت على كثير من المواهب المستحبة ، فكانت تتقن العزف على « البيانو » ، وتجيد الرقص ، وتقرض أشعارا بديعة للغاية . أما أخلاقها ،

فكانت ملائكية ، باطنها رقة النفس ، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل .. وكانت ــ فوق كل هذا ــ أهلا للثقة فى المعاشرة ، وذات وفاء فى الصحبة ، إلى درجــة أن أعداءها أنفسهم لم يكونوا بحاجة إلى أن يتستروا منهـا . وأقصد بأعدائها أولئك الذين ، أو بالأحرى أولئك اللائى كن يكرهنها . أما من ناحيتها هى ، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على أن يكره أحدا .. وأعتقد أن هذا التشابه فى الطباع ، قد ساعد كثيرا على إذكاء وجدى نحوها !

وما سمعتها قط ــ فى الخلوات التى كانت تمتاز بأوثق مظاهر الود ــ تتحدث بسوء عن الغائبين ، بل ولا عن أخت زوجها !.. وما كانت تملك أن تخفى ما بفكرها عن أى مخلوق ، ولا أن تكبح شيئا من مشاعرها ، حتى أننى لأميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تتحدث عن عشيقها إلى زوجها ، بنفس الصراحة التى كانت تتحدث بها عنه إلى أصدقائها ومعارفها وكل النـاس على السواء !.. وأخيرا ، فان الذى يثبت ــ دون مراء ــ نقاء وإخلاص فطرتهـا الرائعة ، هو أنهـا كانت تتعرض لأعجب نوبات شرود الذهن ، ولأكثر نوبات السهو مدعاة للضحك ، وكثيرا ما كانت هذه النوبات تفتقد الحكمة ــ بالنسبة لها هى بالذات ــ ولكنها لم تكن لتمس قط أى إنسان بما يجرح كرامته !

وكانت قد زفت ــ وهى بعد صغيرة ، وبالرغم عنها ــ إلى الكونت دوديتو ، الذى كان ذا جاه ، وكان عسكريا شهما ، ولكنه كان مقامرا ، شرسا ، يعوزه اللطف ، فلم تحبــه هى قط .. وإنما وجدت فى السـيد « دى [illegible] لامبير » ، كل

ما كان لدى زوجها من خصال طيبة ، إلى جانب صفات أخرى أكثر ملاءمة .. فمن ذكاء ، إلى فضائل ، إلى مواهب . ولو جاز للمرء ان يغفر شيئا من طباع ذلك العهد ، فانما الجدير بالغفران حقا هى العلاقة التى لا تزداد مع الزمن إلا صفاء ، ولا تزيدها آثارها إلا تكريما وتمجيدا ، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين (١) !

وعلى قدر ما يخيل إلى ، كانت قد صدرت فى زيارتها لى عن قليل من ميلها الخاص ، وكثير من الرغبة فى إرضاء « سان — لامبير » . فقد كان يستحثها على ذلك ، وكان على صواب إذ اعتقد ان الصداقة التى بدات تقوم بيننا ، كانت خليقة بان تجعل هذه الصحبة ملائمة مستحبة لثلاثتنا . وكانت تعلم اننى مطلع على علاقتهما ، ومن ثم فان فى استطاعتها ان تتحدث إلى عنه دون حرج ، كانت كفيلة بان تجعلها ترتاح إلى

---

(١) توفيت هذه السيدة وهى فى الثالثة والثمانين من عمرها ، وقد ظلت الى آخر حياتها محتفظة بطيبة نفسها ، واحترام عواطفها وخيالها . وميلها الى اللهو والمسرات الذهنية . وكانت ذات براعة فى قرض الشعر . وقد قالت فى قصيدة ودعت بها عشيقها « سان — لامبير » ، قبل رحيله للخدمة العسكرية :

« الحبيب الذى اعبده .. وقد تأهب لفراقى

« بقيت له لحظة .. فاراد ان يستغلها » .

« يا لها من متعة باطلة .. يشتهى اقتناصها .

« وما اشد الضنى .. ليصبح المرء لذة ! » .

صحبتى . ومن ثم جاءت .. واستقبلتها .. وكنت نشوان بحب غير ذى هدف منظور ، فاذا النشوة تسحر عينى ، وإذا الهدف يتركز عليها هى . فرأيت « جولى » — التى ابتدعتها — فى السيدة « دوديتو » .. ولم أعد — بعد قليل — أرى سوى السيدة « دوديتو » فقط ، وقد اكتست بكل أسباب الكمال التى كنت ازين بها معبودة قلبى !.. ولكى تسكرنى تماما ، راحت تحدثنى عن « سان — لامبير » فى وجد مشبوب .. فيالسلطان الهوى المضيع !.. لقد استولت على — إذ كنت اسمعها ، وإذ كنت أشعر بالقرب منها — قشعريرة عذبة ، لم اعهدها قط فى قرب أى شخص !.. وراحت تتكلم ، وانا نهب للانفعالات .. ووهمت اننى لم اكن مهتما بغير مشاعرها ، فاذا بى احس بمشاعر على شاكلتها .. ورحت أجرع — فى دفعات كبيرة — الكأس المسمومة التى لم اعد اتذوق فيها سوى الحلاوة المذبة !.. وفى النهاية ، بعثت فى نفسى نحوها — دون ان افطن ، ودون ان تفطن هى — كل ما عبرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها . واحسرتاه !.. كان الوقت المناسب قد فات ، وكان من القسوة ان احترق بوجد مشبوب — لم يكن فى عنفه بأقل منه فى تعاسته وشقوته — نحو امراة ، كان قلبها مليئا بحب آخر !

وبالرغم من الانفعالات الغريبة التى خامرتنى فى قربها ، فاننى لم افطن — فى البداية — إلى ما أصابنى .. ولم يكن ذلك إلا بعد رحيلها ، وعندما اردت ان أفكر فى « جولى » ، فاذا بى أبهت إذ وجدت أننى لم أعد أقوى على التفكير فى غير السيدة

دوديتو . وإذ ذاك ، انجابت الحجب عن عينى ، واحسست بسوء حظى ، فرحت ائن واتأوه .. ولكننى لم احدس ما كان هناك من نتائج !

ولقد ترددت طويلا بصدد الطريقة التى انتهجها فى تصرفى نحوها ، وكأنما كان الحب الحقيقى قد خلف من العقل ما يكفى لكى اتخير لنفسى المسلك !.. ولم اكن قد انتهيت إلى قرار ، عندما جاءت مرة اخرى ، ففاجأتنى على غير استعداد . وفى هذه المرة ، أيقنت من موقفى ، فاذا الحياء ــ قرين السوء ــ يعقل لسانى ، فرحت ارتجف أمامها ، دون ان اجرؤ على أن افتح فمى ، او ان ارفع عينى .. كنت فى اضطراب لا سبيل إلى وصفه ، حتى لقد كان من المستحيل الا تكون قد ابصرته . واعتزمت ان أصارحها ، وان ادعها تحدس السبب .. فقد كنت بهذا كأننى ابوح لها بصراحة تامة !

ولو اننى كنت شابا ومليحا ، وكانت السيدة دوديتو قد ابدت ضعفا ، من جراء هذا! ، لاقدمت هنا على لوم مسلكها . ولكن شيئا من هذا لم يكن ، ولم اكن املك سوى ان اطرى مسلكها واعجب به !.. وكان الراى الذى اتخذته ، يجمع بين الكرم والحكمة . فما كان بوسعها ان تنأى عنى فجأة ، دون ان تذكر السبب لسان ــ لامبير ، الذى اوصاها ــ بنفسه ــ بأن تزورنى .. ومعنى هذا ، تعريض صديقين للقطيعة ، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة فى تفاديها !. وكانت تكن لى كل تقدير ، وكل خير . ولقد رثت لخبلى ، وراحت تلتمس له المعاذير ــ فى غير تملق ولا رياء ــ وحاولت ان تبرئنى منه

.. ولقد كان يسرها ، كل السرور ، ان تتمكن من الإبقاء ــ لنفسها ولحبيبها ــ على صديق كانت تقدره حق قدره . ولم تحدثنى عن شىء ، بمثل الاغتباط الذى راحت تحدثنى به عن الود ولطف المعاشرة اللذين نستطيع أن نوثقهما بيننا ، نحن الثلاثة ، عندما اعود إلى رشدى .. على انها لم تقتصر تماما على هذه المواساة الودية ، ولم تعفنى ــ عند الحاجة ــ من تأنيبات كانت اقسى مما كنت استحق !

* * *

ولم اكن اقل منها قسوة فى تأنيب نفسى !.. فما هو أن اصبحت وحيدا ، حتى عدت إلى نفسى ، وإذا بى اكثر هدوءا ، بعد ان بحت بما كنت اكتم .. فان الحب إذا ما عرف لتلك التى أوحت به ، يغدو اكثر احتمالا !.. ولابد أن الشدة التى رحت الوم بها نفسى على الحب الذى استشعرته ، كانت كفيلة بأن تبرئنى منه ، لو أن هذا كان ميسورا !.. اية حوافز قوية لم استنجد بها لخنق هذا الحب ؟!.. إن قوانينى الخلقية ، واحاسيسى ، ومبادئى ، وحيائى ، وخيانة العهد ، والإجرام ، وإساءة استغلال الوديعة التى ائتمنت عليها بحكم الصداقة ، والسخرية التى كان يستوجبها تحرقى ــ فى مثل هذه السن ــ باشد الصبابات جموحا ، نحو هدف لم يردعنى انشغال قلبه ، ولا سمح لى بأى رجاء .. صبابة كانت ــ فوق كل هذا ــ بعيدة عن أن تمتاز بما يكفل لها الدوام ، بل انها راحت تتجاوز حد الاحتمال ، يوما بعد يوم .. كل هذه الأمور والاعتبارات ، فكرت فيها !

منذا الذى يصدق ان الاعتبار الأخير ، الذى كان كفيلا بأن يرجح كفة الاعتبارات الأخرى ، كان هو الذى أوهن قوتهــا جميعا ؟!. . فلقد قلت لنفسى : « اية هواجس احفل بها إزاء نزوة حمقاء ، لا يتعذب بها سواى ؟ » . . أفأنا مغازل شاب يحق للسيدة دوديتو ان تخشانى ؟ . . الن يقال ــ على ضوء ما كانت توحيه إلى نزعات الغرور ــ ان تظرفى ، ومســلكى ، ومظهرى قد اغوتها ؟ . . إذن ، فأحبب ما شاء لك الهوى ، يا جان جاك البائس . . احبب وأنت مرتاح الضمير ، ولا تخش أن تزعج زفراتك « سان ــ لامبير » !

ولقد أصبح من الواضــح ، اننى لم اكن يوما مقداما على نشدان النفع الذاتى ، واستغلال الفرص ، حتى فى صباى . وكان هذا المذهب فى التفكير ، يتسق مع اتجاه ذهنى ، فكان يمتدح صبابتى ويزينها ، مما ســهل على الاستسلام لهــا فى غير ما تحفظ ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التى خلت ــ عن غرور ، وليس عن تعقل ــ أننى أوحيت بها ! . . فياله من درس جليل للنفوس الشريفة ، التى لا تهاجمهــا الرذيلة جهارا قط ، ولكنها تتحايل على مباغتتها ، وهى تتوارى دائما وراء ستار من الزهد . . أو من الفضيلة غالبا !

كنت مذنبا دون ندم ، ولكننى سرعان ما أصبحت مذنبا دون حد . . وأناشدكم أن تروا كيف سارت صبابتى فى أعقــاب طبيعتى ، لتجرنى فى النهاية إلى الهاوية ! . . لقد اتخذت هذه الصبابة ــ فى البداية ــ مظهر التواضع ، لكى تطمئننى . . ثم دفعت هذا التواضع إلى أن انقلب تحديا ، لكى تحفزنى ! . .

ومع ان الســيدة « دوديتو » لم تكف عن تذكيرى بواجبى ، وعن محاولة ردى إلى حجاى . . ومع انها لم ترض لحظة عن حماقتى ، إلا انها ظلت ــ فيما عدا ذلك ــ تعاملنى بأعظم قدر من اللطف ، وراحت تبدى نحــوى ارق مظاهر الود . وإنى لأعترف بأن هذا الود ما كان يكفينى ، لو اننى آمنت بأنه كان صادقا ، غير اننى الفيته اشــد تحمسا من أن يكون صادقا ، فمضيت قدما فى الإيعاز إلى نفسى بأن الحب ــ الذى لم يعد منذ ذاك الحين ملائما لسنى ولا لشكلى ــ قد حقرنى فى نظر السيدة دوديتو ، وأن هذه الشابة النزقة لم تكن تبغى سوى أن تتخــذ منى ومن عواطفى التى لم تكن تلائم سنى ، مادة للتسلية ، وأنها قد صارحت « سان ــ لامبير » بذلك ، فاذا استنكاره لعــدم وفائى يحمله على ان يرى فى ما كانت تراه حبيبته ، وإذا بينهما اتفاق للعبث بى والضحك منى ! . . هذا الوهم الذى حملنى ــ عندما كنت فى السادسة والعشرين من عمرى ــ على أن اتمادى مع السيدة دى لارناج ــ دون أن اكون على تعارف بها ــ لم يكن مما يغتفر فى سن الخامسة والأربعين ، ومع الســيدة دوديتو ، لو اننى تجاهلت انهــا وحبيبها كانا أكرم من ان ينغمسا فى مثل هذه الملهاة القاسية !

وواصلت السيدة دوديتو اداء زيارات لى ، لم اكن لأتوانى عن ردها . فلقد كانت مثلى ، تحب التريض على الأقــدام ، فكنا نقــوم بنزهات طويلة فى منطقة من الريف فاتنة . وبمــا اننى قنعت بأن احب ، وبأن اجرؤ على الإفضاء بحبى ، فقــد كان خليقا بى ان اغتبط بأننى فى أحسن وضع ، لو لم يفســد تهورى كل فتنة . ذلك أنها لم تفهم ــ فى البداية ــ شيئا من

النزق الذى كنت أتقبل به ملاطفاتها ، ولكن قلبى العاجز دواما عن أن يتعلم كيف يخفى ما بداخله ، لم يدعها طويلا فى جهـل بما كان يساورنى . ولقد حاولت أن تحمل شكوكى ومخاوفى على محمل الدعابة ، ولكنها أخفقت فى هـذه المحاولة التى لم تؤد إلا إلى نوبات من الغضب المحتـدم ، ومن ثم فانها غيرت مسلكها . ومع أن رقتها الناعمة لم تتزعزع ، إلا أنها راحت توجه إلى من التأنيب ما كان يخترم قلبى .. واطلعتنى — فى مقابل مخاوفى الظالمة — على قلق رحت أعييه .. وطالبتها بدليل على أنها لم تكن تهزأ بى ، فلم تجد من وسيلة لكى تطمئننى ، سوى عين الشىء الذى كنت أنشده !.. ورحت الح !.. وكان الموضوع دقيقا ، شائكا !.. ومن العجيب — بل لعـلـه من المصادفات الفذة — أن تتمكن امرأة جرؤت على التمادى إلى حد المساومة ، من أن تخرج من المأزق بسلام .. فانها لم تأب على شيئا مما يستطيع أرق الود أن يكفله .. ولكنها لم تمنحنى شيئا مما كان يحتمل أن يرديها فى حمأة الخيانة !.. وقدر لى أن أرى — فى ذلة وهوان — أن النيران التى كان أتفه صنيع من ناحيتها يؤججها فى فؤادى ، لم تشعل فى قلبها أضأل شرارة !

ولقـد قلت — فى مكان ما (١) — إن على المـرء ألا يتيح للشهوات شيئا على الاطلاق . إذا هو رغب فى أن ينكر عليها بعض الأشياء !.. ولتبين مدى إخفاق هذا الرأى ، فى قصتى

(١) ورد هذا القول فى الجزء الثالث من كتابه « هيلويز الجديدة » ، فى سياق الرسالة الثامنة عشرة ..

مع السيدة دوديتو ، ومدى حكمتهـا هى وسـداد رأيها فى الاعتماد على نفسها ، يجب أن أصـف بإسهاب خلواتنـا الطويلة ، العديدة ، وأن أبين كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التى قضيناها معا فى ود لا يكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين ، اقتصرا على حدود معينة لم يتجاوزاها البتة .. آه !.. إذا كنت قد تأخرت طويلا قبل أن أشعر بالحب الحقيقى ، فمـا أفدح الثمن الذى دفعه قلبى وحواسى !.. ويا للانفعالات التى لابد للمرء من أن يستشعرها بالقرب من شخص حبيب ، يحبنا ، إذا قدر للهوى الذى لا يلقى جزاء ، أن يوحى بنظير له !

ولكننى أخطىء إذ أقول « حبا بدون جزاء » ، فان حبى كان يحظى بمقابل ، إلى حد ما .. كان حبا متعادلا لدى الطرفين ، وإن لم يكن متبادلا بينهما .. كان كلانـا نشوان بالهوى .. هواها لحبيبهـا ، وهواى لهـا !.. وكانت زفراتنا ودموعنا المسرية تختلط معا . وكانت نجوانا واعترافاتنا ومشاعرنـا مترابطة أوثق ترابط ، حتى لقد كان من المستحيل ألا تتحد عند أمر من الأمور !.. ومع ذلك فان السيدة دوديتو لم تكن تنسى نفسها لحظة واحدة ، فى غمرة النشوة الخطرة .. أما أنا ، فأعترف — بل أقسم — أننى إذا كنت قـد حاولت فى بعض الأحيان ، أن أحملها على الخيانة ، مدفوعا بمشاعرى الشهوية ، إلا أننى لم أكن أصدر فى ذلك عن شهوة حقيقيـة قط !.. كان استعار وجدى ، يبقى هذا الوجد فى نطاقه ، من تلقاء ذاته !.. ذلك لأن واجب إنكار الذات بهر روحى ، كما

أن رواء الفضائل جميعا زاد معبود قلبى بهاء فى عينى ، فكان فى تدنيس طيفه القدسى قضاء مبرما عليه . ولقد كنت خليقا بأن أرتكب هـذا الجرم ، إذ أنه ارتكب فى فؤادى مائة مرة ، ولكن .. كيف كنت أجرؤ على أن أهين حبيبتى صـوفى ؟!.. أفكان هذا من المحتمل يوما ؟!.. لا ، لا ! هكذا رحت أؤكد لها ـــ فى نفسى وفؤادى ـــ مائة مرة .. ولو اننى ملكت يوما ان أرضى نفسى ، ولو أن الحبيبة اسلمتنى نفسها طواعية ، وعن طيب خاطر ، لكان جديرا بى أن أرفض السعادة بهذا الثمن . لقد كنت أحبها حبا أقوى من أن أطمع فى وصالها !

***

إن المسافة بين (ليرميتاج) و (اوبون) تقرب من فرسخ . وقد قدر لى أحيانا ـــ فى رحلاتى العديدة إلى (اوبون) ـــ أن اقضى ليلى هنالك . وفى إحدى الليالى ، بعد أن تناولنا العشاء على انفراد ، شرعنا فى التريض فى الحديقة ، فى غمرة ضـوء القمر الذى كان زاهيا . وفى الطرف الأقصى لهذه الحديقة ، كان ثمة حرش واسع النطاق ، سعينا فيه إلى روضة جميلة يزينها مسقط مائى ، كنت أنا صاحب الفكرة فى إقامته ، وكانت السيدة دوديتو هى التى تولت إنشاءه .. يا له من تذكار خالد للبراءة والغبطة !.. وفى هذه الروضـة جلست وإياها على أريكة من الحشائش ، تحت خميلة محملة بالزهور .. وبحثت ـــ فى سبيل التعبير عن مشاعر قلبى ـــ عن لغة تليق بهـذه المشاعر . وكانت هذه أول مرة ـ بل المرة الوحيدة فى حياتى ـ التى سموت فيها عاليا بمشاعرى ، إذا جـاز إطلاق هـذا

الوصف على الفتنة الوادعة ، المغرية ، التى يوحى بها إلى قلب الرجل أرق ألوان الحب وأقواها . ويا للدموع النشوانة التى سكبتها على ركبتيها !.. ويا للدموع التى استدررتهـا إياها على الرغم منها !.. وأخيرا ، صاحت ، صاحت فى انفعال لا إرادى : « لا !.. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط .. وأبدا لم يحب عاشق بهذا الوجد !.. ولكن صديقك « سان ـــ لامبير » يسمع إلينـا ، ومـا كان لقلبى أن يحب مرتين ! » .. ولم أخرج عن الصمت إلا بالزفرات ، واحتضنتها .. وأى عناق !

ولكن هذا كان جل ما فى الأمر !.. وكانت قد قضت ستة أشهر وحيدة ، أعنى بمنأى عن عشيقها وعن زوجها .. وكنت قد ظللت ـــ لثلاثة أشهر ـــ أراها فى كل يوم تقريبا ، وكان الحب ثالثنا على الدوام !.. ولقد تعشينا على انفراد .. وكنا وحيدين فى خميلة ، تحت ضوء القمر الزاهى .. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث ، غادرت ـــ فى منتصف الليل ـــ هـذه الخميلة ، وأحضـان صديقها[1] .. وهى لم تمس بدنس ، لا تزال طاهرة الجسـد والقلب ، كمـا أقبلت فى البداية .. ألا تدبر كل هذه الظروف يا قارئى ، فلن أضيف مزيدا قط !

ومنذا الذى لا يستطيع أن يتصور أن أحاسيسى تركتنى دون ازعاج ـــ فى هذه المناسبة ـــ كما اعتادت أن تفعل من قبل إزاء

(١) يقصد نفسه طبعا !.. ولا تزال الروضة والخميلة والمسقط المـائى والدار ذاتها باقية فى (اوبون) ..



« تيريز » و « ماما » . ولقــد قلت من قبل ، إن ما خامرنى فى هــذه المرة ، هو الحب .. الحب فى جماع قواه وفى عنفوان جيشانه !.. ولن اصف هياجى ، ولا ارتجافى ، ولا خفقــان فؤادى ، ولا اختلاجاتى المتشــنجة ، ولا ضعف القلب الذى كنت استشعره باستمرار ، فمن الميسور إدراكها من التأثر الذى كان طيفها وحده يحدثه فى نفسى !

فقد ذكرت أن (ليرميتاج) كان بعيدا عن (اوبون) ، وكنت امر فى طريقى بتلال (انديللى) البديعة . وفيما كنت أسير إلى (اوبون) رحت احلم بتلك التى كنت اسعى إلى زيارتهــا ، وباللقاء الناعم ، وبالقبلة التى تنتظرنى عند وصولى . هذه القبلة الوحيدة ، هــذه القبلة الخطرة ، الهبت دمى ــ حتى قبل أن أتلقاها ــ بدرجة جعلتنى اشعر بالدوار ، وبأن ستارا قد هبط على بصرى فأعمانى .. واهتزت ركبتــاى فلم تعودا تقويان على حملى .. ووجدتنى مضطرا إلى التوقف عن السير ، بل وإلى الجلوس .. فإن كل كيانى اضطرب ، دون ما مبرر واضح .. وكدت أروح فى إغماءة !.. وإذ فطنت إلى الخطر ، رحت أحاول ــ حين عاودت السير ثانية ــ أن اشغل بالى بتفكير آخر .. على اننى لم اكد أقطع عشرين خطوة ، حتى عاودتنى نفس الرؤى وما ترتب عليها ، فى هجوم لم اجــد فى وسعى النجاة منه ، وبطريقة ما أرانى كنت مستطيعا ان ابلغ هدفى دون ما ضرر ، لو لم اجاهد كى اطيقها !

ووصلت إلى (اوبون) واهن القوى ، مرهقا ، منهوكا ، لا اكاد أستوى معتدل القامة . وما ان رايتها ــ اى السيدة



إن ما خامرنى فى هذه المرة ، هو الحب .. الحب فى جماع قواه وفى عنفوان جيشانه !..

دوديتو — حتى ارتددت إلى قواى ، ولم أعد أشــعر بالقرب منها إلا بتدفق قوى لا تنضب ، ولا نفع لها أبدا !.. وكان فى طريقى ، وعلى مشرف من (اوبون) طريق مرصوفة لا بأس بها ، يطلق عليها اسم (مونت اوليمب) اعتدنا ان نلتقى عندها أحيانا ، وقـد اقبل كل من ناحيتـه . وكنت الأسـبق إلى الوصول ، فكان على ان انتظر . ولكن ما اغلى ما كان هذا الانتظار يكبدنيه !.. ولكى اشـغل بالى ، حاولت ان اكتب بقلمى الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تكتب بأطهر ما لدى من دم .. وما قدر لى قط أن اتم واحدة تكون مقروءة . وعندما كانت هى تجد إحداها فى الكوة التى اتفقنا على إيداع الرسائل فيها ، لم تكن تطالع فيها سـوى الحال الذهنيـة المتداعية التى كنت فيها عند كتابتها .. ولقد ادت هذه الحال — لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة اشهر من الانفعال والكبت — إلى إرهاقى ، حتى أننى لم ابل منها لعـدة سنوات ، وانتهت بأن خلفت لى هبوطا سأحمله معى ، أو يحملنى معه ، إلى القبر .

وكانت هذه هى الغبطة الغرامية الوحيدة للرجل الذى أوتى أشد الأمزجة — التى انجبتها الطبيعة — تأججا ، واعظمها تهيبا وخجلا ، فى آن واحد .. كما كانت هـذه آخر الأيـام الجميلة التى احتسبتها على الأرض .. فمنذ ذلك الحين ، بدأ نسيج محن حياتى ومصائبها .. النسيج الطويل الذى سيرى انه غير متقطع !

* * *

ولقد تبدى — خلال مجـرى حيـاتى بأسره — أن قلبى شفاف كالبللور ، فلم يتعلم ان يكتم قط لدقيقة واحدة ، اية عاطفة على شىء من الاحتدام ، لاذت به . ومن ثم ففى الوسع إدراك المدى الذى كان فى طاقتى أن اذهب إليه فى كتمان حبى للسيدة دوديتو .. كان ودنا جليا لكل عين ، فلم نحطه بشىء من الكتمان ولا الغموض ، إذ أن طبيعته لم تكن من نوع يحتاج إلى ذلك .. وكما كانت السيدة دوديتو تكن لى أرق ود ، دون ان تجد اى حرج أو تثريب ، فاننى كنت أحس نحوها بتقدير ما كان سواى ليدرك مـدى عدالته وصحته .. ومن ثم فاننا كنا فى طمأنينتنا الغرور ، نتيح فرصا للنيل منا اكثر ممـا كنـا نفعل لو اننا كنا مذنبين . هى بصراحتهـا ، وتشتت بالها ، وعدم اكتراثهـا بالتفكير .. وانا بصـدق عاطفتى ، وتهيبى وخجلى ، وغرورى ، ونفاد صبرى ، وفوراتى العاطفية .. فكنا نذهب معا إلى (لاشيفريت) ، أو نلتقى هناك على موعد — فى كثير من الأحيان — أو دون موعد ، فى بعض الأحيان .. وكنا نواصل هناك ما الفنا من حياة ، فنتمشى معـا وحيدين يوميـا — ونحن نتبـادل الحديث عن هوانا ، وواجباتنا ، وصديقنا ، وخططنـا البريئة — فى المتنزه المواجه لجنـاح السيدة ديبيناى ، وتحت نوافذها التى كانت ترقبنا منهـا ، وترانا بعينى قلبها بغل دافق من نبع الغضـب للكرامة ، إذ كانت تخال فى الفتنا إهمالا لها وازدراء بها !

ولقد اوتيت النساء براعة فى إخفاء غضبهن ، لا سيما إذا كان هـذا الغضب عارما ، قويا ، وقد اوتيت السيدة

ديبيناى ــ التى كانت واسعة العقل والحيلة ــ برغم عنفها ، قدرا كبيرا من هذه البراعة . لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئا أو ترتاب فى شىء . وبينمــا اخذت تضاعف اهتمامها بى ورعايتها إياى ــ إلى حد المضايقة ــ راحت تحير اخت زوجها بخشونة مسلكها ، وجفاء معاملتها ، وتعريضاتها المهينة التى بدا انها كانت تحاول ان توحى بها إلى ، وتبثها فى نفسى انا الآخر . ومن السهل إدراك انها لم توفق ، ولكننى كنت حائرا معذبا .. كنت نهبــا لمشــاعر متعارضة ، ففى الوقت الذى كان فيه عطف السيدة ديبيناى ولطفها يؤثران فى نفسى ، كنت أجد عناء فى كبح سخطى إذ ارى تضاؤل احترامها للسيدة دوديتو . ولقد استطاعت الأخيرة ان تحتمل ذلك دون تذمر ، ــ بل ودون ضغينة ــ بفضــل ما اوتيته من طبــاع ملائكية . كما انها كثيرا ما كانت شاردة البال ، لا تكاد تحس ما حولها ، حتى انها لم تكن تلاحظ نصف ما كان يجرى !

وكنت مستغرقا فى وجدى ، حتى اننى لم اكن ابصر سوى « صوفى » ــ وقد كان هذا من اسماء السيدة دوديتو ــ فلم افطن إلى شىء ، بل ولا إلى اننى اصبحت حديث اهل القصر جميعا والزائرين !.. وقد كان البارون « دولباخ » ــ الذى لم يزر (لاشيفريت) من قبل ، على ما اعلم ــ بين هؤلاء الأخيرين. ولو اننى كنت من التريث بالدرجة التى صرت إليها فيما بعد ، لشككت كل الشــك فى ان السيدة ديبينــاى دبرت عمدا هذه الزيارة ، لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية .. مناظر المواطن العاشق !

على أننى كنت من الغباء بحيث لم ار ما كان واضحا متألقا لكل مخلوق . ومع ذلك ، فان غبائى كله لم يحل بينى وبين أن أرى ان البارون كان اكثر اغتباطا وانشراحا من عادته . وبدلا من ان يتجهم فى وجهى ، اغرقنى بسيل من الدعابات التى لم افقه منها شيئا . وحملقت فيه ، دون أن أجيب .. واضطرت السيدة ديبيناى إلى ان تمسك جنبيهــا لتحد من ضحكها ، ولكنى لم أستطع أن أدرى شيئا من حقيقة أمرهما !.. ولما لم يكن مزاحهما قد تجاوز الحدود ، لذلك فقد كان خير ما افعله ــ لو اننى فهمت كنهه ــ هو أن أدلى فيــه بدلوى . ولكن الواقع هو انه كان من السهل ان يلمح المرء فى عينى البارون ــ خلال مرحه الساخر ــ وميضا من طــرب مغيظ ، كان من المحتمل ان يثير قلقى ، لو أننى انتبهت إليه إذ ذاك كما انتبهت فيما بعد ، حين استرجعته فى ذهنى !

وحدث ان ذهبت لزيــارة السـيدة دوديتو فى (اوبون) ــ يوما ــ عقب عودتها من إحــدى رحلاتهــا إلى باريس ، فوجدتها واجمة ، ولاحظت انها كانت تبكى قبــل وصولى . واضطررت إلى ان اتمالك نفسى، إذ كانت السيدة «دوبلينفيى» ـ «اخت زوجها» ـ حاضرة. ولكننى ما كدت اخلو إليها لحظة ، حتى افضيت إليها بقلقى ، فقالت وهى تتنهــد : « آه !.. لشد ما اخشى أن تجردنى نزواتك من كل طمأنينة وراحة بال ، طيلة ما تبقى من حياتى !.. لقد نقل إلى « سـان ــ لامبير » امرنا ، بأسلوب محرف . وإنه لينصفنى ، ولكنــه مستاء .. والأنكى من هــذا ، انه لا يصارحنى بكل شىء .. على أننى

— لحسن الحظ — لم اتكتم أمر صداقتنا التى نشـأت تحت رعايته .. فقد كانت خطاباتى — كقلبى — مليئـة به . ولم اخف عنـه شيئا سـوى حبك الأرعن ، الذى كنت آمل ان ابرئك منـه ، والذى استطيع ان اتبين انه يراه جـرما من ناحيتى ، وإن لم يذكر لى ذلك . لقد أساء إلينا شخص ما ، وظلمنى ، ولكن .. لا بأس . وعلينا ان نفصم تعارفنا ، او ليكن مسلكك كما ينبغى ويليق ، فلست راغبة فى أن اكتم شيئا — بعد الآن — عن حبيبى ! » .

وكانت هذه هى أول لحظة ادركت فيهـا عار رؤية نفسى مهينا ، إذ فطنت إلى اساءتى إزاء شابة احسست بأنها كانت محقة فى لومها ، وكان خليقا بى ان اكون راعيا لها وناصحا . وكان السخط الذى بعثه هذا فى نفسى ، كفيلا بأن يجعلنى من القـوة بحيث أستطيع أن اغالب ضعفى ، لولا أن الاشفاق الحنون — الذى أثارته فى نفسى ضحية هذا الضعف — طغى على قلبى . فواأسفاه !.. أفكانت هذه لحظة أملك فيها أن أبث فى قلبى صلابة ، وهو زاخر بالدموع التى كانت تنساب إليه من كل ناحية ؟!.. وما لبث هـذا الحنان أن انقلب إلى غضب على وشاة السوء ، الذين لم يروا من شعور خاطىء ، ولكنه غير إرادى ، سوى جانبه الآثم .. دون ان يعتقدوا ، بل دون أن يحدسوا ، ما كان لهذا القلب الذى نبض به ، من إخلاص شريف !

* * *

ولم نبق طويلا فى ريب من اليد التى وجهت هذه الصفعة !

كنا نعرف — معا — أن السيدة ديبيناى كانت تكاتب « سان — لامبير » . ولم تكن هذه هى العاصفة الأولى التى أثارتها ضد السـيدة دوديتو ، فلقد بذلت محـاولات لا عداد لها ، لتنتزع « سان — لامبير » منها ، وكان ما احرزته بعض هذه المحاولات — فى الماضى — يحمل السيدة دوديتو على ان ترتجف فرقا مما يخبئه لهـا المستقبل !.. وإلى جانب ذلك ، كان « جريم » — الذى أعتقد أنه تبع السيد « دى كاسترى » فى رحيله مع الجيش — فى (ويستفاليا) ، وكذلك كان « سان — لامبير » وكانا يتزاوران أحيانا !.. وكان « جريم » قد حاول التقرب إلى السـيدة « دوديتو » ، ولكن محاولاته أخفقت . وقد اغضبه هذا إلى الدرجة التى جعلته يكف عن زيارتهـا . ومن هنا يمكن للمرء ان يتصور — على ضوء ما اشتهر به من اتضـاع — مـدى « برود الدم » الذى تلقى به ما زعم من أن السيدة دوديتو آثرت عليه رجلا يكبره سنا ، لا سيما وأنه لم يكن يتكلم عن هذا الرجل — من عرف طريقه إلى الأوساط الراقية — إلا باعتباره شخصا ينعم برعايته وعطفه » !

وغدت وساوسى من ناحية السيدة ديبيناى أمورا مؤكدة ، عندما سمعت ما حدث فى بيتى . فقد اعتادت « تيريز » ان تتردد على (لاشيفريت) — فى الفترات التى كنت أقضيهـا هناك — لتحمل لى خطاباتى ، أو لتؤدى لى بعض اشياء كانت صحتى المعتلة تتطلبها . ولقد حدث أن سألتها السيدة ديبيناى عما إذا كانت السيدة دوديتو تكاتبنى ، فلما أنبأتها باننا نتبادل

الرسائل ، راحت تلح عليها لتسلمها رسائل السيدة دوديتو ، مؤكدة لها انها ستحكم إغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لا تنم عن انها فضت !.. ولقد عمدت تيريز ـ دون ان تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب ، ودون ان تنبئنى به ـ إلى اتخاذ أقصى أسباب الحيطة ، لتخفى ما كانت تحمله إلى من رسائل .. وكان إجراء حكيما ، إذ أن السيدة ديبيناى قد أقامت عليها رقابة كلما جاءت ، وكانت تتربص لها حتى تمر بها ، وقد ذهبت فى جراتها إلى حد تفتيش مرولتها !

بل انها فعلت ما هو اكثر من هذا ، فقد دعت نفسها والسيد « دى مارجينسى » يوما إلى الغداء فى (ليرميتاج) ، وكانت هذه اول مرة تفعل فيها ذلك منذ سكنته ، واستغلت اللحظة التى كنت أتمشى فيها مع « مارجينسى » ، فذهبت مع الأم والابنة إلى غرفة مكتبى ، وسالتهما ان تطلعاها على رسائل السيدة دوديتو . ولو أن الأم كانت تعرف مكان هذه الرسائل ، لكان من المحقق ان تسلمها إليها ، ولكن الابنة وحدها ـ لحسن الحظ ـ هى التى كانت تعرف المكان ، وقد زعمت اننى لا احتفظ بشىء منها !.. وكانت فى هذا كاذبة ، دون نزاع .. ولكنه أشرف ، واخلص ، واكرم خداع !.. وإذ رأت السيدة ديبيناى أنها لن تستطيع ان تغريها ، راحت تحاول ان تستنهض غيرتها ، بان اخذت تلومها على طيبة قلبها ، وعدم بصيرتها . ومضت تقول لها : « كيف تغفلين عن تبين أن علاقتهما آثمة ؟.. إذا كنت ـ برغم كل الذى تستطيعين أن تبصريه بعينيك ـ لا تزالين بحاجة إلى مزيد من الأدلة ،

فعاونى فيما كان يجب ان تفعليه انت للحصول على ذلك .. انك تقولين إنه يمزق رسائل السيدة دوديتو بمجرد ان يطلع عليها ، حسنا !.. إذن ، فاجمعى القصاصات بعناية ، واسلمينيها ، وسوف الصقها بعضها إلى بعض ! » .

هكذا كانت الدروس التى لقنتها صديقتى لرفيقتى !

* * *

ولقد كانت « تيريز » من الحكمة بحيث انها لم تذكر لى شيئا عن هذه المحاولات زمنا طويلا . ولكنها حين رأت ورطتى ـ فى النهاية ـ شعرت ان من واجبها ان تفضى إلى بكل شىء ، حتى اصبح على بصيرة بأولئك الذين كان على ان انازلهم ، فاتخذ من الخطوات ما يكفل حمايتى من الغدر الذى كان مدبرا لى !

وكان سخطى وغضبى يفوقان كل وصف . بدلا من ان اخفى ما بنفسى عن السيدة ديبيناى ـ كما كانت هى تفعل معى ـ واقابل دسائسها بمثلها ، فاننى اندفعت للتهور ، دون ان اكبح نفسى ، واقدمت ـ بتسرعى المعهود ـ على القطيعة علانية . ومن الممكن قياس اندفاعى وعدم فطنتى ، بالرسائل التالية ، التى تبين بوضوح كاف كيف تصرف كل منا فى هذه المناسبة :

رسالة من السيدة ديبيناى (الملف ١ ـ رقم ٤٤)

« ما السبب فى اننى لا أراك ، يا صديقى العزيز ؟.. إننى قلقة بصددك لقد وعدتنى مخلصا ، بأن تعكف على المجىء

والذهاب ، بين هنا و (ليرميتاج) . وعلى هذا ، فقد تركتك تفعل ما يحلو لك . ولكن ، لا .. لقد تركت أسبوعا ينقضى دون أن تبر بوعدك . ولــولا اننى نبئت بأنك بخير ، لظننتك مريضا !

« لقد ارتقبتك بالأمس ، أو فى اليوم السابق عليه ، ولكنى لم أر لك اثرا . فيالله !.. ما شأنك ، وماذا جــرى لك ؟.. ليس ثمة ما يشغلك ، وليس ثمـــة ما يزعجك . فاننى اطمئن نفسى إلى أنك ما كنت لتتوانى عن المجىء لتفضى إلى بما يهمك، لو كان الأمر كذلك !.. إذن ، فـــلا بد أنك مريض !.. إننى أرجوك أن تسرى عنى قلقى فورا !.. وداعا يا صـــديقى العزيز ، ولعل هذه الـ « وداعا » ، تواتينى بـ « صباح الخير » منك ! » .

الـــرد

« صباح الأربعاء

« ليس بوسعى أن أقول لك شيئا ، بل إننى اتريث ريثما استكمل معلوماتى ، وهذا ما سوف يتحقق عاجلا ، أو آجلا ، وإلى أن يتم ذلك ، ثقى من أن البراءة المتهمة ، ستلقى مدافعا أوتى من الحماس ما يكفى لأن يتيح للواشين — أيا كانوا — ما يدعوهم للندم والحسرة ! » .

الرسالة الثانية من السيدة نفسها (الملف ١ — رقم ٤٥)

« أتعرف أن خطابك يثير ذعرى ؟.. ما الذى يرمى إليه ؟.. لقد أعدت قراءته نيفا وخمسا وعشرين مرة . والحق أننى لم

افقه منه شيئا . كل ما أراه هو أنك قلق معذب ، وأنك تنتظر إلى أن يزول عنـــك ذلك ، قبل أن تكلمنى فى الأمر . أفهـــذا ما تعاهدنا عليه يا صديقى العزيز ؟.. فما الذى جرى — إذن — لهذه الصداقة ، ولهذه الثقة ؟ وكيف ترانى فقدتهـــا ؟ هـــل غضبتك ضدى ، أو هى من أجلى ؟.. مهما يكن الأمر ، فانى أناشدك أن تأتى الليلة ، وتذكر أنك وعدتنى — ولما تنقض بعد ثمانية أيام — بألا تكتم فى قلبك شيئا ، وبأن تفاتحنى فى التو . إننى أتشبث بهذه الثقة ، يا صديقى العزيز ...

« مهلا ! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى ، فلم أكن أفضل حظا فى فهمـــه من ذى قبل ، ولكنه يجعلنى ارتجف . لكم يبدو لى أنك مهتاج بدرجة قاسية ، فأرجو أن تهدأ . أما وأنا أجهل موضوع همومك ، فانى لا أدرى ماذا أقول ، اللهم إلا أننى سأظل أضارعك شقاء ، إلى أن يقدر لى أن أراك !.. فاذا لم تكن هنا فى الساعة السادسة من هـــذا المســاء ، فسأنطلق غدا إلى (ليرميتاج) ، مهما تكن حال الطقس ، ومهما تكن حالى أنا ، إذ أننى لن أستطيع مضيا فى تحمل هذا القلق!

« نعم صباحا ، يا صديقى العزيز الطيب .. وكيفما يكن الأمر ، فاننى أجازف بأن أدعوك — دون أن أدرى ما إذا كنت بحاجة إلى هذا النصح أو أنك لست بحاجة — إلى أن تحاول الحيطة وإيقاف التقدم الذى يحرزه الانزعاج والقلق ، فى العزلة .. فان الذبابة لا تلبث أن تصبح وحشا هائلا . وقد جربت هذا ، كثيرا ! » .

الـــرد

« مساء هذا الأربعاء

« ليس بوسعي ان ازورك ، ولا أن اتقبل زيارتك ، طالمـا ظل القلق الذى استشعره . إن الثقة التى تتكلمين عنهـا لم تعد قائمة ، ولن يسهل عليك ان تستردیها !.. إننى لا أرى فى تلهفك الراهن ، سوى الرغبـة فى ان تستخلصى من اعترافات الغير نفعا يخدم وجهات نظرك . ولكن قلبى — الذى يبادر إلى الارتماء فى أحضان اى قلب يتفتح له — يغلق ابوابه فى وجـه المكر والحيلة . إننى اعرف ما وراء الصعوبة التى تلقينها فى تفهم رسالتى . افتعتقدينني من الغفلـة بحيث اظن انك لم تفهميها ؟. لا ، ولكننى سأعرف كيف اقهر دهاءك بالصراحة ! .. وسأفصح عن نفسى بمزيد من الجلاء ، لكى يتسنى لك ان تصبحى اكثر فهما لى .

« هناك عاشقان وثيقا الترابط ، واهل لأن يتحابا ، يحتلان من نفسى مكانة عزيزة . واحسبك لن تدركى من اعنى ، إلا إذا ذكرت لك اسميهما . وارى أن هناك من حاول التفرقة بينهما ، واننى الشخص الذى استخدم لإثارة غيرة احدهما . ولم يكن الاختيار جد بارع ، بيد انه لاح ملائما للغرض الخبيث .. وانت التى ارتاب فى انها مدبرة هذا الخبث . وارجو ان يزداد هـذا اتضاحا !

« وهكذا — على ما اعرف — تتعرض المرأة التى أجلها فوق كل من عداها ، لمعرفة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين ، كما اتعرض انا لعار ان اكون احد هذين الشخصين الضعيفى

النفس !.. لو اننى عرفت انك كنت تقدمين على مثل هـذا الظن بها وبى — للحظـة واحدة من العمر — لأبغضتك حتى المـوت . ولكنى لا اتهمك إلا بأنك قلت ، وليس بأنك ظننت وفكرت !.. ولست افهم — فى مثل هذه الحال — من من الثلاثة كنت تشتهين إيذاءه . ولكنك خليقة — إذا كنت تحبين طمأنينة النفس — بأن تخشى النحس الذى يجلبه عليك النجاح !.. إننى لم اكتم عنك — ولا عنها — وكل ما أراه من سوء فى بعض روابط معينـة ، ولكنى ارجو ان تنتهى هذه الروابط بوسيلة شريفة تعادل المشاعر التى تألفت منها فى الأصل ، وان ينقلب حب غير مشروع ، إلى صداقة أبدية ، افأنا الذى لم أوقع يوما بمخلوق أذى استخدم كوسيلة بريئـة لإيذاء اصدقائى ؟.. لا ، لن اصفح عنـك ابدا . بل إننى لخليق بأن اصبح عدوك الذى لا سبيل إلى استرضائه . ولن احترم فى ذلك سـوى اسرارك وحدك ، لأننى لن أكون يوما رجلا بلا عهد ولا ولاء !

« إننى لا اتصور أن تدوم الحيرة — التى اعانيها — طويلا . ولن البث ان أتبين ما إذا كنت مخطئا . وإذ ذاك ، فقد يكون من واجبى ان اصلح غلطة كبرى ، ولن يكون فى حياتى ما اقدم عليه بطيب خاطر يفوق ما سأفعل به ذلك !.. ولكن، اتعرفين كيف سأكفر عن اخطائى فى الفتـرة القصيرة التى سـأظل اقضيها على مقربة منك ؟.. لسـوف يكون ذلك بأن افعـل ما لا قبل لغيرى بفعله .. بأن اقول لك بصراحة ما يراه الناس فيك ، وبأن أطلعك على الثغرات التى يحتم عليك رتقهـا فى نسـيج سمعتك . وبالرغم من كل من يحيطون بك من مدعى

الصداقة ، فانك عندما ترينني ارحل ، ستودعين الصدق ، إذ انك لن تجدى بعدى من يقوله لك » .

الرسالة الثالثة من السيدة ديبيناى (الملف أ رقم ٤٦)

« لم افهم رسالتك التى تلقيتها فى هذا الصباح . ولست اقول هذا ، إلا انه كذلك . وإنى لأنتظر رسالة هذا المساء ، فلا تخش الا اجيب عنها قط ، وإنما انا جد تواقة إلى ان انساها ، ومع أنك تثير إشفاقى ، إلا اننى لا املك دفعا للمرارة التى ملأت بها نفسى . انا استخدم المكر والدهاء معك ؟!.. أنا اتهم بأسود الشناعات ؟!

« وداعا ، وإنى لأندم على انك كنت هنا .. وداعا ، فلست ادرى ماذا اقول .. وداعا ، ولن اتوق إلا إلى أن أصفح عنك. ولك أن تأتى عندما يحلو لك ، وسوف تستقبل بأفضل ما لا تؤهلك له شكوكك . وليس عليك سوى أن تريح نفسك من عناء الانشغال بسمعتى ، فليس فى الأمر ما يهمنى . إن مسلكى طيب ، وهذا يكفينى ..

« وفيما عدا هذا ، فاننى اجهل تماما ما جرى للشخصين اللذين يحتلان من نفسى انا الأخرى ، المكانة العزيزة التى يحتلانها من نفسك » (١) .

* * *

(١) فى النص الذى ورد فى « مذكرات مدام ديبيناى » ذكرت العبارة الأخيرة ، على النسق التالى : « اننى احلك — متى شئت — مما ذكرت بشأن =

ولقد خلصتنى هذه الرسالة الأخيرة من حيرة اليمة ، ولكنها القت بى إلى اخرى لم تكن تقل عنها . ومع أن هذه الرسائل وردودها تبودلت بسرعة بالغة ، فى بحر يوم واحد ، إلا ان هذه الفترة كانت كافية لكى اقطع استرسال نوبات غضبى ، ولكى افكر فى ضخامة اندفاعى غير الحكيم . ولم تكن السيدة دوديتو قد اوصتنى بشىء قدر ما أوصتنى بأن التزم الهدوء ، وان اترك لها عبء تخليص نفسها بنفسها من هذه المسألة ، وبأن أتفادى كل قطيعة وكل ضجة ، لا سيما فى تلك الفترة بالذات . ومع ذلك فها انذا اذكيت — بإهاناتى البالغة الصراحة والمقذعة الفظاعة — نار السخط فى قلب امراة لم تكن إذ ذاك ترجو سوى ذلك . وما كان لى — بطبيعة الحال — ان انتظر من ناحيتها سوى رد بالغ الكبرياء ، والازدراء ، والإهانة ، إلى درجة لا أملك معها — إلا بأقصى ذلة مهينة — ان احجم عن مغادرة بيتها فى الحال . على ان دهاءها كان — لحسن الحظ — يفوق غضبى ، فتفادت بلهجة جوابها ان تسف فى تحقيرى إلى هذا الحد . غير انه لم يكن ثمة بد من ان اغادر البيت ، او ان اذهب لزيارتها على الفور .. لم يكن ثمة مفر من اختيار احد الأمرين ! وقد استقر رأيى على الأخير منهما ، وانا فى حيرة شديدة من المسلك الذى كان ينبغى أن

= اسرراى ، حتى لا أجشمك عناء صيانتها ، فانك لتعرف — أكثر من أى شخص آخر — ان ليس لدى الا كل ما يشرفنى الافضاء به » . وقد أرسلت نسخة من هذا النص الى « جريم » .

انتهجه فى الإيضاح الذى توقعت ان اطالب به . فكيف كان بوسعى أن اخلص نفسى بدون ان اقحم السيدة دوديتو او تيريز ؟ . . إذ ويل لتلك التى سأضطر إلى ان افضى باسمها ! . . ما من شىء فى انتقام امراة حقود ، بارعة فى المكائد ، إلا اثار مخاوفى على تلك التى قد تقع النقمة على راسها . وما قصرت رسائلى على مجرد « شكوك » إلا لتفادى هذه النقمة ، إذ اننى بذلك تلافيت ان اضطر إلى تقديم ادلة ما . ومن الصحيح أن هذا جعل فوراتى ابعد من أن تغتفر ، إذ ما كان اى شك مجرد ليبيح لى أن أعامل امراة ، وامراة صديقة ، كما عاملت السيدة ديبيناى . ولكن . . هنا بالذات ، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة ، التى حققتها بجدارة ، إذ كفرت عن اخطائى ومواطن ضعفى المستترة ، بأن تحملت ذنوبا اشد واقسى ، لم اكن مرتكبها ، ولا كنت يوما جديرا بوزرها .

على اننى لم اضطر إلى تحمل الهجوم الذى كنت اخشاه ، بل كان كل نصيبى منه هو الخوف الذى راودنى . فما ان اقتربت من السيدة ديبيناى ، حتى القت ذراعيها حول عنقى ، وانفجرت باكية . ومس قلبى هذا الاستقبال غير المرتقب ، من صديقة قديمة ، فتأثرت كل التأثر ، وبكيت كثيرا انا الآخر ! . . وقلت لها بضع كلمات قلائل ، لم يكن لها من معنى . . وقالت لى بضع كلمات مثلها ، كانت ابعد من أن تكون ذات معنى . . وكان هذا غاية الأمر ! ثم أعدت المائدة ، فجلسنا إليها معا . وهناك ، وفى انتظار أن ادعى للايضاح ـ الذى ظننت انه لم يرجأ إلا ريثما نفرغ من العشاء ـ كنت فى أسوأ حال ، إذ اننى

انصاع دائما لأقل اضطراب يتملكنى ، حتى اننى لأعجز عن ان اخفيه عن اقل الناس ملاحظة وفطنة . ولقد كان ارتباكى كفيلا بأن يلهمها الشجاعة ، بيد انها لم تجرؤ على الإقدام . ومن ثم لم يكن هناك إيضاح بعد العشاء ، يفوق ما كان قبله ! . . لا ولا كان ثمة فى غد . . بل إن خلواتنا الصامتة ، لم تملأ إلا بأمور غير ذات بال ، أو ببضع محاولات مؤدبة من جانبى ، حاولت بها ان اشرح موقفى وان أوعز بأننى لم اكن املك أن اقول شيئا عن الأساس الذى قامت عليه شكوكى ، وان أؤكد ـ بكل إخلاص وصدق ـ بأن حياتى بأسرها ستنفق فى إصلاح ما كان فى هذه الشكوك من غبن ، لو أننى تثبت من أنها لم تقم على أساس ما !

ولم تبد السيدة ديبيناى اقل فضول إلى معرفة كنه هذه الشكوك تماما ، ولا كيف واتتنى . بل اقتصر الصلح بيننا ـ سواء من ناحيتها أو من ناحيتى ـ على العناق الذى ضمنا حين التقينا . ولما كانت هى الوحيدة التى مستها الإساءة ـ من الناحية الشكلية على الأقل ـ فقد لاح لى الا داعى يدعونى إلى ان أسعى إلى إيضاح لم تكن تنشده هى نفسها ، ومن ثم عدت إلى بيتى كما بارحته ! . . وفيما عدا ذلك ، ظلت علاقتى بها على ما كانت عليه من قبل ، وسرعان ما نسيت النزاع نسيانا شبه تام ، واعتقدت ـ فى غباء ـ أنها قد نسيته هى الأخرى ، لأنها لم تعد تبدى ما يدل على انها ظلت تتذكره !

* * *

ولم يكن هذا — كما سيبدو سراعا — هو الكرب الوحيد الذى جره على ضعفى، ولكننى تعرضت لكروب غيره ، لم تكن اقل إزعاجا ، ولكننى لم أكن مجتلبها حقا ، وما كان لها من داع سوى الرغبة فى انتزاعى من عزلتى (١) . ولقد واتتنى هذه المضايقات من « ديدرو » وعصبة دولباخ . فان ديدرو لم يكف يوما — منذ استقرارى فى (ليرميتاج) — عن التحرش بى ، سواء بنفسه ، أو عن طريق ديلير . وسرعان ما تبينت من دعابات هذا بشأن نزهاتى فى الغابة ، مدى الغبطة التى خلعوا بها على الناسك ثوب الراعى العاشق . ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التى آخذت بها ديدرو ، بل كانت ثمة أسباب أشد وأعظم !

ذلك انه عقب نشر « ابن السفاح » ، ارسل لى نسخة من الكتاب قراتهــا بالاهتمام والشوق اللذين يوليهمــا المرء عادة مؤلفا من إنتاج صديق له . وإذ طالعت الحوار الشعرى الذى الحق به ، دهشت ، بل وحزنت ، إذ وجدت فيه — إلى جانب عدة تلميحات غير كريمة ، ولكنها تحتمل ، وقد وجهها ضد اولئك الذين يعيشون فى عزلة — هــذه العبــارة الخشنة ،

---

(١) أردف « روسو » معقبا بقوله : « واعنى بذلك ، الرغبة فى انتزاع المراة العجوز من هذه العزلة ، اذ كانت الحاجة ماسة اليها فى تدبير المؤامرة. ومن المدهش ان تفتى الحمقاء فى الخير ، ظلت — ابان هذه العاصفة الطويلة الاجل — تحول بينى وبين أن افهم أنها هى — ولست أنا — التى كانت مرتجاة العودة الى باريس » .. ويقصد بالمراة العجوز هنا ، السيدة لوفاسير ، أم « تيريز » .

المريرة ، التى لم يكن لها مجال فى السياق : « لا يلزم العزلة سوى اهل الخبث » !

وهذه العبارة مبهمة ، وتحتمــل تأويلين ، كمــا يبدو لى . احدهما صادق كل الصدق ، والآخر زائف كل الزيف . إذ ان من المستحيل على إنسان يعيش — ويرغب فى أن يعيش — فى عزلة ، أن يبغى إيذاء احد ، وبالتالى ، فمن المستحيل ان يكون خبيثا . ومن ثم فقد كانت العبارة — فى حــد ذاتها — تتطلب إيضاحا .. وهى أكثر تطلبا له ، لصدورها من مؤلف كان له — عندما طبعت هذه العبارة — صديق يلوذ بالعزلة . وبدا لى انه من المستنكر ، ومن المجافاة للأمانة ، ان يكون ديدرو قد نسى — عند نشرها — هذا الصديق المعتكف .. او — إذا كان قــد تذكره — الا يكون قــد أردف — فى تعميمــه الراى ، على الأقل — ما كان ينبغى عليــه من استثناء كريم وعادل ، لا بالنسبة لهذا الصديق فحسب ، وإنما بالنسبة إلى كثير من الحكماء ذوى المكانة ، الذين كانوا ينشدون فى العزلة — فى جميع الأزمان — الهدوء والسلام ، والذين سمح مؤلف لنفسه — لأول مرة منذ خلق الدنيا — بأن يجعل منهم ، على كثرتهم ، اشرارا بلا استثناء ، وبجرة قلم !

كنت أحب « ديدرو » من قلبى ، وكنت أقدره صــادقا ، وكنت مطمئنا تمام الطمأنينة ، إلى عين العواطف من ناحيته . ولكنى ضقت بعناده الذى لم يكن يلين، فى معارضتى فى أذواقى ، وميولى ، وأسلوب معيشتى وفى كل ما كان يعنينى وحدى ، بوجه خاص.. وأثارنى مرأى رجل يصطرع بكل حيلة

إلى ان يسيطر على كما لو كنت طفلا .. ونفرنى منه سهولة إزجائه الوعود ، وإهماله الوفاء بها .. وغاظنى منــه كثرة المواعيد المعقودة وتخليه عنها ، وشغفه بعقد مواعيد جديدة لكى ينكث بها مرة اخرى .. ومللت انتظاره عبثا ثلاث أو أربع مرات فى الشهر ، فى ايام كان يحددها هو ، لكى انتهى إلى تناول العشاء وحيدا فى المساء ، بعد أن اكون قد سرت إلى (سان دنيس) عسى ان التقى به فى الطريق ، وبعد ان اكون قد ارتقبته طوال النهار .. كان قلبى متخما بمثل هــذه العيوب المتراكمة . وكان العيب الأخير منها ، يبدو لى أشدها ، كما انه كان اكثرها جرحا لكرامتى . ولقد كتبت إليه شاكيا ، ولكن .. فى حنان ولطف جعلانى اغرق ورقتى بالدموع . وكان خطابى مؤثرا إلى درجة كانت خليقة بأن تستدر دموعه . ولكن أحدا ما كان ليحدس رده على ذلك الخطاب .. وها هو ينصه (الملف ١ ــ رقم ٣٣) :

« إننى لجد مغتبط لأن كتابى راق لك .. إنك لا تقرنى على رايى بشأن النساك المعتزلين ، فحدث عنهم ولا حرج ، ما شاء لك الحديث ، فلسوف تظل الوحيد فى العالم ، الذى أفكر فيه فى هذا المجال .. ومع ذلك فلا يزال لدى الكثير مما أستطيع ان اقوله بهذا الصدد ، لو كان فى الوسع الكلام دون إغضابك . إن امراة فى الثمانين من عمرها .. الخ . لقد انبانى بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيدة ديبيناى ، ولا بد انه آلمك كثيرا ، وإلا فاننى لم الم كل الإلمام بدخيلة نفسك » .

ولابد لى من ان اوضح العبارتين الاخيرتين من هذا الخطاب:

ففى بداية مكثى فى (ليرميتاج) ، لم تبد السيدة لوفاسير ارتياحا ، ووجدت ان المكان كان منعزلا اكثر مما ينبغى . وقد رددت ملاحظاتها فى هــذا الصدد على مسمعى ، فعرضت ان أردها إلى باريس ، إذا كانت تفضل ذلك ، وان ادفع لها اجر سكناها هناك ، وان اعنى بحاجاتها كما أنها كانت ماضية فى الإقامة معى .. بيد أنها رفضت اقتراحى ، واعلنت انها جد راضية عن (ليرميتاج) ، وان جو الريف كان مفيدا لها . وقد تبدى ان هذا كان صحيحا ، إذ أنها ارتدت إلى الشباب ، كما ينبغى ان يقال ، واصبحت افضل حالا مما كانت فى باريس . بل إن ابنتها اكدت لى أنها كانت ــ فى قرارة نفسها ــ مستاءة لبارحتنا (ليرميتاج) ، الذى كان مقاما فاتنا حقا ، وانها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه فى الحديقــة وفواكهها ، وانها إنما قالت ما قالت بإيعاز من الغير ، لتحاول إغرائى على العودة إلى باريس !

وإذ اخفقت تلك المحــاولة ، سعوا إلى ان يحصلوا بإثارة الريب ، على ما لم تؤد إليه المجاملة ، فراحوا يعلنون أن من الجرم ان استبقى العجوز هناك ، بعيدا عن الخدمات التى قد تحتاج إليها فى مثل سنها ، دون ان يفطنوا إلى انها وكثيرا من المكتهلين ، الذين يطيل طقس الريف الرائع من حياتهم ، كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات فى (مونمورنسى) ، التى كانت جد قريبة من مسكنى .. وكانما لم يكن ثمة كهول إلا فى (باريس) ، ولم يكن فى وســع الطاعنين فى السن ان يعيشوا فى اى مكان آخر !.. ولقــد كانت السيدة لوفاسير

ــ التى كانت اكولا ، عظيمة النهم ـ عرضة لالتهابات المرارة ، ولنوبات قاسية من الإسهال ، كانت تلازمها اياما ، ولا تلبث ان تشفى من تلقاء ذاتها . ولم تكن العجوز تتناول شيئا حين كانت فى باريس ــ وإنما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها . وكذلك كانت تفعل فى (ليرميتاج) إذ ادركت انها لا تملك سبيلا خيرا من هذه !

ولكن الراغبين فى إثارة المتاعب ، لم يعبأوا بهذا ، فما دام لم يكن ثمة اطباء ولا صيادلة فى الريف ، فان استبقاء العجوز هناك ، كان يعنى الرغبة فى موتها .. برغم انها كانت هنــاك فى صحة طيبة !.. وكان خليقا بديدرو ان يحدد السن التى لا يجوز بعدها السماح للمسنين بالبقاء بعيدا عن (باريس) ، والتى يكون استبقاؤهم بعدها قتلا مع الاصرار !.. ولقد كان هــذا احد الذنبين الشنيعين ، اللذين لم يشــا من اجلهما ان يستثنينى من رأيه !.. « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث » ! وكان هذا تفسير تعجبه المؤثر ، والـ « إلى آخره » التى تكرم بإضافتها ، حين قال : « ان امرأة فى الثمانين من عمرها .. الخ » !

* * *

وخطر لى اننى لن اجد ردا على هــذا اللوم ، افضل من ان ارجع إلى السيدة لوفاسير نفسها . فسألتها ان تكتب إلى السيدة ديبيناى معبرة عن شعورها الطبيعى إزاء الأمر . ولكى اتركها تسترسل على سجيتها ، لم اسألهــا ان تطلعنى على خطابها .. بل إننى اطلعتها على الخطاب التالى ، الذى كنت

قد كتبته إلى السيدة ديبيناى ، بشأن رد ــ كنت قد اعتزمت ان اجيب به عن خطاب اعنف من السابق ، ورد من ديدرو ــ ولكنها منعتنى من إرسال هذا الرد .

« يوم الخميس

« إن السيدة لوفاسير تعتزم أن تكتب إليك ، أيتها الصديقة الطيبة .. فلقد رجوتها ان تروى لك بصراحة ما يدور بخلدها . ولكى تكون على سجيتها تماما ، فقد أخبرتها بأننى لا أريد أن ارى خطابها ، كما اننى اناشــدك الا تذكــرى لى شيئا عن محتوياته .

« إننى لم ارســل خطابى(١) ما دمت تعارضين فى ذلك ، ولكن شعورى بأننى طعنت طعنة بالغة ، يجعل من الصغار ، بل ومن الغش الذى لا اسمح به لنفسى ، اننى ارضى بأن اكون مخطئا .. ولا مراء فى ان الانجيل يدعو المرء الذى يصفع على احد خديه ، ان يدير الخد الآخر ، ولكنه لا يدعوه إلى ان يطلب الصفح . افتذكرين ذلك الرجل الذى يهتف ــ فى المسرحـية الفكهــة ــ وهو ينهــال بعصاه ضربــا : « ها هو ذا دور الفيلسوف » ؟!

« لا تخدعى نفسك إذ ترين ان بوسعك ان تمنعيه من المجىء متعللة بسوء الطقس هنا ، فى الآونة الحاضرة .. فان حنقــه سيهبه ما تأباه عليه الصداقة من وقت وقوة .. وستكون هذه هى اول مرة فى حياته ، يفد فيهــا فى ذات اليوم الذى يضربه

---

(١) يقصد الرد على الخطاب القاسى الذى تلقاه من « ديدرو » .

موعدا ! ولسوف يبذل قصارى جهده لكى يأتى فيردد بلسانه ما كاله لى فى خطاباته من إهانات . ولسوف أتحملها ببالغ الصبر . ولسوف يعود إلى باريس ، وهو مريض . ومن ثم اغدو أنا ـ كالمعتاد ـ شخصا بغيضا كل البغض . فماذا أفعل ؟.. لا مفر من الاحتمال !

« ولكن ... ألست تعجبين بحكمة شخص رغب فى أن يجيء فيصحبنى إلى (سان دنيس) فى مركبة ، لنتناول الغداء هناك ، ثم يقلنى ـ فى العودة ـ فى مركبة .. ثم لا تلبث ثروته أن تعجز ـ بعد ثمانية أيام ـ (الملف أ ـ الرسالة رقم ٣٤) ـ عن أن تمكنه من أن يفد على (ليرميتاج) إلا سائرا على قدميه ؟.. ليس من المستحيل فى شيء ـ إذا تكلمنا بأسلوبه ـ أن تكون هذه هى سمة الاخلاص وحسن النية ، ولكن لابد له ـ فى هذه الحال ـ من أن يطرأ على موارده تغير خارجى خلال ثمانية أيام !

« إننى أشاطرك أساك من أجل مرض السيدة والدتك ، ولكنك ترين أن آلامك لا تعادل آلامى . فإن رؤية الأشخاص الذين نحبهم مرضى ، أقل إيلاما للنفس من الغبن والقسوة .

« فوداعا يا صديقتى الطيبة ، وستكون هذه آخر مرة أتحدث فيها إليك عن هذه المسألة التعسة .. إنك تحدثيننى عن الذهاب إلى باريس فى هدوء أعصاب كفيل بأن يطربنى ، لو أنه حدث فى ظروف أخرى ! » .

وأنبأت « ديدرو » بما فعلت مع السيدة لوفاسير ، نزولا عند رأى السيدة ديبيناى نفسها . وقد اختارت السيدة

لوفاسير البقاء فى (ليرميتاج) ـ وهو ما كان فى وسع أى امرىء أن يحدسه ـ لأنها كانت جد مرتاحة إلى المقام فيه ، حيث كانت تجد دائما أنيسا ، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها . ومن ثم فإن « ديدرو » لم يعد يدرى بأى ذنب يتهمنى ، فجعل من هذا الاحتياط الذى اتخذته (١) ذنبا ، كما اتخذ من استمرار بقاء السيدة لوفاسير فى (ليرميتاج) ذنبا آخر ، بالرغم من أن هذا البقاء كان بمحض اختيارها ، وقد ظلت حرة فى أن تعود إلى باريس لتقيم متمتعة بنفس ما كانت تتمتع به فى بيتى من مساعدة .

هذا هو بيان اللوم الأول ، الذى ورد فى رسالة « ديدرو » رقم ٣ . أما إيضاح اللوم الثانى ، ففى سياق خطابه رقم ٣٤ :

« لا بد أن الأديب (٢) قد كتب إليك عن أن ثمة عشرين شريدا تعسا على الأسوار ، يموتون بردا وجوعا ، ويرتقبون المليم الذى اعتدت أن تمنحهم إياه . هذه عينه من ثرثرتنا البسيطة .. ولو أنك استمعت إلى بقيتها ، لوجدت فيها ما يروقك ، كهذه ! » .

وها هو ذا ردى على هذا الجدل البغيض ، الذى بدا وكأن « ديدرو » كان مزهوا به :

---

(١) الاحتياط الذى تمثل فى أنه ترك مدام لوفاسير تكتب ما تشاء ، دون أن يطلع على خطابها .

(٢) لقب أطلقه جريم على ابن السيدة ديبيناى ، من قبيل الدعابة .

« اعتقد أننى رددت على « الأديب » — اقصد ابن ناظر الزراعة العام — بأننى لا اشفق على الفقراء الذين رآهم على الأسوار يرتقبون مليمى . وأن من الواضح أنه قد عوضهم عما فقدوا ، وأننى قد عينته بديلا عنى ، وانه ليس لفقراء باريس ان يشتكوا من هذا التغيير . وإننى لا اجد من السهل العثور على بديل آخر ، يصلح لفقراء (مونمورنسى) ، الذين هم اشد حاجة !.. فهنا شيخ طيب ، ومحترم ، قضى حياته فى العمل ، ولم يعد اليوم يقوم عليه ، فهو يموت جوعا إبان شيخوخته . وان ضميرى ليشعر بارتياح إزاء قطعتى « السو » اللتين امنحه إياهما فى يوم الاثنين من كل اسبوع ، يفوق ذاك الارتياح الذى يستشعره إذا انا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار . انكم لتلهون — يا معشر الفلاسفة — حين تنظرون إلى جميع سكان المدن ، بحسبانهم الوحيدين الذين يطالبكم الواجب بان تشغلوا بامرهم .. إنما يتعلم المرء حب الإنسانية وخدمتها فى الريف ، ولا يتعلم فى المدن سوى ازدرائها ! » .

* * *

هكذا كانت الوساوس العجيبة ، التى استند إليها رجل ذكى ، منساقا لنزوة حمقاء حملته على أن يجعل — جادا — من بعادى عن باريس ذنبا وجرما ، وعلى ان يحاول أن يبرهن لى بحالى على الا سبيل إلى الإقامة خارج العاصمة ، إلا إذا كان المرء خبيثا . ولست أدرى اليوم ، كيف كنت من البلاهة بحيث رددت عليه ، واستأت منه ، بدلا من ان يكون جوابى الأوحد ، هو ان اضحك ساخرا ؟!.. على ان قرارات السيدة ديبيناى ، والضجة التى اثارتها عصبة دولباخ ، استولت على

اذهان الناس وغرتهم ، حتى لقد اعتبرت — بوجه عام — مخطئا فى هذه المسألة .. وحتى ان السيدة دوديتو نفسها — وهى من اشد المعجبات بديدرو — رغبت فى ان اذهب إلى زيارته فى باريس ، وان أؤدى كل المقدمات لصلح لم يقدر له ان يدوم طويلا ، بالرغم من انه كان مخلصا وكان من ناحيتى..

وكانت الحجة الموفقة التى استغلتها السيدة دوديتو للتأثير على قلبى، هى أن ديدرو كان — فى هذه اللحظة — تعسا شقيا. فالى جانب العاصفة التى ثارت ضد «الموسوعة» ، كان عليه ان يحتمل عاصفة اخرى اشد عنفا ، أثارها الكتاب . فبالرغم من المقدمة الصغيرة التى مهد لها به ، اتهم « ديدرو » بأنه قد نقله بأكمله عن « جولدونى » . ولقد كان ديدرو اكثر تأثرا وارتباكا بالنقد من فولتير . ولقد ذهبت السيدة « دى جرافيينى » فى دهائها إلى حد انها اذاعت شائعة باننى انتهزت هذه الفرصة لكى اقطع ما كان بينى وبينه . لذلك فقد رأيت أن من الانصاف والكرم ، ان اظهر نقيض ذلك على الملأ ، فذهبت لأقضى يومين فى داره ، وإن لم اقضهما فى صحبته وحده !.. وكانت هذه هى رحلتى الثانية إلى باريس، منذ استقر بى المقام فى (ليرميتاج) . فقد قمت بالرحلة الأولى ، لأبادر بأن اكون إلى جوار « جوفكور » الذى اصيب بنوبة فالج ، لم يقدر له أن يشفى منها تماما . وقد ظللت طيلة مرضه ملازما فراشه حتى تجاوز الخطر !

واحسن ديدرو استقبالى .. فما اقدر عناق الأصدقاء على محو الأخطاء !.. وأية سخيمة يمكن ان تظل فى القلب بعد

ذلك ؟.. وتبادلنا بعض الإيضاحات ، كما كان ثمة داع لها ، ما دامت الإساءات متبادلة . ففى مثل هذه الحال ، لا يكون ثمة ما ينبغى فعله سوى .. النسيان ، لا سيما وانه لم تكن ثمـة دسائس خفية — فيما كنت أعلم على الأقل — كما كانت الحال مع السيدة ديبيناى . ولقد اطلعنى على مشروع كتابه . « أب الأسرة » ، فقلت له : « هذا خير دفاع عن « ابن السفاح » ! .. فالزم الصمت ، وامض فى هذا المؤلف بعناية ، ثم طوح به فجاة فى وجوه اعدائك ، فانه الرد الوحيد » . ولقد فعـل ذلك ، ووجد انها خطة موفقة !

ولقد ارسلت إليه الجزءين الأولين من « جولى » — قبـل ذلك بستة اشهر — أسأله رأيـه فيهما . ولم يكن قد قرأهما بعد، فطالعنا شطرا منهما معا. وقد وجد أنهما «قرطسة»(١) ، وكان هذا هو التعبير الذى استخدمه ، قاصدا ان الجزءين كانا مليئين بالكلام المنمق ، وبالتكرار والإطالة . وكنت قـد شعرت بذلك ، من تلقاء نفسى ، ولكن ما اوردته فيهما كان هذيان الحمى (٢) ، ولم أكن قد راجعته او صححته . على أن الأجـزاء الأخيرة ليست على هذا الغرار ، لاسيما الرابـع والسادس ، فانهما تحفة فى البلاغة .

---

(١) قرطسة : مشتقة من قرطاس ، هو الورق .. وهو يقصد هنا ، أن المـادة كانت حشوا ، أو مجرد تسويد ورق .

(٢) كتب « روسو » الجزءين الأولين من « جولى » ، وقد انتابه الحنين الى الحب ، فراح يوحى اليه باحلام محمومة ، على ما أورد من قبل .

وفى اليوم التـالى لوصولى ، رغب — فى إصرار — فى أن يصطحبنى لتناول العشاء لدى السيد « دولباخ » راغبا فى أن افسخ الاتفاق الخاص بأصول كتاب « الكيمياء » ، لأننى كنت اربأ بنفسى ان اكون على التزام نحو هذا الرجل(١) . ولقـد انتصر « ديدرو » على طول الخط ، واقسـم على أن السيد « دولباخ » كان يكن لى اخلص الود ، وأن الواجب يقتضينى ان اغفر له مسلكه الذى يتخذه مع الناس كافة ، والذى يعانى منه اصدقاؤه اكثر مما يعانى سواهم . وصور لى ان رفض إنتاج هذا الكتاب ، بعد أن قبلته منذ عامين ، إهانة لصاحب العرض ، لا يستحق أن يجازى بها . بل إن هذا الرفض قد يساء تأويله ، فيحمل على محمل اللوم لأنه مكث هـذا الأمد الطويل دون ان يحقق الاتفاق . واستطرد قائلا : « إننى أرى دولباخ فى كل يوم ، واعرف حال نفسه أكثر مما تعرفها أنت. وإذا لم يكن ثمة مجال لك كى ترضى عن هذا العمل ، افتظن ان صديقك يقدم على نصحك بأن تحط من قدر نفسك ؟ » . وفى إيجاز ، سمحت لنفسى بأن أسلم له — بكل ما عرف عنى من ضعف — وذهبنـا معا لتناول العشـاء مع البارون ، الذى استقبلنى على مألوف عادته . ولكن زوجته تلقتنى بفتور ، بل

---

(١) يقصد « دولباخ » . ويلاحظ أن « روسو » لم يذكر شيئا من قبـل عن « أصول كتاب فى الكيمياء » ، ولا عن « الاتفاق » الذى تم بشأن ذلك . ومن ثم فان ايراد الأمر على هذه الصورة ، يبدو محوطا بالغموض . ولسنا نجد فيما كتب شيئا يلقى مزيدا من الضوء على المسألة

وبجفاء غير كريم[١] حتى كدت أنكر فيها « كارولين » اللطيفة ، التى أظهرت لى ــ قبل زواجها ــ كثيرا من آيات النية الطيبة. وكنت قد لاحظت ــ قبل ذلك بزمن طويل ــ أننى لم أعد زائرا مرموقا ، مذ أصبح « جريم » ضيفا مستمرا فى قصر (اين) .

* * *

وبينما كنت فى (باريس) ، وفد « سان ــ لامبير » فى اجازة من الجيش . ولما لم اكن قد علمت بذلك ، فاننى لم اره إلا بعد عودتى إلى الريف ، فى (لاشيفريت) أولا ، ثم فى (ليرميتاج) ، حيث اقبل مع السيدة دوديتو ، واستضافا نفسيهما للغذاء . ومن الميسور تصور مدى الاغتباط الذى استقبلتهما به !.. ولكنى كنت اكثر اغتباطا بمشاهدة أنسجامهما البديع . وسعدت بدورى ، إذ اطمأننت إلى اننى لم اعكر صفو هنائهما . وبوسعى ان اقسم على اننى ما كنت ــ طيلة وجدى الطائش ، بل وفى تلك الآونة بالذات ــ لأتمنى ان آخذ السيدة دوديتو » من « سان ــ لامبير » ، ولو استطعت الى ذلك سبيلا .. بل إننى ما كنت لأشعر بمجرد الرغبة فى ذلك !.. فلقد وجدتها جديرة بحب « سان ــ لامبير » ، مدلهة فى هواه ، حتى أننى لم اكد اتصور

---

(١) ذكر « روسو » فى الكراسة الثامنة ، نبأ موت السيدة دولباخ . ومن ثم يحسن ان نذكر هنا أن البارون دولباخ كان ما يزال فى مقتبل الشباب ، عندما ترمل ، فتزوج ثانية ، وكانت زوجته الجديدة هى « كارولين ــ سو آن ــ اين » ، وهى أخت زوجته المتوفاة . وقد حصل على اذن بذلك من روما. ومن هنا نفهم أن قصر (اين) ، الذى ذكر بعد ذلك ، كان من أملاك الزوجة.

انها تستطيع أن تهيم بى بهذا القدر ، وكان كل ما طمعت فيه ــ فى بحران الوجد ــ هو أن تدعنى أحبها من ناحيتى ، دون ما رغبة منى فى ان اعكر صفو رابطتهما !.. وقصارى القول اننى ــ برغم عنف الصبابة التى كانت تلتهمنى بنيرانها ــ وجدت متعة فى ان اكون موضع ثقة هذه السيدة ، لا تقل عن المتعة التى كنت خليقا بأن استشعرها إذا كنت هدف حبها . ولم انظر إلى عاشقها لحظة على انه غريم او مزاحم ، وإنما ظللت ــ على الدوام ــ انظر إليه كصديق . ولقد يقال إن هذا لم يكن بعد غراما حقيقيا ، فليكن!.. لقد كان اكثر من الغرام!

اما « سان ــ لامبير » ، فقد كان تصرفه تصرف الرجل الكريم ، الرزين . ولما كنت المذنب الوحيد ، فاننى كذلك كنت الجدير بالعقاب ، وكان عقابى مشوبا بالتسامح . فقد عاملنى « سان ــ لامبير » فى خشونة ، ولكن فى ود . واستطعت ان المح اننى قد فقدت بعض تقديره ، ولكنى لم افقد شيئا البتة من صداقته . فتعزيت بذلك ، موقنا من ان استعادة الأول ، اسهل بكثير من استعادة الثانية .. ومدركا انه كان اعقل واحكم من ان ينقم على ضعف لا إرادى ، وطارىء ، ومنبعث عن عيب طبيعى ، وإذا كانت ثمة اخطاء من ناحيتى ــ فى كل ما جرى ــ فانها كانت طفيفة . أفأنا الذى سعى إلى عشيقته ؟.. الم يكن هو الذى ارسلها إلى ؟.. الم تكن هى التى جاءتنى ؟ فهل كان بوسعى أن أمتنع عن استقبالها ؟.. ما الذى كنت أملك ان أفعله ؟.. إنهما هما سر البلوى ، ولم يكن من معذب سواى !

ولو أن « سان ـ لامبير » كان فى مكانى ، لفعل عين ما فعلت ، بل ربما أسوأ مما فعلت !.. ذلك لان السيدة دوديتو ـ برغم وفائها ، وبرغم جدارتها بالاحترام ـ كانت امرأة !.. ولقد كان هو كثير التغيب ، فكانت الفرص موفورة ، والمغريات شديدة ، وكان من الشاق حقا أن تذود دائما عن نفسها ضد أى عاشق أكثر جرأة ، بعين التوفيق الذى صدتنى به . ويقينا أنه كان من الكثير ـ الذى ينبغى أن يذكر لنا ، هى وأنا ـ أن استطعنا فى ظروف كهذه ، أن نضع حدودا ، لم نسمح لنفسينا قط بتخطيها !

ومع أننى كنت أستطيع أن أستخلص من أعماق قلبى شهادة كريمة فى صالحى ، إلا أن المظاهر كانت ضدى ، حتى أن الشعور بالخجل الطاغى ـ الذى كان يتسلط على دواما ـ خلع على ، فى حضور « سان ـ لامبير » ، مظهر المذنب ، فأكثر هو من استغلاله لإذلالى . وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل . فلقد قرأت عليه ـ عقب الغداء ـ الرسالة التى كنت قد كتبتها لفولتير ، قبل عام ، والذى سمع بأمرها . وإذا به يستسلم للنعاس ، بينما كنت أقرؤها . وبعد أن كنت نخورا ، إذا بى أغدو غبيا ، فلا أجرؤ على أن أقطع القراءة ، ومن ثم فقد استرسلت فيها ، بينما استرسل هو فى الغطيط !.. وهكذا أذللت نفسى .. وهكذا كان ثأره لنفسه .. غير أن كرم نفسه لم يكن يخوله أن يمارس هذه الأساليب ، إلا فيما بيننا نحن الثلاثة !

* * *

وبعد أن رحل « سان ـ لامبير » ثانية ، ألفيت السيدة دوديتو قد تغيرت إزائى تغيرا شديدا . وقد ذهلت لهذا ، وكأنه لم يكن خليقا بى أن أتوقعه . وتأثرت به أكثر مما كان ينبغى ، مما سبب لى كثيرا من الآلام والتباريح .. وكأنما كل شىء مما توقعت أن يبرئنى ، كان يزيد من تغلغل السهم فى قلبى .. ذلك السهم الذى أصبحت ـ فى النهاية ـ أوثر أن أكسره ، عن أن أنزعه !

وعقدت العزم على أن أقهر نفسى تماما ، وألا أدع شيئا إلا فعلته لكى أحول صبابتى الرعناء إلى صداقة طاهرة ، باقية . وعلى ضوء هذه الغاية ، رسمت أروع الخطط فى الحياة ، ولم يكن يعوزنى فى تنفيذها سوى معونة السيدة دوديتو . فلما حاولت أن أحدثها عنها ، وجدتها شاردة البال ، مضطربة الخاطر ، فشعرت بأنها لم تعد تحس بأية لذة فى صحبتى ! وتبينت بجلاء أن شيئا ما قد جرى ، وأنها لم تكن راغبة فى أن تنبئنى به . وما قدر لى قط أن أعرفه . ولقد عذبنى أقسى العذاب ، هذا التغير الذى عجزت عن أن أصل إلى إيضاح له . وسألتنى أن أرد إليها خطاباتها ، فرددتها جميعا ، بأمانة جرح كرامتى أن السيدة ارتابت فيها لحظة !.. وكان هذا الارتياب طعنة أخرى أصابتنى ، كما لابد أن تكون قد أدركت . وقد أنصفتنى وعوضتنى ، ولكنها لم تفعل ذلك فورا . فقد أدركت أن فحص حزمة الرسائل التى أسلمتها إياها ، جعلها تفطن إلى ظلمها . بل إننى استطعت أن أرى أنها قد أنبت نفسها على ذلك ، فوجدت فى ذلك شيئا من التعويض .



وسألتنى أن أرد إليها خطاباتها ، فرددتها جميعًا ، بأمانة جرح كرامتى أن السيدة ارتابت فيها لحظة ! ..

وما كان لها أن تأخذ رسائلها دون أن تعيد إلى رسائلى .. وقالت لى إنها أحرقتها ، فجرؤت بدورى على أن ارتاب فى ذلك ، كما ينبغى أن أعترف . لا .. إن المرء لا يلقى بمثل هذه الخطابات إلى النار . لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة فى قصة « جولى » ، فيا لله !.. ما الذى قيل عن ذلك ؟.. لا ، لا .. إن المرأة التى أوتيت القدرة على أن توقد كل هـذا الوجد ، لا يمكن أن تواتيها الشجاعة قط على أن تحرق أدلة وجوده . ولكننى مع ذلك لم أكن أخشى أن تسىء استغلالها ، فما كنت لأؤمن بأنها قادرة على ذلك . كما أننى كنت قد اتخذت التدابير للحيلولـة دون ذلك !.. ذلك أن الخوف الأحمق والمحتدم فى الوقت ذاته ، من أن أتعرض للسخرية ، حملنى على أن أبدأ هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلى فى مأمن من أن تذاع . ولقد ذهبت فى ذلك إلى حد الإسراف فى الألفة التى كنت قد انتهجتها فى نشوتى ، فرحت أخاطبها بصيغة المفرد . ولكنى حرصت فى ذلك على ألا تجرح هـذه الألفة كرامتها . ومع أنها شكت مرارا من ذلك ، إلا أنهـا لم توفق إلى حملى على العدول .. ولم تؤد شكاواها إلا إلى إيقاظ هواجسى ، فضلا عن أننى لم أستطع أن أحمل نفسى على التراجع . ولو أن هذه الرسائل كانت موجودة ، وقدر لهـا يوما أن ترى الضـوء ، لعرف الناس كيف أحببت ! (١)

---

(١) رغبت السيدة بروتان ، التى كانت تقيم على مقربة من (أوبون) ، فى أن تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل ، فسألت السيدة دوديتو يوما عن الأمر ، فأجابتها هذه بأنها قد أحرقتها فعلا ، فبعثت إليها برسالة واحدة ، لم =

ولقد ادى الألم الذى احدثه فتور السيدة دوديتو ، واليقين من اننى كنت استحقه ، إلى ان انهج منهجا عجيبا ، إذ شكوت منه إلى « سان — لامبير » نفسه !.. وفى انتظار نتيجة خطابى بهذا الصدد ، اغرقت نفسى فى الشواغل التى لم يكن ثمة بد من ان اسارع بالبحث عنها . فلقد اقيمت فى (لاشيفريت) بعض حفلات ، وضعت الموسيقى التى عزفت فيها . وحفز نشاطى على ذلك ، تلك المتعة التى تمثلتها إذ ارفع من قدر نفسى فى عينى السيدة دوديتو ، بعرض الموهبة التى كانت تغرم بها . وساعد ظرف آخر على إذكاء نشاطى ، وهو رغبتى فى ان اظهر للملأ ان مؤلف « عراف القرية » كان على دراية بالموسيقى. إذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة ، أن ثمة من كان يعمل فى الخفاء على ذر الريب حول ذلك ، فيما يختص بالتأليف الموسيقى على الأقل !.. ولقد كان اول ظهورى فى باريس ، والاختبارات التى تعرضت لها فى مناسبات مختلفة فى دارى السيدة دوبان والسيد ديلابوبلينير ، والقدر الذى الفته من الموسيقى خلال اربع عشرة سنة — وسط اعظم اهل الفن شهرة ، وتحت ابصارهم — ثم اوبرا «عرائس الشعر اللطاف»،

=

نؤت الشجاعة على حرقها لأنها كانت قطعة من البلاغة والغرام المشبوب .. وقد اسلمتها الى السيد دى « سان — لامبير » . هذا ما ذكره السيد دى موسيه — فى كتيب له بعنوان : « حكايات للتعقيب على مذكرات السيدة دبيناى » — عن شهادة السيدة الفيكونتة داللار ، التى عاشت فى ود وثيق مع السيدة دوديتو ، زهاء ثلاثة عشر عاما .

بل واوبرا « العراف » ، واغنية كتبتها للآنسة فيل وغنتها بنفسها فى حفلات «الموسيقى الروحية» ، والمناقشات العديدة التى دارت بينى وبين كبار الأساتذة ، عن هذا الفن الجميل.. كل هذه البراهين كانت جديرة بأن تمنع ، أو بأن تبدد اية شكوك من هذا القبيل . ولكنها — مع ذلك — كانت موجودة ، حتى فى (لاشيفريت) ، فقد رايت أن السيد دبيناى لم يكن بمنجى منها !.. وبدون أن أظهر اننى كنت افطن إلى ذلك ، عكفت على تلحين انشودة من اجله ، لتدشين كنيسة (لاشيفريت) ، وسألته أن يمدنى بالكلمات التى ينتقيها لها بنفسه . فعهد إلى دى لينان ، مربى ابنه ، بأن يكتبها . وقد الف دى لينان بضعة أبيات تناسب المقام ، وبعد ثمانية أيام من موافاتى بها ، كانت الأنشودة معدة .

وفى هذه المرة ، كان الغيظ هو ملهمى ، فلم تخرج من بين يدى يوما موسيقى اجزل من هذه !. وقد بدأت ابياتها بهذه الكلمات اللاتينية : Ecce sedes hic Tonantis (١) . وكانت روعة المقدمة الموسيقية ، تتمثل فى مجاراة الكلمات ، فكانت الأنشودة بأسرها من البهاء بحيث بهت كل امرىء إعجابا !.. وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيقية كبيرة ، وقد حشد دبيناى خير العازفين . وتولت السيدة برونا — وهى مغنية إيطاليا — إلقاء الأنشودة ، وكان العزف رائعا فى

---

(١) أضاف « روسو » الى هذا تعقيبا فيه : علمت فيما بعد أن هذه الكلمات كانت من نظم « دى سانتوى » ، وأن السيد دى لينان نسبها الى نفسه !

مصاحبتها . وقد نجحت الأنشــودة نجاحا باهرا ، حتى انها القيت بعد ذلك فى حفلات « الموسيقى الروحية » ، حيث لقيت نفس الإعجاب مرتين ، وبالرغم من الدسائس الخفية ومن سوء الاخراج !.. كذلك اقترحت ــ بمناسبة عيــد ميلاد السيد دیبینای ــ قطعة غنائية نصفها تمثيل عادى ، ونصفها تمثيل صامت ، بالإيماء . وقد تولت السيدة دیبینای تاليف الكلام ، وتوليت انا تاليف الموسيقى . ولقد سمع « جريم » ــ عنــد وصوله ــ بانتصاراتى الموسيقية . ولم تنقض ساعة ، حتى لم يعد ثمة حديث عنها ، ولكن لم يعد ثمة ريب ــ على الأقل ــ فى أننى كنت اعرف التلحين واحذقه !

* * *

وما أن اســتقر « جــريم » فى (لاشيفريت) ، حيث كنت لا اشعر بكثير من الانشراح ، حتى افلح فى ان يجعل بقــائى هناك أمرا لا يطاق ، وذلك بتصرفات لم ارها تبدى من احد قط قبل ذلك ، ولا كانت تخطر لى على بال . ففى اليوم السابق على وصوله ، نقلت من افضل غرف الضيوف ــ وهى التى كانت تجاور مخدع السيدة دیبینای ــ ليحتلها جريم ، بينما افردت لى غرفة اخرى ، فى اقصى اطراف الدار . وقد قلت للسيدة دیبینای ضاحكا : « الا انظرى كيف يطرد الوافدون الجدد ، النزلاء القدامى ! » ، فبدأ عليها الارتباك !.. وقــد فهمت السر فى ذلك بجلاء ، فى ذلك المساء ، حين علمت أن ثمة بابا خفيا بين مخدعها والمخدع الذى فارقته ، وانهــا لم تكن قد رأت جدوى من اطلاعى عليه . ولم تكن علاقاتهــا بجريم سرا على أحد ، سواء فى قصرها ، او فى المجتمع ، بل ولا على

زوجها نفسه !.. ومع ذلك فانها بدلا من أن تأتمننى عليها ، أصرت على إنكارها ، برغم أننى كنت الأمين على أسرار تفوقها قيمة ، وكانت هى تدرك ان هذه الأسرار بمأمن لدى . ولقــد ادركت ان التحفظ كان راجعا إلى « جريم » الذى لم يكن راغبا فى ان تكون فى حوزتى اية أسرار تمســه ، برغــم أنه كان مستودع اسرارى جميعا !

وشفعت له عواطفى القديمة ــ التى لم تكن قد خمدت ــ وكفاءته الحقة ، بيد أنها لم تستطع ان تصمد أمام العناية التى راح يبذلها لكى يهدمها !.. فقد كان سلوكه إزائى ، شبيهــا بسلوك الكونت دى توفيير (١) ، حتى انه لم يكــد يتكرم بــرد تحيتى حينمــا استقبلنى ، لا ولم يوجه إلى كلمة واحــدة ، وسرعان ما اعفانى من أن اخاطبه ، إذ لم يحاول أن يوجه إلى ما اجيب عنه البتــة . وكان يتقدمنى فى اى مكــان ، دون أن يحاول قط أن يحفل بى . ولقد كان بوسعى ان اتجاوز عن هــذا ، لولا انه أبدى حرصا على جرح كرامتى . ويكفى أن اسوق واقعة واحدة من الف ، ليتسنى الحكم على ذلك .. ففى ذات مساء ، شعرت السيدة دیبینای بتوعك بســيط ، فطلبت إلى الخــدم ان يحملوا إليها بعض الطعام فى مخدعها بالطابق العلوى ، حيث اعتزمت ان تتنــاول العشاء إلى جانب المدفأة . ودعتنى إلى الصعود معهــا إلى المخدع ، فلبيت . وما لبث « جريم » أن أقبل بعد ذلك .

---

(١) شخصية فى احدى المسرحيات الفكهة ، هى مسرحية « المغرورون » من تأليف « ديتوش » . وقد ظهرت فى سنة ١٧٣٢

وكانت المائدة الصغيرة قد أعدت ، بحيث لاتضم سوى شخصين ، واحضر الطعام ، فاتخذت السيدة ديبيناى مجلسها إلى احد جانبى المدفأة . واستولى السيد « جريم » على مقعد وثير ، فاستقر فيه ، إلى الجانب الآخر . وجر المائدة فجعلها بينهما ، ونشر المنشفة ، وشرع فى الأكل ، دون ان ينبس ببنت شفة لى !.. وتضرج وجه السيدة ديبيناى خجلا ، ولكى تحمله على أن يعتذر عن تصرفه النابى ، عرضت على مكانها . ولم يقل « جريم » شيئا ولا هو تطلع نحوى . ولما لم يكن لى من سبيل كى اقترب من المدفأة ، فقد قررت ان اذرع الحجرة ، ريثما يحضرون لى ادوات للمائدة .. وتركنى أتناول عشائى فى طرف المائدة بعيدا عن النار ، دون أن يبدى أتفه اعتذار لى وقد كنت أكبره سنا ، وكنت معلولا ، وكنت صديقا قديما للأسرة وقد قدمته بنفسى إليها ، فكان خليقا به ان يكرمنى لذلك ، لاسيما وهو الأثير لدى السيدة !.. وكانت كل تصرفاته معى تشبه كثيرا هذا النموذج . فقد كان يعاملنى وكأننى اقل منه شأنا حقا ، وكان يعتبرنى كما لو أننى لم اكن شيئا يذكر !

وكان من العسير على أن أعرف فيه « خادم المدرسة » الذى التحق بخدمة الأمير « ساكس — جوتا » ، والذى كان يرى فى احتفائى به شرفا وتكريما !.. ووجدت عناء اشد ، فى أن أوفق بين هذا الصمت العميق ، وهذا الترفع المهين ، وبين تلك الصداقة اللطيفة التى كان يتظاهر بانه يكنها لى ، امام أولئك الذين كان يعرف انهم يولونى إياها فعلا !.. ومن الصحيح أنه لم يكن بيدى شيئا اللهم إلا ليرثى لحالى — التى لم اكن

أشكو منها على الاطلاق ! — وبشفق على حظى المحزن — الذى كنت قريرا به ! — وليعنى على اننى كنت أرفض فى فظاظة اللفتات الكريمة ، التى كان يعلن انه مشوق إلى إظهارها نحوى !.. وبفضل هذا الدهاء استطاع ان يحمل القوم على ان يعجبوا بعطفه الكريم ، وعلى أن يعتبوا على نفورى الجاحد .. كما استطاع ان يوهم الناس اجمعين — دون ان يفطنوا — بألا يتصوروا ان تقوم بين راع شهم مثله ، وتعس شقى مثلى ، روابط غير روابط الاحسان من احد الطرفين ، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر .. دون ان يخطر ببالهم — ولو على قبيل الاحتمال — ان هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين !

وعبثا حاولت — من ناحيتى — أن اتبين اى اعتبار يخضعنى لاى التزام إزاء هذا الراعى الجديد . فلقد اقرضته نقودا ، ولكنه لم يقرضنى شيئا البتة .. ولقد سهرت عليه فى مرضه ، ولم يكد هو يعودنى فى مرات سقامى .. ولقد عرفته بكل اصدقائى ، ولكنه لم يعرفنى يوما بواحد من أصدقائه .. ولقد أطريته بكل جهدى ، اما هو .. إذا كان قد اطرانى يوما ، فإنما فعل فى اضيق نطاق من الملانية ، وبطريقة اخرى !.. وما أدى لى يوما — بل ولم يعرض استعداده لأداء — خدمة من اى نوع . فكيف إذن كان الراعى الذى غمرنى بعطفه ؟.. وكيف كنت الأثير المعتمد على رعايته ؟.. لقد كان هذا — وما يزال — فوق إدراكى !

ومن الصحيح — إلى حد ما ، كثر أو قل هذا الحد — أنه

كان شرسا مع كل الناس ، ولكنه لم يذهب فى شراســـته إلى درجة الضراوة مع سواى .. وإنى لأذكر ان « سان ــ لامبير » اوشك ــ ذات مرة ــ ان يطوح بطبق الطعام إلى راس «جريم» ، إذ تجرأ على ان يكذبه جهارا على المائدة ، قائلا فى قحة : «هذا غير صحيح ! » . وكان يقرن لهجته الساخرة ــ بطبيعتها ــ بعجرفة الشخص الحديث العهــد بالنعمة .. بل انه اصبح موضع استهجان ، بفضل سفاهته !.. فقد اغراه اختلاطه بكبار القوم على ان يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على انهــا معقولة ، حتى بين هؤلاء القوم !

ولم يكن ينادى خادمه إلا بكلمة « أيه ! » ، وكان الســيد الجليل الشان قد أوتى عددا كبيرا من الخدم ، فهو لا يدرى أيهم المنوب بخدمته !.. وإذا منحه عطاء ، كان يلقى به على الأرض ، بدلا من ان يدسه فى يده . وقصارى القول انه كان ينسى ان الخادم إنسان ، فكان يوســـعه إزدراء وقسوة ــ فى كل مناسبة ــ بدرجة تثير النفس ، حتى أن الفتى ــ وكان من خيرة الخدم ، وقد نزلت له عنه السيدة ديبيناى ــ لم يلبث ان ترك خدمته دون ما شكوى ، سوى عدم احتماله هــذه المعاملة !.. فكان على شاكلة «لافلير» فى مسرحية «المظفرون» الفكهة !

ولقد كان بليد الذهن بقدر ما كان مغرورا ، وكان يخال انه ــ بعينيه الكبيرتين الكئيبتين ، ووجهه المترهل ــ ذو حظــوة عظيمة لدى السيدات ، فان عــددا من افراد الجنس اللطيف

اعتبرنه ــ بعد تمثيلية الآنسة فيل الخرافية (١) ــ رجلا ذا عواطف مشبوبة .

وقد اذاع ذلك صيته فى المجتمع ، واكسبه ميلا إلى اناقة النساء ، فراح يتجمل ، وأصبحت زينته عملية خطيرة ، وكان الناس جميعــا يعرفون انه يستخدم المساحيق والمعاجين .. أما انــا فلم أكن أعتقــد ذلك ، ولــكننى لم البث أن بدات اصــدقه ، لا لجمــال بشرته ، ولا لمجــرد اننى كنت اجــد اوانى المعاجين على مائدة زينته ، وإنما لأننى وجــدته ــ إذ ولجت مخدعه ذات صباح ــ منهمكا فى تنظيف اظفاره بفرجون صغير صنع لهذه الغاية !.. وهى عملية واصل اداءها أمامى مزهوا . وحدست ان الرجــل الذى يقضى ســاعتين من كل صباح فى تنظيف اظفــاره ، لا يضن ببضــع دقائق لكى يملأ تجاعيد جلده بالمعاجين !.. لقد اطلق عليــه « جوفكــور » الطبيب ــ الذى لم يكن غبيا ــ اسم « تيران الأبيض » ، على سبيل الدعابة والهزء !

* * *

ولم تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة ، ولكنها كانت تخالف اخلاقى ، وقد انتهت بأن حملتنى على الشك فى اخلاقه ، فاننى لا اكاد اصدق ان رجلا استولت على راسه النزوات ، يملك لقلبه قيادا فى الطريق السوى . ولقد كان يفخر بحساسية

---

(١) كان « جريم » قد احب الآنسة « فيل » ــ دون أن تبادله هى الحب ــ فانتابته غيبوبة عجيبة ، روى « روسو » تفصيلها فى صفحة ١٥١ (٦٠٥) من الجزء الثالث .

روحه وعنفوان مشاعره ، اكثر مما يفخر بأى شىء آخـر .
فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التى لا تلصق بغير ذوى العقول
الصغيرة ؟.. وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصـلة ،
التى تحلق بها مشاعر القلب الحساس — خارج نطاق هـذا
القلب — أن يشغل باله بأمور تافهة تتعلق بشخصه الضئيل ؟..
آه ، يا إلهى !.. إن الذى يشعر ان فؤاده يكتوى بهذه النار
السماوية ، يسعى عادة إلى أن ينفثها خارجه ، وإلى ان يكشف
دخيلة نفسه .. إنه يتلهف إلى أن يعـرض قلبه على أسارير
وجهه ، ولا يفكر قط فى اية معاجين ، أو اية زينة لهذا الوجه !

ولقد تذكرت خلاصة فلسفته الخلقية ، كما انبأتنى بهـا
السيدة ديبيناى ، التى كانت قد انتهجتها . وهذه الخلاصـة
تضم مبدأ واحدا .. ذلك هو ان الواجب الأوحـد للإنسان ،
هو أن يسير وراء نوازع قلبه ، فى كل شىء !.. ولقد امدنى
هذا القانون الخلقى — حين سمعت به — بمادة بغيضة للتفكير ،
برغم أننى لم اعتبره — فى ذلك الوقت — اكثر من فكاهة .. على
اننى سرعان ما تبينت أن هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل
فعلا ، ولم ازد — فيما بعد — إلا تثبتا من ذلك ، وإن جـاء
الدليل على حسابى انا !.. كان ذلك هو المذهب الباطنى ،
الذى كثيرا ما حدثنى عنـه ديدرو ، وإن لم يعمـد قط إلى
الإيضاح والشرح .

وتذكرت كذلك الانذارات العديدة التى تلقيتها — قبل ذلك
بسنوات — لتنبيهى إلى ان ذاك الرجل كان غشاشا ، وانه كان
يعبث بالمشاعر ، دون أن تكون لديه عواطف ما ، بوجه خاص.

واستعرضت عدة وقائع صغيرة ، كان السيد دى فرانكويى
والسيدة دى شينونسو قد ذكراها لى بهذا الصدد .. فما
كان اى منهما ليوليه اعتبارا ، ولا بد انهما كانا على دارية طيبة
به ، إذ ان السـيدة دى شينونسو ، كانت ابنـة السيد دى
روشيشوار ، الصديقة الحميمة للمرحوم الكونت دى فريز ..
كما ان السيد دى فرانكويى — الذى كان وثيق الصلة بالفيكونت
دى بولينياك فى تلك الفترة — كان كثير التـردد على القصر
الملكى ، فى عين الوقت الذى سمح لجريم فيه بدخوله . ولقـد
عرفت باريس بأسرها نبأ اليأس الذى استولى عليه عقب وفاة
الكونت دى فريز . وكان همـه الأكبر هو الاحتفاظ بالصيت
الذى اكتسبه ، بعد المعاملة القاسية التى لقيها من الآنسة فيل ،
والتى كان من الخليق بى أن اكون أقدر الناس على كشـف
زيف الضجة التى ترتبت عليها ، لو اننى كنت اقل عمى وغفلة!
.. كان لابد من جره إلى قصر دى كاسترى ، حيث ادى دوره
بمهارة مصطنعا اقوى وجد فتاك . وكان فى كل صباح يسعى
إلى الحديقة ، ليبكى ما شاء له البكاء ، ممسـكا امام عينيـه
بمنديل مبتل بالدموع ، طالمـا كان على مشهد من القصر . وما
ان يعرج مع انحناءة الطريق ، إلى شارع ضيق ، حتى يدس
المنديل فى جيبه بعـد ان يخرج من هـذا كتابا ، على مرآى
اشخاص لم يكن لديه اى ظن عن انهم كانوا يشاهدونه !

لقد رؤى — وهو يفعل ذلك — اكثر من مرة ، وسرعان ما
اصبح النبأ مشاعا فى باريس ، ولكنه لم يلبث ان راح منسيا ..
حتى انا نسيته ، ولكن مسـألة تخصنى عادت تذكرنى به .

فلقد كنت طريح الفراش ، على أعتاب الموت ، فى المسكن الذى كنت اتخذه فى شارع (دى جرينيل) ، بينما كان هو فى الريف . وفى ذات يوم ، أقبل ليعودنى ، وهو لاهث الأنفاس ، وقال إنه قد وصل لتوه من ريفه . وإن هى إلا دقيقة ، حتى علمت انه وصل فى اليوم السابق ، وانه شوهد فى المسرح ، فى اليوم ذاته !

ولقد عاودتنى ألف من هذه الوقائع الصغيرة ، ولكن اشد ما اذهلنى ، تمثل فى شىء دهشت لاننى لم افطن إليه من قبل . ذلك اننى كنت قد قدمت « جريم » إلى جميع أصدقائى ، دون استثناء ، فلم يلبثوا ان اصبحوا جميعا اصدقاء له . وكنت لا اكاد انفصل عنه ، حتى لقد بات من المعتذر ان أواصل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله . ولم يرفض زيارته سوى السيدة دى كريكى ، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعا يكاد يكون تاما .. ولقد تعرف جريم ـ من ناحيته ـ على أصدقاء آخرين، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه، أو عن طريق الكونت دى فريز . ولم يقدر لأحد من أصدقائه جميعا أن يغدو صديقا لى . كما انه لم يفه بكلمة واحدة لحملى على التعرف بهم ، على الأقل .. وما اظهر لى واحد من كل أولئك الذين كنت التقى بهم فى مسكنه أحيانا ، اية نية حسنة .. ولا الكونت دى فريز الذى كان جريم يقيم لديه ـ والذى كان يسرنى ان أوثق الصلات معه ـ ولا الكوت دى شومبيرج ، قريبه الذى كانت العلاقة بيه وبين جريم تفوق الود الوثيق !

وهنـاك ما يفوق ذلك .. فان أصدقائى الأصليين ، الذين

جعلت منهم اصدقاء له ـ والذين كانوا على صلات وثيقة معى قبل هذا التعارف ـ لم يلبثوا أن تغيروا نحوى بعده .. أبدا! لم يقدم لى احدا من أصدقائه ، وإن كنت قد قدمت إليه كل أصدقائى .. ومع ذلك فانه انتهى إلى أن حرمنى منهم جميعا. فاذا كانت هذه هى نتائج الصداقة ، فما هى نتائج البغضاء ؟

ولقد حذرنى « ديدرو » مرات عدة ـ منذ البداية ـ من أن « جريم » الذى أوليته كل هـذه الثقة ، لم يكن صديقا لى . وما لبث ان بدل لهجته ، عندما كف عن أن يكون صديقا لى ، هو الآخر !

* * *

ولم تتطلب الطريقة التى تصرفت فى أولادى بمقتضاها ، معونة من احد . ومع ذلك فقد اطلعت عليها اصدقائى ، لمجرد اطلاعهم ، حتى لا أبدو فى اعينهم افضل مما كنت . وكان هؤلاء الأصدقاء ثلاثة فحسب : ديدرو ، وجريم ، والسيدة دبيناى . ولقد كان « ديكلو » ـ وهو اجدر اصدقائى بثقتى ـ الوحيد الذى لم أنبئه . ومع ذلك فانه عرف بالأمر .. ممن ؟ .. لست ادرى . ومن المتعذر احتمال ان تكون السيدة دبيناى هى المذنبة بخيانة الثقة ـ فى هذه المرة ـ لأنها كانت تعلم خير العلم ، اننى إذا حذوت حذوها ـ لو اننى كنت قادرا على مثل هذا العمل ـ لثأرت لنفسى بقسوة !.. ويبقى بعد ذلك جريم وديدرو ، اللذان كانـا ـ فى ذلك الوقت ـ وثيقى الارتباط فى كثير من الأمور ، لا سيما ما يكون منها ضدى .. ومن ثم فهناك اكثر من مجرد الاحتمال بانهما المذنبان معا !..

وأراهن على أن « ديكلو » — الذى لم اكاشفه بسرى ، والذى لم يكن مضطرا لذلك إلى الصمت — كان هو الوحيد الذى لم يشى بهذا السر !

ولقد بذل جريم وديدرو — فى محاولتهما لإقصاء «المربيتين» عنى — جهدا لاستدراج « ديكلو » إلى المساهمة فى خططهما ، ولكنه كان يرفض دائما فى إزدراء . ولم يحدث إلا فيما بعد أن علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد . ولكننى كنت إذ ذاك قد عرفت من تيريز ما كان كافيا لأن ابصر فى المسألة كلها غاية خفية ، وانهما كانا مشوقين إلى ان يتخلصا منى ، دون ان أفطن — على الأقل — إن لم يكن بالرغم منى . . او انهما — على الأرجح — كانا يبغيان ان يستغلا هاتين المرأتين كأداتين فى خطة سرية . ولقد كان فى كل ذلك شىء غير شريف ، حقا . وهذا ما تدل عليه معارضة « ديكلو » ، دون نزاع ، فلير من يشاء فى هذا صداقة او ودا !

لقد كانت هذه الصداقة المزعومة خطرة على حياتى الداخلية ، كما كان شانها على حياتى الخارجية . فان الأحاديث الطويلة ، والعديدة ، مع السيدة لوفاسير — لعدة سنوات قبل ذلك — قد بدلت من مشاعر هذه المراة نحوى ، بدرجة ملموسة . . ومن المحقق ان هذا التبدل لم يكن فى صالحى . فماذا كان موضوع الحديث — إذن — خلال هذه الخلوات العجيبة ؟ . . وما السر فى هذا الغموض العميق ؟ . . وهل كان حديث هذه المراة العجوز مستحبا إلى درجة اعتباره نعمة ، او مهما إلى درجة تدعو إلى فرض مثل هذا الغموض حوله ؟ . .

لقد بدت لى هذه الاجتماعات مضحكة ، خلال السنوات الثلاث أو الأربع التى دامتها ، ولكنى عندما تدبرتها ، بدات أعجب منها . وكان هذا الشعور بالعجب كفيلا بأن ينتهى إلى عدم الارتياح ، لو اننى عرفت — إذ ذاك — ما كانت هذه المراة تتآمر عليه ضدى .

وعلى قدر ما كان جريم يتظاهر به من تحمس من اجلى — كان يطنطن به فى المجتمع ، وكان من العسير أن يتفق مع المسلك الذى راح يسلكه نحوى بالذات — فاننى لم اكسب شيئا من هذا التحمس ، من اية ناحية . . بل إن الاشفاق الذى كان يتظاهر به نحوى ، ادى إلى الحط من قدرى أكثر مما ادى إلى نفعى . بل إنه — بقدر ما كان يملك — قد جردنى من ارباح المهنة التى اخترتها لنفسى ، إذ راح يعلن اننى لم اكن اتقن النسخ . واقر انه كان صادقا فى قوله ، غير انه لم يكن مما يليق به ان يقوله . وقد اثبت انه لم يكن مازحا ، إذ انه استخدم ناسخا غيرى ، ولم يدع لى عميلا كان يستطيع إليه وصولا ، حتى ليجوز ان يقال إن غايته كانت تتمثل فى ان يجعلنى عالة عليه وعلى اهتمامه بأن يكفلنى وذلك بأن يستنفد مواردى ، حتى انحدر إلى مثل هذه الحال !

اما وقد الممت بكل هذا ، فقد بادر عقلى إلى فرض الصمت على آرائى السابقة فى جريم ، وهى الآراء التى كنت قد ظللت ارددها — لصالحه — حتى ذاك الحين . ورأيت أن أخلاقه كانت جد مثيرة للشبهات ، على الأقل . اما وده وصداقته ، فقد قطعت بانهما زائفان . وإذ عقدت العزم بناء على ذلك — الا

أراه ثانية ، فقد بادرت إلى إنبـاء السـيدة ديبيناى بذلك ، وعززت قرارى بعدة مبررات لا سبيل إلى ردها ، وإن كنت قد نسيتها الآن !

ولقد عارضت السيدة ديبيناى هـذا العزم بشدة ، دون أن تدرى تماما ما ترد به على الحجج التى أقرت رأيى . ولم تكن قد شاورته فى الأمر بعد ، ولكنهـا بدلا من أن تفصح عن موقفها شفويا إلى ، أرسلت ـ فى اليوم التالى ـ خطابا صيغ ببراعة اشتركا فيها معا . وقد التمست لجريم فيه العذر ـ دون خوض فى تفصيلات أى شىء ـ اسـتنادا إلى طباعـه المنطوية ، واعتبرته جرما أن أتهمه بخيانة صديقه ، وحضتنى على أن أصلح ما بيننا . ولقد زعزع خطابها عزمى !.. وفى حديث دار بيننا بعد ذلك ـ وجدتها خلاله أحسن استعدادا مهنا فى المرة الأولى ـ ارتضيت أن أنهزم ، وملت إلى الاعتقاد بأننى ربما كنت قد أسأت الحكم ، وأننى ـ فى هـذه الحال ـ قد أخطأت فعلا فى حق صديق ، أشنع خطأ ، مما كان يلزمنى بإصلاح ذات البين . وبالإيجاز ، فعلت فى هذه المرة ، ما فعلته عدة مرات من قبل إزاء ديدرو والبارون دولباخ .. وأقدمت طواعية ـ من ناحية ـ وبدافع من ضعفى ، من ناحية أخرى ، على كل هذه المساعى ، التى كان على أن أفعلها : فذهبت ـ كجورج داندان آخـر (١) ـ لزيارة جريم ، كى أعتذر له عن

---

(١) « جورج داندان » احدى شخصيات مسرحية موليير الفكهة « الزواج الخجول » ، وقد كان داندان فلاحا تزوج من امرأة من بنات الأسرات العريقة ذات الجاه .

الإهانات التى ارتكبها هو ضـدى ، إذ كنت منساقا دائمـا للاعتقاد الخاطىء ، الذى عرضنى طيلة عمرى لألف صـغار وضعة أمام أصدقائى المزعومين .. الاعتقاد بأنه ما من بغضاء تصل فى قوتها إلى درجة يستعصى معها على اللطف وحسن التصرف أن يغلباها .. فى حين أن الأمر على النقيض ، فإن كراهية الخبثاء إنما تقوى وتشتد بفضل استحالة العثور على ما يبررها ، كما أن شعورهم بذنوبهم لا يؤدى إلا إلى زيـادة حقدهم على ضحيتهم !

وعندى ـ بدون خروج عن سياق قصتى ـ دليل جد قوى على هذه النظرية ، يتمثل فى تصرف جريم وترونشان ، اللذين صارا الد عدوين لى ، عن ميل ، وعن لذة ، وعن نزوة ، دون أن يملكا قط أن يذكرا واقعة واحدة ـ من أى نوع كانت ـ أكون قد آذيت بها أيا منهما .. وكان هياجهما ـ كهياج النمر ـ يزداد يوما بعد يوم ، نظرا للسهولة التى كانا يستمرئانه بها !

* * *

ولقد توقعت أن يستحى جريم من تنازلى ، ومن مساعى الصلح ، فيتلقـانى بذراعين مفتوحتين ، وبأرق العواطف . ولكنه ـ فى الواقع ـ استقبلنى وكأنه إمبراطور رومانى .. فى ترفع لا مثيل له . ولم أكن على استعداد إطلاقـا لهـذا الاستقبال . وإذ ارتبكت لاضطرارى إلى أن أؤدى دورا كهذا لا يلائمنى ، أوضحت غرض زيارتى فى بضع كلمات مترددة . وقبل أن يتقبلنى فى جنـة رضـاه ، راح يلقى ـ فى كثير من التعاظم ـ حديثا طويلا ، كان قد أعده من قبل وضمنه عددا من سجاياه النادرة ، لا سيما فى مضمار الصداقة . واسهب

نترة فى ذكر أمر اثر فى نفسى كثيرا فى البداية : ذلك هــو أن الناس كانت ترى فيه دائما حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه . وفيما كان يتكلم رحت أقول لنفسى إن من القسوة ـ من ناحيتى ـ أن أكون المستثنى الوحيد من هــذه القاعدة . ولقد أكثر من العودة إلى هــذا الأمــر ، فى تكلف بالغ ، حتى أنه جعلنى ـ فى النهاية ـ أرى أنــه إذا لم يكن منساقا فى هــذا لغير أحاسيس قلبه ، لكان أقل تأثرا بهــذا الأمر الذى انطلق فى شرحه مسهبا .. وأنه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بوساطتها إلى الغاية التى يقصدها من آرائه هذه !.. ولقد كنت ـ حتى ذلك الحين ـ على مثل هذه الحال : فلقد اعتدت دائمــا أن أحتفظ بأصدقائى ، وما فقدت ـ منذ طفولتى ـ واحدا منهم اللهم إلا بالموت ، ومع ذلك فاننى لم أجعل من هذا الاحتفاظ شاغلا أطيل التفكير فيه .. ولا جعلت منه مبدأ أضعه لنفسى .

وإذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بهــا هو وحده ، اللهم إلا إذا كان قد فكر فعلا فى أن يجردنى منها ؟ .. ولقد عمــد ـ بعد ذلك إلى الحط من قدرى ، بأن راح يبرهن على أن الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه على أنا !.. وكنت أكثر منه علما بهذا التفضيل ، ولكن المهم فى الأمر ، هو : بأى ثمن ظفر به ؟.. أفكان ذلك لأنه أوتى مواهب أو براعة تفوق مواهبى أو براعتى .. أو لأنه كان يرقى بنفسه ، أو لأنه كان يسعى إلى الحط من قدرى ؟.. وأخيرا ، وبعــد أن أرضى نفسه بأن أقام بينى وبينه من الفوارق ما يكفى لأن يجعل للعفو الذى كان يوشك أن يمنحه قيمة ، منحنى قبلة صلح ،

فى عناق واهن ، كذلك الذى يتكرم به الملك على من ينصبهم فرسانا .. وهويت من الســحب .. ووجدتنى مشدوها ، لا أدرى ما ينبغى أن أقول ، بل إننى لم أعثر على كلمة واحدة .. لقد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجهه أستاذ إلى تلميذ ، وهو يعفيه من عقوبة الضرب !.. وما فــكرت فى ذلك قط ، إلا شعرت بمدى خداع الحكم الذى يقوم على المظاهر ـ والذى يضفى عليه السوقة إهمية وقيمة ـ وبكثرة ما تكون الجرأة والكبرياء من حظ المذنب .. والحيــاء والارتبــاك من حظ البرىء .

واصطلحنا !.. كان هذا عزاء ـ على الأقل ـ لقلبى الذى كان كل خلاف يدفع به إلى اللواعج القاتلة !.. ومن الصواب أن يحدس المرء أن مثل هذا الصلح لم يبدل من أخلاق جريم وتصرفاته .. وكل ما أدى إليه ، هو تجريدى من حق الشكوى من هذه التصرفات !.. ومن ثم ، فقــد عولت على أن أتحمل كل شىء ، دون أن أفضفض بشىء ما !

***

هذه الهموم الكثيرة ، التى تعاقبت ضرباتها ، واحدة بعد أخرى ، طوحت بى إلى حال من الضنى لم تدع فى كيانى جهدا ليمكننى من أن أستعيد السيطرة على نفسى .. وإذ لم أكن قد تلقيت أى رد من « سان ـ لامبير » ، وقد أصبحت موضــع إهمال لدى السيدة دوديتو ، ولم أعد أجرؤ على أن أبوح بما فى قلبى لإنسان ما ، فقد بدأ الخوف يراودنى من أن أكون قد ضيعت حياتى ضحية للأوهام ، إذ جعلت من الصداقة معبودا !

لقلبى !.. وكان الدليل على هذا قائما ، إذ لم يكن قد بقى لى ــ من كل أصدقائى ــ سوى رجلين ، ظلا محتفظين بتقديرى، وكان قلبى يركن إليهما ويأمنهما : « ديلكو » ــ الذى حرمت من رؤيته منذ اعتكافى فى (ليرميتاج) ــ و « سان ــ لامبير » . ووقر فى نفسى اننى لن استطيع ان أصلح من أخطائى نحــو هــذا الأخير ، إلا بأن افتــح له مغاليق قلبى دون تحفظ .. فعزمت على ان اعتــرف له اعترافا كاملا ، بكل ما لا يحــرج عشيقته . ولم يخطر لى ببال ، ان هذا الاختيار ، كان أحبولة اخرى نصبها لى هواى ، ليقربنى من الســيدة .. ولكن من المحقق أننى كنت على استعداد لأن ألقى بنفسى بين ذراعى عشيقها دون ما تحفظ ، وأن أنصاع لإرشاده انصياعا تاما ، وان امضى فى صراحتى إلى ابعد مدى استطيع الوصول إليه !

وكنت على استعداد لأن أكتب إليه رسالة ثانية ، وانا موقن من انه سيجيب عنها ، عندما علمت بالسبب المحزن الذى دعاه إلى الصمت إزاء الرسالة الأولى .. ذلك انه لم يتحمل إرهاق الحملة . وقد اخبرتنى السيدة ديبينــاى بانه اصيب بنوبة فالج ، كما ان السيدة دوديتو ــ التى انتهى بهــا الغم إلى ان مرضت هى الأخرى ، والتى لم تكن فى حال تمكنها من الكتابة إلى فى الحال ــ ارسلت إلى كلمة ، بعــد يومين او ثلاثة ، من باريس ــ حيث كانت فى ذلك الحين ــ وقالت إن « سان ــ لامبير » رغب فى ان ينقل إلى (اكس لاشــابيل) ، ليستشفى بمياهها . ولن اقول إن هذا النبأ المحزن أسقمنى كما أسقمها ، ولكنى ارتاب فى ان الأسى الذى بعثه فى نفسى كان أقل إيلاما من لوعتها ودموعها !.. فان الاغتمام الذى نشأ عن معرفة انه

كان فى حال كهذه ، تضاعف من جــراء الخوف من أن يكون القلق النفسى (١) قد ساهم فى ذلك ، مما كان له فى نفسى اثر فاق كل ما جرى لى شخصيا . وتولانى شعور قاس بأننى ــ فى تقديرى الخاص لنفسى ــ كنت افتقد القوة المنشودة لكى لكى أحتمل مثل هذا الأسى !

على ان هذا الصديق الكريم ، لم يدعنى طويلا ، فى مثــل هــذا الهم ــ لحسن الحظ ــ إذ أنه لم ينسنى ، بالرغم من مرضه . وما لبثت أن علمت منــه شخصيا ، أننى كنت قــد أسأت الحكم على مشاعره وحاله !

ولكن الوقت قــد حان لكى انتقل إلى الانقــلاب الكبير ــ والمفاجىء ــ الذى طــرأ على مصيرى .. إلى النكبــة التى شطرت حياتى شطرين متباينين ، والتى أدت ــ من جــراء سبب جد تافه ــ إلى عواقب فظيعة !

* * *

ذلك ان السيدة ديبيناى ارسلت ــ ذات يوم ــ تستدعينى ، على غير توقــع البتــة . فلما ولجت مخدعهــا ، لمحت فى عينيها ، وفى أساريرها كلها ، ما يوحى بأنها كانت مضطربة ، الأمر الذى زاد من دهشتى ، إذ انه لم يكن مألوفا ، فما كان فى الدنيا من يحذق السيطرة على أساريره وحركاته مثلها !.. وقالت لى : « إننى راحلة إلى جنيف يا صديقى ، فان صدرى فى حالة سيئة ، وصحتى فى انهيــار يجعلنى أهمل كل شىء ،

(١) القلق النفسى الذى نشأ عن [illegible] من عــلاقة « روسو » بعشيقته .

إذ لا بد لى من الذهاب كى أزور ترونشان واستشيره » .. ولقد ادى هذا القرار ــ الذى اتخذ بغتة ، وفى بداية الفصل السيىء (١) ــ إلى مضاعفة دهشتى .. فهى لم تشر بكلمة واحدة إلى هذا الأمر ، عندما فارقتها قبل ذلك بست وثلاثين ساعة !.. وسألتها عمن تعتزم اصطحابه ، فقالت إنها كانت راغبة فى ان تصطحب ابنها والسيد « دى لينان » ، ثم اضافت فى غير اكتراث : « وانت يا دبى .. الا تأتى انت الآخر ؟ » .. ولما كنت موقنا من انها لم تكن جادة فى حديثها ــ إذ كانت تعلم أننى فى مثل تلك الآونة من السنة ، التى كنا مقبلين عليها ، اكون فى حال لا تكاد تسمح لى بمبارحة مخدعى ــ فقد رحت اتفكه ساخرا من رفقة معلول لمعلول آخر !.. وما كانت هى نفسها تعنى ما عرضت، ومن ثم فان الأمر انتهى عند هذا الحد . ولم نعد نتحدث إلا عن الاستعداد للرحلة ، وهو الأمر الذى انهمكت فيه بكل همة . وعقدت العزم على أن تسافر بعد خمسة عشر يوما .

ولم اكن بحاجة إلى كثير من بعد النظر ، لكى أدرك ان ثمة دافعا خفيا على هذه الرحلة ، كتم عنى . وهذا السر ــ الذى لم يكن سرا على احد سواى فى البيت كله ــ لم يلبث ان تكشف فى اليوم ذاته ، بوساطة « تيريز » . فقد انبأها به كبير الخدم، إذ سمعه من وصيفة السيدة !.. ومع اننى بعيد عن اى التزام ــ نحو السيدة ديبيناى ــ يضطرنى إلى كتمان هذا

---

(١) يقصد فصل الشتاء .

السر ، لأننى لم أعرفه منها ، إلا انه وثيق الارتباط بأولئك الذين نمى إلى عن طريقهم . ومن ثم فليس فى وسعى ان ابوح به . على أن هذه الأسرار ــ التى لم تخرج ، ولن تخرج ، من فمى ، أو على قلمى ــ لم تلبث أن غدت معروفة لدى كثير من الناس ، فلم يكن فى الوسع أن تظل مجهولة لدى احد من المحيطين بالسيدة ديبيناى (١) .

ولقد كان خليقا بى ــ عندما ألممت بحقيقة الدافع على هذه الرحلة ــ أن أتبين أن ثمة إيعازا خفيا من عدو لى حاول ان يجعل منى مرافقا للسيدة ديبيناى . ولكنها لم تلح على البتة كى أرافقها ، ومن ثم فاننى ظللت أعتبر المحاولة أمرا غير جدى .. ولم أفعل أكثر من أن ضحكت من الشكل الذى كنت

---

(١) كان الدافع السرى للرحلة ــ كما غدا معروفا ــ هو أن السيدة ديبيناى حملت ، نتيجة علاقتها بالسيد جريم . ولقد كان من العجيب حقا ، أن تصحب معها ــ فى رحلة كهذه ــ ابنها والمربى الذى كان يعنى به. بل الأنكى من هذا، أن زوجها نفسه رافقها حتى جنيف !.. وكان الأعجب أنها اختارت (جنيف) بالذات لتضع حملها الآثم . ذلك لأنها ما كانت لتجد التستر المنشود هناك ، اذ كان مجرد وجودها يجتذب الأنظار اليها .. على أن هذه المتناقضات جميعا ، كانت فى حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة !

بقى دور « روسو » فى هذه الواقعة . فلقد كانت الدعوة التى وجهت اليه ــ دون اكتراث ــ حيلة أخرى ، قصد بها ارضاء غرور السيدة ديبيناى ، بظهور فيلسوف مثله فى ركابها .. كما أن جريم وعشيقته استغلاها فى اظهاره بمظهر الجاحد بفضل السيدة التى منحته [illegible] !

اوشك ان اظهر فيه ، لو أننى كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة . وبجانب هذا ، فانها كسبت برفضى كثيرا ، إذ مكنها هذا من أن تغرى زوجها بمصاحبتها !

وبعد أيام قلائل ، تسلمت الرسالة التالية من ديدرو . وكانت هذه الرسالة مطواة طيتين ، بحيث يستطيع اى امرىء ان يقرأ محتوياتها . وكان العنوان يحمل اسمى مردفا بهذه العبارة : « عن طريق السيدة ديبيناى » ، وعهد بها إلى السيد دى لينان ، أستاذ الابن ومستودع الأم !

رسالة من ديدرو (الملف ١ ــ رقم ٥٢)

« لقد خلقت لكى أحبك ولكى أؤلمك . لقد علمت أن السيدة ديبيناى راحلة إلى جنيف ، ولم أسمع بأنك مرافق إياها . فاذا كنت راضيا عن السيدة ديبيناى ، يا صديقى ، فمن الواجب أن ترحل معها .. أما إذا كنت مستاء منها ، فمن الواجب أن تكون أسرع مبادرة إلى الرحيل . أفأنت ترزح ــ أكثر مما ينبغى ــ بأثقل التزامات أبهظتك بها ؟.. إذن ، فهاك فرصة لكى تؤدى بعضا منها ، ولكى تتخفف من أعبائك . فهل ستجد فرصة أخرى فى حياتك لإظهار عرفانك بجمائلها ؟.. انها ذاهبة إلى بلد ستكون فيها كمن هبطت من أطواء السحاب . وانها لمريضة ، وستكون بحاجة إلى تسرية وترويح .. أتقول الشتاء ؟!.. الا انظر يا صديقى !.. إن حجة صحتك قد تكون أقوى مما يخطر ببالى ، ولكن ، هل تراك اليوم أسوأ حالا مما كنت منذ شهور .. ومما ستكون فى مطلع الربيع ؟..

هل ستكون الرحلة مريحة لك ــ بعد ثلاثة أشهر ــ أكثر مما هى اليوم ؟.. إننى أصارحك ــ فيما يتعلق بى ــ بأننى إذا لم احتمل العربة ، لاعتمدت على عصاى ، وتبعتها !

« ثم ، الا تخشى أن يسىء الناس تأويل مسلكك ؟.. لسوف تتهم بالجحود ، أو بأن لديك حافزا خفيا . وإنى لأدرك تماما انك ، ستجد قلبك يشهد دائما لضميرك ، مهما يكن ما تفعل .. ولكن ، هل تكفيك هذه الشهادة فى حد ذاتها ، وهل من المباح ان تهمل شهادة الغير ، إلى حد ما ؟

« وفيما عدا ذلك ، يا صديقى ، أكتب هذا الخطاب وفاء لواجب التزم به نحوك ونحو نفسى . فإذا لم يرق لك ، فطوح به إلى النار ، ولا تفكر فيه بعد ذلك ، وكأننى لم أكتبه قط .

« وإنى لأحييك ، وأحبك ، وأقبلك » .

وتولتنى انتفاضة الغضب ، واستبد بى الذهول ، إذ قرأت هذه الرسالة ، التى وجدت عناء فى أن أتمها . ولكن ذلك لم يلهنى عن أن ألاحظ اللهجة التى اصطنعها ديدرو ليبدو مسرفا فى اللطف ، وفى الترفق ، وفى الاخلاص ، عما اعتاد فى رسائله الأخرى ، دون أن يضن على بلقب (الصديق) . وتبينت الطريق غير المباشرة التى جاءتنى هذه الرسالة خلالها .. فقد كان العنوان ، والأسلوب ، والطريقة التى وصلت بها ، تنم عن مداورة سيئة الغرض . ذلك لأننا اعتدنا ان نتكاتب عادة عن طريق البريد ، أو عن طريق حامل الرسائل فى

(مورنمورنسى) . وقد كانت هذه هى المرة الأولى ، والوحيدة ، التى نهج فيها هذا النهج !

* * *

وعندما سمحت أولى نوبات الغضب للكرامة بالكتابة ، بادرت إلى تحرير الجواب التالى ، الذى حملته لفورى ، من (ليرميتاج) – حيث كنت إذ ذاك – إلى (لاشيفريت) ، لأطلع عليه السيدة ديبيناى ، إذ رغبت – فى غضبى الأعمى – أن اقراه عليها بنفسى ، كما أطلعها على رسالة ديدرو :

« يا صديقى العزيز ، إنك لا تستطيع ان تعرف مدى التزاماتى نحو السيدة ديبيناى ، ولا المدى الذى تذهب إليه هذه الالتزامات فى ربطى إليها ، ولا ما إذا كانت السيدة بحاجة حقا إلى شخصى – فى رحلتها – ولا ما إذا كانت راغبة فى ان ارافقها ، ولا ما إذا كان هذا فى إمكانى ، ولا الأسباب التى قد تكون لدى ، لأمتنع عن مرافقتها .. ولست آبى أن اناقش هذه النقاط معك . وإلى ان يتم ذلك ، احب ان تقر معى ان إملاءك على – بهذا الاعتداد – ما ينبغى على عمله ، دون أن تكون فى وضع يمكنك من الجزم ، لهو – يا فيلسوفى العزيز – عين اللغو !

« واسوا ما فى الأمر ، اننى ارى ان هذا ليس رأيك ، ولا هو صادر عنك . هذا ، بغض النظر عن أننى غير مستعد لأن ادع نفسى منساقا لطرف ثالث أو رابع تحت اسمك .. وانى لأجد فى هذه التصرفات غير المباشرة ، مداورة لا تتمشى مع صراحتك، ويحسن بك ان تتجنبها فى المستقبل ، لصالح كل منا !

« اراك تخشى ان يساء تأويل مسلكى ، ولكنى اتحدى قلبا كقلبك ان يجرؤ على إساءة الظن بى . أما الآخرون ، فلعلهم يتحدثون عنى بخير ، لو أننى شابهتهم . فلعل الله يصوننى من ان اكسب رضاهم !.. ودع اللئام يتجسسون على ، ويؤلون مسلكى كما يحلو لهم . فان «روسو» ، ليس بالذى يخشاهم ، كما أن « ديدرو » ليس بالذى ينصت إليهم !

« إنك تريدنى على ان أطوح برسالتك إلى النار ، إذا لم ترق لى ، والا افكر فيها بعد الآن . افتظن ان من السهل نسيان ما يفد منك ؟.. إنك تسترخص دموعى ، يا صديقى العزيز ، بالآلام التى تسببها لى ، كما تسترخص حياتى وصحتى ، بالهموم التى تثيرها . فاذا استطعت ان تصحح هذا ، فستظل صداقتك دائما من أعذب ما أنعم به ، ولسوف يقل ما اعانيه من رسالتك ! » .

وإذ ولجت مخدع السيدة ديبيناى ، وجدت جريم معها ، مما اطربنى . فقرأت عليهما – بصوت عال ، واضح – الرسالتين ، فى هدوء نفس ما كنت لأؤمن باننى قادر عليه . حتى إذا فرغت ، اضفت بضع ملاحظات لم تنم عما وراء ذلك الهدوء . ورايت ان هذه الجراة غير المتوقعة ، من رجل كان شديد الخور والتردد عادة ، قد أدهشتهما واذهلتهما معا . فلم يجيبا بكلمة واحدة . ورايت – فوق ذلك – ان الرجل المتعجرف قد غض بصره ، ولم يقو على أن يصمد امام شرر نظراتى . ولكنه فى اللحظة ذاتها ، عاهد نفسه – فى اعماق

قلبه ـ على القضاء على. وإنى لموقن من انه والسيدة ديبيناى قد اجمعا على ذلك قبل ان يفترقا !

وحدث فى حوالى تلك الآونة ، ان تلقيت ـ عن طريق السيدة دوديتو ـ رسالة من « سان ـ لامبير » (الملف ا ـ رقم ٥٧). وكان قد ارسلها من (ولفينبوتيل) ، قبيل مصابه بأيام قلائل ، ردا على رسالتى ، ولكنها تأخرت طويلا فى الطريق . وقد أتاح لى هذا الجواب شيئا من العزاء كنت فى اشد الحاجة إليه فى تلك الآونة ، لما زخر به من دلائل التقدير والصداقة ، مما بث فى نفسى القوة والجراة لكى اكون أهلا لذلك . ولقد رحت ـ منذ تلك اللحظة ـ أؤدى واجبى . ولكن من المحقق اننى كنت موشكا على ان أضل ، دون رجعة ، لو أن «سان ـ لامبير» ظهر بمظهر اقل حكمة وكرما وإخلاصا !

* * *

واصبح الجو رديئا ، وشرع النـاس فى مغادرة الريف . وانبأتنى السـيدة دوديتو باليوم الذى اعتزمت فيه أن تأتى لتودع وادينا ، وضربت لى موعدا للقاء فى (أوبون) . وشاءت المصادفة ان يكون ذلك اليـوم هو اليوم الذى حدد لرحيـل السـيدة ديبيناى عن (لاشيفريت) إلى (باريس) ، لكى تستكمل استعدادها النهائى لرحلتهـا . ولقـد سافرت فى الصباح ـ لحسن الحظ ـ فانفسح امامى الوقت بعد رحيلها ، كى اذهب فأتناول الغداء مع اخت زوجها . وكنت أحمل رسالة « سان ـ لامبير » فى جيبى ، فرحت اقرؤها مرارا اثناء سيرى ، وإذا بها بمثابة درع وقائى من ضـعفى . وعاهدت نفسى ـ

وصنت عهدى هـذا ـ على الا ارى فى السيدة دوديتو سوى صديقة لى ، وعشيقة صديق لى !

وقضيت معها اربع ساعات او خمسا ، فى خلوة ناعمة ، وادعة ، مستحبة للغاية.. حتى بالنسبة لنوبات الحمى اللاهبة التى كنت اكتوى بها فى قربها حتى ذاك الحين !.. ولما كانت تعلم عن يقين ان قلبى لم يتحول ، فقد أدركت الجهـود التى رحت ابذلهـا لأسـيطر على نفسى ، فازدادت تقديرا لى ، وسرنى ان رايت أن صداقتها لى لم تخب او تفتر . ولقد انبأتنى بقرب عودة « سان ـ لامبير » ، الذى لم يعد فى صحة تمكنه من احتمال عناء الحرب ، برغم انه كان قد شفى تقريبـا من مرضه ، ومن ثم فقد راى أن يترك الخـدمة العسكرية ، لكى يعيش معها فى سلام . ورحنا نرسم خطة بديعة ، لصـحبة وثيقة تضم ثلاثتنا . وقد كان لنا أن نأمل أن يؤدى تنفيذ هذه الخطة إلى نتائج باقية ، إذ رأينا أنها كانت تقوم على أساس من جميع المشاعر التى تربط بين القلوب المستقيمة ، الصالحة ، الحساسة .. وكنا نجمع فى نفوسـنا الثلاث من المواهب والمعرفة ، ما لا يدع لنـا حاجـة إلى اى غـريب عنـا .. فواحسرتاه !.. لم اكن ـ وانا استسلم للرجاء فى حياة بمثل هذه العذوبة ـ لأفكر قط فيما كان يخبئه لى المستقبل !

وما لبثنا ان تحدثنا فى موقفى الراهن إزاء السيدة ديبيناى ، فاطلعتها على رسالة ديدرو ، وعلى ردى ، وفصلت لها كل ما جرى فى هذا الشأن ، وأفضيت إليها بعزمى على ان افارق (ليرميتاج) ، فعارضته بشدة ، وبحجج ذات اثر غلاب على

قلبى . واوضحت لى كم انها كانت تتمنى لو اننى قمت بالرحلة إلى (جنيف) ، فقد تنبأت بانها لن تلبث أن تقحم فى هــذا الرفض الذى صدر منى ، وأن رسالة « ديدرو » تكاد تعلن هذا مقدما . بيد انها لم تتشبث بهــذه المسألة ، إذ كانت تعلم قوة الدواعى والأسباب التى حملتنى على الرفض ، كما كنت اعلمها تماما . ولكنها استحلفتنى ان اتفادى كل ضجة ، مهما يكن الثمن الذى يكبدنيــه ذلك ، وأن الطف من آثــار رفضى بحجج مقبولة تبدد اى شك ظالم بأن لها يدا فى الأمر . وقلت لها إن المهمة التى تفرضها على ، لم تكن بالبسيطة الهينة ، غير اننى قد آليت على نفسى ان اكفر عن أخطائى ، وأن اقــدم سمعتها على سمعتى ، فى كل ما يسمح لى الشرف باحتماله . وان يلبث أن يتجلى ما إذا كنت قد وفيت بهذا التعهد .

وبوسعى ان اقسم بأن هواى التعس وإن لم يفقد شيئا من عنفوانه ، إلا اننى لم أشغف يوما بصوفى الحبيبة كمــا كنت مشغوفا فى ذلك اليوم بيد أن رسالة « ســان ـــ لامبير » ، وشعورى بالواجب ، ونفورى من الخيانة ، تركت اثرا طاغيا على نفسى طيلة هذا اللقاء ، حتى أن شهواتى فارقتنى وخلفتنى معها فى سلام ، بل حتى اننى لم أجد ما يغرينى على أن اقبل يدها !.. فلما حان الفراق ، قبلتنى بمرآى من خدامهــا . وكانت هذه القبلة ـــ التى خالفت ما كنت استرقه منها أحيانا ، تحت الأشجار ـــ برهانا اكد لى أننى قد غدوت مسيطرا على نفسى . واكاد أوقن بانه لو اتيح لقلبى الوقت لكى يعزز نفسه فى هدوء لكانت ثلاثة اشهر اكثر من الكفاية لشفائه تماما !

* * *

وهنــا انتهت علاقاتى الشخصية بالســيدة دوديتو .. العلاقات التى يستطيع اى امرىء أن يحكم عليها من المظاهر ، وفقا لطبيعة فؤاده . وإن كان من المحتمل ان الوجــد الذى أذكته فى قلبى هذه المرأة الرقيقة ، هو اقوى وجد شعر به اى رجل على الاطلاق ، وسيبقى دائما ممجدا مكرما لدى السماء ولدينا ، بفضل التضحيات الفذة ، والأليمة ، التى قدمناها ـــ كلانا ـــ فى سبيل الواجب، والشرف ، والحب ، والصداقة !.. لقد كان كل منا يكبر الآخر إكبارا اسمى من أن يسمح لنا بأن نخزى نفسينا او نستذلهما !.. وكان لابد لنا من أن نغدو غير جديرين باى تقدير او احترام البتة ، إذا شــئنا أن ننزل عن اى من هذه القيم العليا .. بل ان احتدام مشاعرنا ـــ الذى كان كفيلا بأن يجعلنا آثمين ـــ كان هو الذى حــال بيننا وبين ان نغدو كذلك !

* * *

وهكذا ودعت هاتين المرأتين معا ، فى يوم واحد ، بعــد صداقة طويلة لإحداهما ، وحب عميق للأخرى .. ودعتهما ، وقد قدر لى الا ارى واحــدة منهما بعد ذلك قط ، بقية حياتى .. والا ارى الثــانية إلا مرتين فحسب ، وفى مناســبتين سأوردهما فيما بعد .

ووجدتنى بعد رحيلهما فى حيرة بالغة إزاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة ، الملحة ، المتناقضــة ، التى ترتبت على حماقتى وعدم حكمتى . ولو اننى كنت فى وضعى العــادى ، بعد اقتراح تلك الرحلة إلى (جنيف) ورفضى إياها ، لمــا كان

على سوى أن أمكث قريرا مطمئنا ، ولما كان ثمة ما يقال ، بعد الذى قيل بهذا الصدد . ولكننى بغبائى جعلت منه مسألة لم يكن من الميسور أن تبقى على وضعها ، ولم أكن أملك أن أتفادى أى اضطرار إلى تفسير مسلكى بشأنها ، إلا بمبارحة (ليرميتاج) .. وهو الأمر الذى وعدت السيدة دوديتو بألا أفعله .. ولو لفترة من الزمن ، على الأقل . فضلا عن أنها كانت قد استحلفتنى أن أبرز رفضى لدى أصدقائى المزعومين ، بحيث لا تقحم هى فى هذا الرفض . ومع ذلك فإننى لم أكن أملك أن أعلن السبب الحقيقى دون مساس بالسيدة ديبيناى ، التى كنت مدينا لها ببعض العرفان — دون أدنى شك — بعد كل الذى فعلته من أجلى .

وإذ تدبرت كل هذا مليا ، وجدتنى أواجه اختيارا عسيرا ، ولكنه لازم ، لا مفر منه .. ذلك هو أن أغض من قدر السيدة ديبيناى ، أو قدر السيدة دوديتو ، أو قدر نفسى . واخترت الوضع الأخير .. واخترته بشمم ، وعن طيب خاطر ، ودون تذمر ، بل وفى كرم كفيل بأن يمحو الذنوب التى انحدرت بى إلى هذا الدرك . ولقد أدت هذه التضحية — التى يحتمل أن يكون أعدائى قد توقعوها ، والتى عرفوا كيف يستغلونها — إلى القضاء على سمعتى ، وجردتنى — بفضل جهودهم — من تقدير الجمهور إياى ، ولكنها ردت إلى تقديرى نفسى ، وسرت عنى فى محنى وضائقاتى ! وليست هذه هى المرة الأخيرة ، التى أقدم فيها على تضحيات مماثلة — كما سيتجلى فيما بعد — ولا هى آخر مرة يستغلون فيها التضحية للنيل منى !

وكان «جريم» هو الوحيد الذى بدا أنه لم يشترك فى هذه المسألة ، وقد رأيت أن أتوجه إليه . فكتبت إليه رسالة طويلة، أوضحت فيها سخف الرغبة فى النظر إلى اشتراكى فى رحلة (جنيف) كواجب مفروض على ، وعدم جدواها ، وكيف أننى كنت خليقا بأن أكون مصدر متاعب للسيدة ديبيناى خلالها ، والمضايقات التى كان من المحتمل أن تترتب عليها . ولم أستطع أن أقاوم الإغراء الذى راودنى نحو إطلاعه — فى هذه الرسالة — على أننى كنت على علم بسبب الرحلة ، وذكرت أنه كان من بواعث عجبى أن يزعم أحد أن الواجب كان يدعونى إلى القيام بهذه الرحلة ، فى الوقت الذى أعفى هو فيه منها ، بل ولم يذكر اسمه بصددها .

هذا الخطاب الذى عجزت فيه عن أن أذكر حججى بجلاء ، ومن ثم فقد اضطررت إلى المداورة والمراوغة .. هذا الخطاب كان كفيلا بأن يظهرنى للرأى العام بمظهر الموغل فى الذنوب ، بيد أنه كان نموذجا للرزانة والحكمة لأولئك الذين كانوا على شاكلة « جريم » ملمين بالحقائق التى لم أذكرها ، والتى كانت تبرر مسلكى أكمل تبرير . بل إننى لم أحجم عن أن أورد زعما كان فى غير صالحى أكثر مما كان فى صالحى ، وذلك بأن نسبت رأى « ديدرو » إلى أصدقائى الآخرين ، لأوحى بأن السيدة دوديتو كانت تعتنق نفس الرأى — وهو الواقع فعلا — وإن تحاشيت أن أذكر أنها قد عدلت عن رأيها هذا أمام حججى . وما كنت لأستطيع أن أدفع عنها شبهة التواطؤ معى ، بأفضل من أن أبدو — فى تلك المناسبة — على استياء منها . واختتم هذا الخطاب بعرض الثقة كان كفيلا بأن يحرك

عواطف أى إنسان آخر .. فبينمـــا ناشدت جريم أن يتأمل حججى جيدا ، وأن ينبئنى — بعد ذلك — برأيه ، أوحيت إليه أننى سآخذ بهذا الرأى ، مهمـــا يكن . وقد كان هذا عين ما انتويت — فى الواقع — حتى لو أنه أشار بوجوب سفرى . ذلك لأنه لمـــا كان السيد ديبيناى قد اضطلع بعبء مرافقـــة زوجته ، فإن مرافقتى إياها كانت خليقـــة بأن تتخذ مظهـــرا مخالفا لما كانت ستتخذه من قبل .. إذ كنت إذ ذاك قد سئلت أن أقوم بهذا الواجب ، ولم يكن للسيد ديبيناى أى ذكر ، إلا بعد أن رفضت !

***

وتأخر رد « جريم » بعض الوقت ، فلما جاء ، إذا به رد غريب ، أنقله هنا (الملف أ — رقم ٥٩) :

« لقد أرجىء رحيل السيدة ديبيناى ، فإن ابنها مريض ، وقد اضطرت إلى الانتظار إلى أن يعاق . سأفكر فى خطابك ، فامكث هادئا فى (ليرميتاج) . وسأطلعك على رأيى فى حينه . ولما كان من المحقق أنها لن ترحل قبل بضعة أيام ، فليس ثمة داع للعجلة . وفى هذه الأثناء ، فى وسعك أن تعرض عليهـــا مرافقتك إياها ، إذا رأيت ذلك مناسبا ، وإن كان يلوح لى أن هذا لن يغير من الأمر ، ذلك لأننى لا أرى أى شك — وأنا لا أقل عنك علما بوضعك — فى أنها ستقابل عرضك بما ينبغى . ويبدو لى أن كل ما يمكن كســـبه بذلك ، هو أنك ستستطيع أن تقول لأولئك الذين يهيبون بك أن ترحل ، أنك إذا لم ترحل، فلن يكون ذلك راجعا إلى تقصير منك فى عرض خدماتك .

« وفيما عدا هذا ، لا أستطيع أن أفهم السر فى أنك ترى أن من الضرورة اللازمة أن يكون الفيلسوف هو البوق الذى ينقل إليك صوت الناس أجمعين ، ولا السر فى أنك تتصور أن كل أصدقائك يرون ضرورة سفرك، لمجرد أنه نصحك بالسفر! .. ولو أنك كتبت إلى السيدة ديبيناى ، فإن ردها قد ينفعك فى الرد على هـــؤلاء الأصـــدقاء ، مادمت تقيم كل هـــذا الوزن للإجابة عليهم !

« وداعا .. تحياتى للسيدة لوفاسير ولكريمنيل » (١) .

وبهت دهشـــة إذ قرأت هـــذا الخطاب ، ورحت أبحث فى قلق عما قد يكون وراء معناه الظاهـــرى ، ولكن بحثى ذهب سدى . فيـــا للعجب !.. أبدلا من أن يرد على رســـالتى ببساطة ، يستمهلنى كى يفكر فيهـــا ، وكأنمـــا الوقت الذى استغرقه لم يكن كافيا ؟!.. بل إنه ليطلعنى على الموقف المعلق الذى يرغب فى أن يستبقينى فيـــه ، وكأنه يفكر فى مشـــكلة عويصـــة مستعصية الحل ، أو كأنه كان يرى أن يحرمنى كل وسيلة للوصول إلى معرفة إحساسه ، إلى أن تحين اللحظة التى يراها للكشف عن هذا الاحساس . فما الذى يعنيه هذا الاحتياط ، وهذا الإرجاء ، وهذا التكتم ، إذن ؟.. أفعلى هذا المنوال يرد المرء على الثقة ؟.. أفيبدو هذا تصرفا مستقيما ، شريفا ؟.. عبثا بحثت عن تأويل موات يبرر هذا التصرف ، فإننى لم أجد !

---

(١) أطلق « جريم » هـــذا اللقب على « تيريز » . ولمعرفة السبب يحسن الرجوع الى هامش صفحة ١٢٤ (٥٧٨) من الجزء الثالث .



ومهما تكن نيته ، فان مركزه كان يجعل تحقيقها سهلا عليه، إذا كانت موجهة ضدى .. فى حين انه كان من المستحيل على ان أضع اية عقبة فى طريقه . فلقد كان ذا حظوة فى دار امير كبير ، وكان كثير الأصدقاء فى المجتمع ، وكان بوسعه — كنجم لامع ، مسموع الكلمة فى الأوساط التى كنا معروفين لديهما معا — ان ينفذ غاياته وفق هواه ، بدهائه المألوف .. فى حين اننى — وحيدا فى (ليرميتاج) ، بعيدا عن الجميع ، بدون ناصح، وبلا اتصال بالعالم الخارجى — لم أكن أملك أن افعل شيئا ، اللهم إلا ان انتظر ، وأمكث صامتا . وكان كل ما فعلته ، هو أن كتبت إلى السيدة ديبيناى — بصدد مرض ابنها — خطابا مهذبا بقدر ما استطعت ، دون أن أنساق فيه إلى شرك عرض استعدادى لمرافقتها فى رحلتها .

وبعد انتظار طويل ، فى القلق الشديد الوطأة الذى القانى فيه هذا الرجل الفظيع ، سمعت — بعد ثمانية أيام أو عشرة — أن السيدة ديبيناى قد سافرت . وتلقيت منه خطابا ثانيا ، لم يشتمل على اكثر من سبعة أسطر أو ثمانية ، لم أتم قراءتها حتى آخرها ... إذ انها أعلنت قطيعة بيننا ، ولكن فى عبارات لا يمليها سوى اشد الوان الحقد استعارا .. عبارات بدت سخيفة حمقاء ، لفرط تلهفه على أن يجعلها جارحة . فلقد حرم على أن اظهر فى محضره ، وكأنه يحرم على دخول اقطاعياته . ولم يكن ينقص خطابه ، لكى يبدو مضحكا ، سوى ان يقرأ فى هدوء وبأعصاب باردة . وبدون ان انقل صورة

منه (١) ، بل وبدون أن أقرأه حتى نهايته ، رددته إليه فى الحال ، مع التعقيب التالى :

« إننى آبى عادة أن أنساق لشكوكى الصائبة . ولهذا! تأخرت كثيرا فى ان أعرفك على حقيقتك .

« هاك إذن الخطاب الذى استبحت الوقت للتفكير فيه ، فاننى أرده إليك ، لأنه ليس لى . وفى وسعك أن تعرض خطابى على الملأ كله ، وأن تحقد على علانية وجهارا ، فهذا بهتان فى غير صالحك ! » .

وكان السماح له بعرض خطابى السابق ، تعقيبا على فقرة وردت فى رسالته ، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذى لجأ إليه فى هذه القضية بأسرها .

فلقد ذكرت ان خطابى كان كفيلا بأن يلقى على بعض التثريب،

---

(١) ورد هذا الخطاب فى مذكرات السيدة ديبيناى ، ولم يكن مؤلفا من سبعة اسطر او ثمانية ، بل انه استغرق صفحة ونصف صفحة من الكتاب . ويلاحظ ان ذكر القطيعة لم يرد الا فى آخره ، فى حين أن « روسو » يذكر انه لم يقرأه حتى نهايته . على انه ذكر للسيدة دوديتو — فى رسالة بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٥٧ — انه تلقى من « جريم » خطابا اثار اشمئزازه ، حتى انه رده اليه « خشية قراءته مرة ثانية » .. وهناك أحد احتمالين ، اما أن يكون « روسو » قد بالغ فى وصفه للخطاب ، واما أن ما نشر فى مذكرات السيدة ديبيناى كان خطابا أعد لتبرير مسلك « جريم » ، وليس الخطاب الاصلى .

فى انظار أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور . وقد تبين « جريم » هذا باغتباط ، ولكن كيف كان بوسعه ان يستغله دون أن يكشف موقفه ؟.. ذلك لأنه كان معرضا – إذا ما عرض خطابى على أحد – لأن يتهم بإساءة استغلال ثقة صديقه .

ولكى يخرج من هذا الحرج ، خطر له ان يقطع الصلة معى، بأشد الطرق استثارة لشعورى ، وإيحاء لى بأنه قد اولانى صنيعا ، إذ لم يطلع أحدا على خطابى . وكان من المؤكد اننى – فى سورة الغضب – خليق بأن أرفض أمانته هذه ، فاسمح له بأن يعرض خطابى على الدنيا بأسرها .. وهذا عين ما كان يبتغيه تماما ، وقد سار كل شيء وفقا لما دبر . ولقد اذاع الخطاب فى باريس كلها ، مع تعليقات من عنده ، لم تكن – مع ذلك – موفقة بالدرجة التى كان يرجوها. فقد رؤى ان سماحى له بأن يعرض خطابى – الذى عرف كيف ينتزعه منى – لم يكن ليعفيه من اللوم ، لما اظهره من تسرع فى استغلال كلمتى للعمل على إيذائى . واخذ الناس يتساءلون باستمرار عن اية ذنوب ارتكبتها نحوه شخصيا ، تبرر كل هذا الحقد الأهوج . ثم انتهوا – أخيرا – إلى انه إذا كانت لى اخطاء تضطره إلى القطيعة ، فان للصداقة – ولو فصمت – حقوقا كان لزاما عليه ان يحترمها !

على أن باريس متقلبة ، لسوء الحظ ، فلا تلبث هذه الملاحظات – وليدة وقتها – ان تتوارى فى زوايا النسيان .. إذ ان المنكوب يلقى إهمالا ما دام غائبا ، والمجدود يتغلب ما دام

حاضرا .. وتستمر لعبة الدس والكيد الخبيث ، وتتجدد ، ولا تلبث نتائجها التى تبعث حية – كلما ماتت – ان تمحو كل ما سبقها !

* * *

على هذا النحو ، اماط هذا الرجل – الذى ظل يخدعنى طويلا – لثامه ، وقد اطمأن إلى انه لم يعد بحاجة إليه ، فى الوضع الذى ساق إليه الأمور . على اننى كففت عن التفكير فى هذا التعس ، بعد ان تخلصت من الخوف من ان اكون ظالما نحوه ، وتركته لضميره . وبعد ثمانية ايام من تسلم ذلك الخطاب، تلقيت من السيدة ديبيناى ردها على خطابى السابق، محررا فى جنيف (الملف ب – رقم ١٠) . وتبينت من اللهجة التى لجأت إليها – للمرة الأولى فى حياتها – ان كلا منهما كان يعول على نجاح تدابيرهما ، وانهما كانا يعملان متفقين ومتعاونين ، وانهما كانا ينظران إلى كرجل ضائع ، لا معين له ولا نصير ، ومن ثم فقد آليا على نفسيهما الا يدخرا جهدا فى سبيل الاستمتاع بسحقى نهائيا !

والواقع ان ظروفى كانت فى اسوأ حال. فلقد رايت اصدقائى يهجروننى ، دون ان اعرف كيف ، ولا لماذا .. فديدرو ، الذى كان يفخر بأنه باق لى ، وباق وحده ، والذى وعدنى منذ ثلاثة اشهر بأن يزورنى ، لم يات قط . وكان الشتاء قد بدأ يفرض اثره محسوسا ، فبدأت معه عللى المألوفة. وكان كيانى – برغم متانة تكوينه – قد ناء تحت تضارب كل هذه العواطف المتناقضة . كنت فى حالة إعياء لم تذر لى طاقة ولا جلدا على

الاحتمال . ولو ان معاملاتى ، بل لو ان تأييدات ديدرو والسيدة دوديتو ، سمحت لى بمبارحه (ليرميتاج) فورا ، فاننى لم اكن أدرى إلى أين اذهب ، ولا كيف أجر نفسى إلى هناك . ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن ، خامد الحراك ، دون ان اقوى على التفكير أو العمل . كان مجـرد التفكير فى ان اتخذ خطوة ، او اكتب رسالة ، او افوه بكلمة ، كفيلا بان يجعلنى ارتجف !

ومع ذلك فاننى لم اقو على ان ادع رسالة السيدة ديبيناى بلا جواب ، وإلا كان ذلك اعترافا باننى كنت استحق المعاملة التى اثقلتنى وصديقها بها . وقررت ان اصارحها بمشاعرى ونواياى ، دون أن ارتاب لحظة فى انها ستبادر إلى إقرارى على هذه المشاعر والنوايا ، بفضـل الشـعور الإنسانى ، والكرم ، والطيبة ، والأحاسيس الطيبة التى خيل إلى اننى اراها لديها !.. وهاك خطابى :

« ليرميتاج : ٢٣ نوفمبر سنة ١٧٥٧

« لو قدر للمرء ان يموت حزنا ، لـما كنت انا الآن على قيد الحياة . ولكننى عقدت عزمى اخيرا . لقد انفصمت عـرى الصداقة بيننا ياسيدتى ، ولكن لهذه التى لم يعد لها بقـاء ، حقوقا اعرف كيف احترمها . فانى لم انس قط افضالك على ، وبوسعك ان تطمئنى من ناحيتى إلى كل عرفان يستطيع ان يدين به امرؤ إلى شخص لم يعد ملزما بأن يحبه وأى تفسير آخر ، لن يكون مجديـا ، وإنى لأركن إلى ضميرى ، ولك ان ترجعى إلى ضميرك .

« لقد كنت أعتزم مغادرة (ليرميتاج) ، وكان من الواجب ان

افعل . ولكن رؤى أن ابقى حتى يحين الربيع ، وما دامت هذه هى رغبة اصدقائى ، فسوف ابقى إلى الربيع ، لو انك وافقت على ذلك » .

وبعد ان كتبت هـذا الخطاب وارسلته ، لم اعد افكر إلا فى البقاء هادئا فى (ليرميتاج) ، وفى العناية بصحتى ، ومحاولة استرداد عافيتى ، واتخاذ التدابير لمغادرة الدار فى الربيع ، دون ما ضجة ، ودون ما إعلان للقطيعة . ولكن هذا لم يكن عين ما اعده السيد جريم ، والسيدة ديبيناى ، كما سيظهر بعد لحظة .

* * *

وحظيت بعد ايام بالزيارة التى أسرف « ديدرو » فى وعوده بأن يؤديهـا لى ، بقدر ما أسرف فى أن يبر بتلك الوعـود . وما كان اداؤها ليجد وقتا اكثر ملاءمة من تلك الآونة . فقـد كان ديدرو اقدم اصدقائى ، وكان الوحيد الذى بقى لى منهم ، ومن ثم ففى الوسع إدراك مدى السرور الذى تولانى إذ رأيته فى هذه الظروف . فلقد كان قلبى مترعا ، فافرغته فى قلبه . واوضحت له كثيرا من الوقائع التى كتمت عنه ، أو التى موهت عليه ، أو زيفت له . وانبأته بما كان يحق لى ان اطلعه عليه ، من كل ما جرى . ولم احاول أن اكتم عنه ما كان هو على علم واف به .. لم احاول ان اكتم عنه ان حبا ، غير موفق — بقدر ما كان أرعن — استغل كأداة للقضاء على ، ولكننى لم ابح قط بأن السيدة « دوديتو » كانت على علم بهذا الحب ، او اننى كاشفتها به يوما ، على الأقل !

وحدثته عن المناورات غير الكريمة التى قامت بهــا السيدة ديبيناى للاستيلاء على الخطابات البريئــة التى كانت اخت زوجها قد كتبتها لى . فلقد رغبت فى ان يعــرف كل هــذه التفصيلات ، من شــماه المراتين اللتين حاولت الســيدة ان تغريهما بذلك . وقد ادلت إليه تيريز بوصف دقيق لكل شىء . ولكن .. ما الذى اصابنى ، فعند ما حان دور الأم ، وسمعتها تعلن وتتشبث بأنها لم تكن على علم بشىء من هذا إطلاقا ؟!.. هكذا كان قولها الذى لم تتحول عنــه البتــة . ولم يكن قــد انقضى بعد اربعة ايام ، مذ رددت على سمعى كل التفصيلات ، التى راحت تناقضها فى وجود صديقى !

ولاح لى مسلكها حاسما ، فشعرت إذ ذاك ، شعورا قويا ، بمدى غفلتى إذ ابقيت امرأة كهذه على مقربة منى . ولم انطلق اكيل لهــا الســباب بل إننى لم اكد اقوى على ان اقول لهــا بضع كلمات اعبر بها عن استهجانى. واحسست بمدى ما كنت ادين به للابنــة التى كانت باستقامتها المنيعة ، ترسم صورة قوية ، تتناقض تماما مع ما ابدت الام من خســة مهينة . على ان رأيى استقر ــ منــذ تلك اللحظة ــ بشان العجوز ، ولم انتظر إلا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه .

ولقد جاءت هــذه اللحظة بأسرع ممــا كنت أتوقع . ففى العاشر من ديسمبر ، تسلمت ردا من السيدة ديبيناى ، هذه محتوياته (الملف « ب » ــ رقم ١١) :

« جنيف : اول ديسمبر سنة ١٧٥٧

« لم اعد املك ــ بعــد ان اتحت لك كل دليل ممكن على

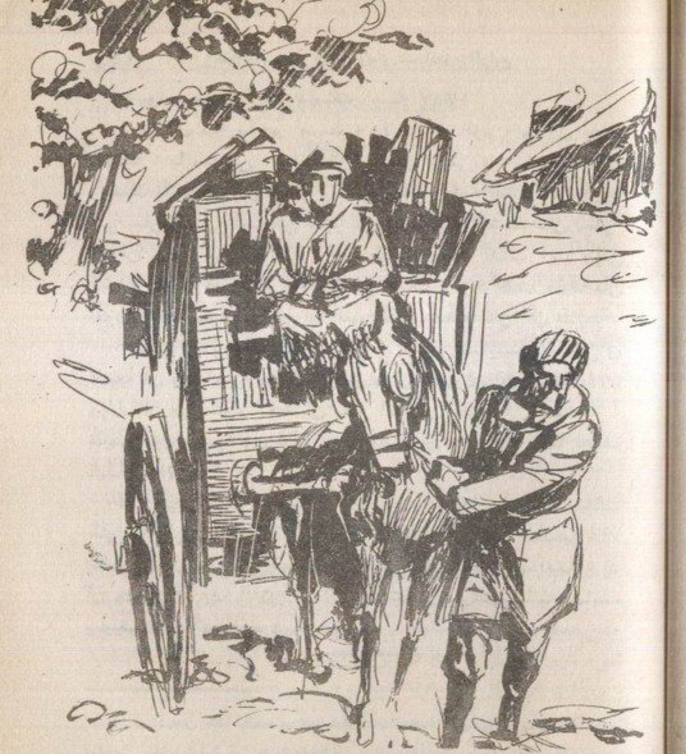
الصداقة والعطف ، خلال عدة سنوات ــ سوى ان ارثى لك ، إنك شقى ، وإنى لأرجو أن يكون ضميرك فى طمأنينة ضميرى ، فقد يكون هذا ضروريا لطمأنينة حياتك !

« وما دمت قد رغبت فى مبارحة (ليرميتاج) ، وكان خليقا بك ان تفعل ، فاننى اعجب من اصدقائك إذ منعوك . اما انا ، فلنمت استشير اصدقائى فيما يتعلق بواجباتى . وليس لدى مزيد اقوله فيما يتعلق بواجباتك » !

كان إنذارا ــ غير متوقع ، ولكنه واضح ــ بالطرد ، فلم يدع لى لحظة واحدة كى افــكر أو اوازن .. كان لابد لى من ان ابرح (ليرميتاج) فورا ، ومهما تكن حال الطقس ، او حالى الصحية ــ حتى لو اضطرنى ذلك إلى ان ابيت فى الغابات ، وعلى الصقيع الذى كان يكسو الأرض ــ ومهما يكن فى وسع السيدة دوديتو ان تقوله أو تفعله إزاء ذلك . إذ اننى لم اكن على استعداد لأن اهين نفسى ، بالرغم من اننى كنت على استعداد لأن ارضى هذه السيدة !

* * *

ووجدتنى فى أشد حيرة عرضت لى فى عمرى كله ، ولكننى كنت قد عقدت العزم ، واقسمت على الا ابيت فى (ليرميتاج) فى اليوم الثامن ، مهما يكن الأمر . وعكفت على نقل امتعتى الخاصة ، وقد فضلت ان أدعهــا فى العــراء ، على الا ارد المفاتيح فى اليوم الثامن ، فقد كنت تواقا ــ قبل كل شىء ــ إلى أن افرغ من الأمر ، قبل أن يستطيع احد ان يكتب إلى (جنيف) . وان يتلقى ردا منها .. واوتيت إقداما ما شعرت به من قبل



ونقلت متاعى على عربة ، فى كثير من العناء ، وبنفقات باهظة وبرغم الجليد والصقيع فقد تم انتقالى فى يومين

يوما ، فإذا كل قواى ارتدت إلى .. ردها إلى الشمم والإباء اللذان لم تحسب لهما السيدة ديبيناى حسابا !

وساعد الحظ هذه العزيمة الجريئة ، فإذا السيد « متى » ـ المندوب انقضائى (١) للسيد الأمير « دى كونديه » ـ يسمع بورطتى ، فيعرض على بيتا صغيرا كان يقتنيه فى حديقة داره فى (مون لوى) بمونمورنسى . وقبلت العرض فى تأثر وعرفان . . وتمت الصفقة ، فأسرعت الى شراء بعض أثاث أضمه إلى ما كان عندى ، لآوى إليه مع « تيريز » .. ونقلت متاعى على عربة ، فى كثير من العناء ، وبنفقات باهظة وبرغم الجليد والصقيع ، فقد تم انتقـالى فى يومين .. حتى إذا كان الخامس عشر من ديسمبر ، رددت مفاتيح (أيرميتاج) ، بعـد ان دفعت أجر البستانى ، إذ لم أستطع ان أدفع أجر المسكن !

أما السيدة لوفاسير ، فقد صارحتها بأن عليها ان تفارقنا . وحاولت ابنتها أن تثنينى ، ولكنى أبيت ان الين . وعملت على سفرها إلى (باريس) ، فى عربة البريد ، مع كافة متاعها وما كانت تشترك مع ابنتها فى امتلاكه من أثاث . كما أننى منحتها بعض المال ، وتعهدت بأن أدفع لها نفقات إقامتها لدى أبنائها أو سواهم ، وأن أتكفل بمطالب معيشتهـا بقدر ما يسعنى ، والا أدعها قط فى عوز طالمـا كنت أجد قوتى !

واخيرا ، كتبت إلى السيدة ديبيناى الرسالة التالية ، فى اليوم الذى أعقب غداة وصولى إلى (مون لوى) :

---

(١) المحامى الذى يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة أو الهيئات الادارية .

« مونمورنسى : ١٧ ديسمبر سنة ١٧٥٧

« ما كان ثمة ما هو أبسط ، ولا ما هو ألزم ، من أن أخلى منزلك ، يا سيدتى ، ما دمت لا تقرين بقائى فيه . وبناء على رفضك الإذن لى بأن أمكث فى (ليرميتاج) بقية الشتاء ، بادرت إلى مبارحته فى الخامس عشر من ديسمبر . لقد كان مقدرا لى أن أدخله بالرغم منى ، وأن أخرج منه كذلك !.. وإنى لأشكر لك الإقامة التى أتحتها لى هناك ، وقد كنت خليقا بأن أكون أكثر شكرا لك، لو أن الثمن الذى دفعته كان أقل فداحة.

« هذا ، وإنك لعلى صواب إذ ترينني شقيا ، فليس فى الدنيا من يعلم خيرا منك، إلى أى مدى يجب أن أكون كذلك!.. وإذا كان من سوء الحظ أن يفتر المرء فى اختيار أصدقائه ، فليس أقل قسوة من ذلك ، أن يضار من جراء خطأ لطيف كهذا ! »(١)

هذه هى القصة الأمينة لإقامتى فى (ليرميتاج) ، وللأسباب التى اضطرتنى إلى مغادرته . وما كنت أملك أن أقتضب هذه القصة ، بل كان من المهم أن أعرضها بأعظم قدر من الدقة ، إذ أن حياتى فى هذه الفترة ، كانت ذات أثر ـ على ما بعدها ـ سيبقى إلى آخر يوم فى حياتى !

---

(١) ورد نص هذا الخطاب فى مذكرات السيدة ديبيناى ، متضمنا ـ فى نهايته ـ هذه العبارة : « لقد تقاضى البستانى أجره حتى أول يناير » . ولم ترد هذه العبارة فى أية طبعة من « الاعترافات » ، والظاهر أن « روسو » أغفلها خطأ ، فى حين أن رد السيدة ديبيناى لا يفهم بدونها .

الكراسة العاشرة

سنة ١٧٥٨

لم تلبث الطاقة غير العاديه ـ التى أمدنى بها هياج عابر ، كى أبرح (ليرميتاج) ـ أن فارقتنى بمجرد أن صرت خارج هذا البيت . فما أن استقر بى المقام فى المسكن الجديد ، حتى عاودتنى نوبات شديدة ، متتابعة ، من احتباس البول ، امتزجت بالمضايقات الجديدة التى ترتبت على هبوط فى القلب، كان يعذبنى منذ أمد ، دون أن أعلم أنه كان هبوطا !.. وسرعان ما غدوت فريسة لنوبات أشد قسوة ، فجاء الطبيب « ثييرى » ـ صديقى القديم ـ ليعودنى ، وبصرنى بحالى . وتجمعت حولى المسابر ، والمجسات ، والضمادات ، وكافة المعدات التى تستلزمها علل الشيخوخة ، ما جعلنى أشعر ، شعورا قاسيا ، بأن المرء لا يستطيع أن يحتفظ بشباب القلب ـ دون ما عناء ـ إذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب!

ولم يردنى الفصل الجميل (الربيع) إلى عافيتى ، فقضيت عام ١٧٥٨ فى حال من الوهن ، أوحت إلى بأننى كنت مشرفا على نهاية حياتى العملية . بل إننى أبصرت النهاية تقترب فى شىء من التعجل . وإذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة ، وافترقت عن كل من كانوا يحببون الحياة إلى ، فاننى لم أعد أرى فى هذه الحياة ما يجعلها مستحبة ، ولم أعد أبصر فيها سوى شرور ونوائب كانت تحول بينى وبين كل المتع الذاتية. ولكم . كنت أتوق إلى اللحظة التى أنطلق فيها متحررا ، بعيدا عن منال أعدائى !

ولكن .. لنعد إلى سياق الحوادث ثانية !

* * *

بدا أن مقامى فى (مونمورنسى) قد ساء السيدة ديبيناى ، ولعلها لم تكن تتوقعه . فان أساى ، وقسوة ذلك الفصل من السنة ، والوحدة المنبوذة التى ألفيتنى فيها .. كل هذه جعلتها وجريم يعتقدان أن بوسعهما ـ إذا واصلا دفعى إلى أقصى حد ـ أن يضطرانى إلى أن أصرخ طالبا النجدة ، وأن يهويا بى إلى آخر درك فى الهوان ، بغية أن أبقى فى المأوى الذى كانت الكرامة تتطلب منى أن أفارقه . ولقد بدلت مسكنى فجأة ، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفى لأن يتوقعا هذه الضربة ، ومن ثم فلم يبق لهما من خيار ، سوى أن يضاعفا الاندفاع فى المغامرة ، أو أن ينفضا أيديهما منها .. وبالتالى ، أن يقضيا على قضاء مبرما ، أو أن يستردانى !

واتخذ « جريم » الرأى الأول ، ولكنى أعتقد أن السيدة ديبيناى كانت تفضل الثانى ، أو أن هذا هو ما ملت إلى الأخذ به ، على ضوء ردها على خطابى الأخير ، إذ خففت كثيرا من اللهجة التى اتخذتها فى رسائلها السابقة . ولاحت كأنها تفتح الباب للصلح . ولقد كان تأخر هذا الخطاب ـ الذى اضطررت إلى انتظاره شهرا كاملا ـ دليلا كافيا على الحيرة التى ألفت نفسها فيها ـ وهى تحاول أن تسبغ عليه أسلوبا ملائما ـ وعلى الخواطر والهواجس التى سبقته . فما كان فى وسعها أن تمضى فيه إلى أبعد مما مضت ، دون أن تكشف نفسها . ولكن المرء لا يجد ـ بعد خطاباتها السابقة ، وبعد خروجى

المباغت من دارها ـ مدعاة للعجب من العناية التى بذلتها فى ذلك الخطاب ، ومن حرصها على ألا تدع كلمة جافية واحدة تتسلل إليه . وإنى لأنقله بأكمله ، ليتسنى الحكم على ضوئه (الملف ب ـ رقم ٢٣) :

« جنيف : ١٧ يناير سنة ١٧٥٨

« لم أتسلم خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر ، سوى بالأمس يا سيدى . فقد أرسل إلى فى حقيبة ملأى بأشياء مختلفة ، ظلت طيلة هذه المدة فى الطريق . ولن أرد إلا عن العبارة الأخيرة ، أما الخطاب فلست أفهمه تماما .. وإذا كنا بصدد تبادل الإيضاح ، فانى أوثر أن أحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم !

« وأعود إلى العبارة الأخيرة .. فلعلك تذكر يا سيدى أننا اتفقنا على أن يتلقى بستانى (ليرميتاج) أجره عن طريقك ، رغبة فى إشعاره بأنه موكول إليك ، ولتفادى مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة ، الوقحة ، التى صدرت من سلفه . والدليل على ذلك أن أجره عن الربع الأول من السنة أسلم إليك ، وأننى اتفقت وإياك ـ قبيل رحيلى ببضعة أيام ـ على أن تتقاضى ما سبق أن دفعت له . وإنى لأدرك أنك أثرت خلافنا بشأن هذا ـ فى البداية ـ ولكنى كنت قد رجوتك أن تؤدى تلك المدفوعات سلفا ، فكان من أبسط الأمور أن أردها إليك ، وقد اتفقنا على ذلك . ولكن « كاهوية » أنبأنى بأنك رفضت قبول هذه النقود . ولا بد أن ثمة لبسا فى الأمر . ولقد أمرت

بان تؤدى إليك ، من جديد ، ولست ارى مبررا لرغبتك فى ان تدفع أجر بستانى فى خدمتى ، بالرغم من اتفاقنا ، وبالرغم من ان هذا الأجر يرجع إلى فترة سبقت سكناك (ايرميتاج).

« لذلك فانى واثقة يا سيدى ، من أنك تتذكر كل هذا الذى تشرفت بقوله لك ، لن تأبى أن تسترد النقود التى تكرمت بدفعها عنى » .

ولم اشأ ـ بعد كل الذى جرى ـ ان اطمئن إلى السيدة ديبيناى او اثق بها ، ولا رغبت البتة فى ان اجدد صلاتى بها . ومن ثم فاننى لم ارد على الخطاب إطلاقا ، فانتهت مكاتباتنا عند هذا الحد(١) . وإذ تبينت عزمى ، حذت حذوى ، وانغمست فى خطط جريم وعصبة دولباخ ، وضمت جهودها إلى جهودهم للقضاء على . وبينما كان هؤلاء يعملون فى (باريس) ، راحت هى تعمل فى (جنيف) . وقد انضم إليها جريم هناك ، بعد ذلك ، فأتم ما كانت قد بدأته. ولقد ساعدهما « ترونشان » ـ الذى استطاعا أن يكسباه فى صفهما ـ بكل قواه ، وصار اعنف من راحوا يضطهدوننى ، دون أن يكون لديه ـ ولا لدى جريم ـ ما يؤاخذانى عليه ، . وراح ثلاثتهم

(١) تكذب مذكرات السيدة ديبيناى هذا القول ، فقد ورد فيها رد من « روسو » ، وصفته السيدة بانه « اكثر قحة من جميع خطاباته الأخرى » . ويبدو ان « روسو » نسى ذلك ، اذ انه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة .

يعملون معا ، فبذروا فى (جنيف) ما شوهد نباته يترعرع فى باريس ، بعد ذلك بأربع سنوات .

* * *

وكان الأمر اكثر مشقة عليهم فى (باريس) ، حيث كنت معروفا ، وحيث كانت القلوب اقل ميلا للبغضاء ، فهى لذلك لاتتلقى الإيحاءات بسهولة . ولكى يوجهوا ضرباتهم بمزيد من المهارة والحيلة ، شرعوا فى ترويج زعمهم بأننى كنت الأسبق إلى التحول عنهم . (انظر خطاب ديلير ـ الملف ب ، رقم ٣). ومن هنا ، راحوا ـ وهم يتظاهرون بانهم لا يزالون اصدقاء لى ـ يبذرون بذور الاتهامات الخبيثة ، على شكل شكايات من الأخطاء والمظالم التى حاقت بهم على يدى صديقهم . ولقد ادى هذا إلى ان مستمعيهم تخلوا عن حذرهم ، فاصبحوا اكثر ميلا إلى الإصغاء إلى لومهم . وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود فى تكتم وحذر ، وقد كانت ـ لعين هذا السبب ـ اشد فعلا بالنفوس. وكنت اعلم انهم وصمونى بأبشع الفظائع ، دون ان يستطيعوا قط أن يعرفوا ـ فيما بينهم ـ مم كانت هذه الفظائع تتألف !.. كل الذى استطعت أن أخرج به من الشائعات العامة ، هو أن هذه الفظائع انحصرت فى اربعة ذنوب جوهرية : (اولا) اعتكافى فى الريف ، و (ثانيا) حبى لمدام دوديتو ، و (ثالثا) رفضى مرافقة السيدة ديبيناى إلى (جنيف) ، و (رابعا) نزوحى عن ليرميتاج . وإذا كانوا قد اضافوا سخامات اخرى ، فلا بد انهم اتخذوا ابلغ حيطة ، حتى انه غدا من المستحيل على تماما ان اعلم موضوعها .

وإلى هذه الفترة بالذات ، اعتقد أن بوسعى أن أرجع تاريخ تكوين حملة منظمة ، لم يلبث ان انضوى تحت لوائها أولئك الذين تخلوا عنى، بنجاح وتقدم سريعين ، إلى درجة أنها كانت خليقة بأن تبدو رائعة فى نظر من لا يدرى مدى السهولة التى يستطيع بها كل ما يساعد شرور البشر أن يحظى بالتأييد ، ولا بد لى الآن من ان أشرح ، فى أوجز ما يسعنى ، ما هو واضح لنظرى من هذه الحملة الخفية العميقة الأصول .

ذلك أننى احتفظت ببساطة ميولى الأصلية ، حتى بعد ان طبق اسمى آفاق أوروبا ، وغدوت مشهورا . ولقد أدى مقتى القتال لكل ما يسمى حزبا ، وعصبة ، وشيعة ، إلى بقائى حرا ، مستقلا ، دون ما قيود ســوى ميول فؤادى . وكنت وحيدا ، غريبا ، منطويا ، بلا نصير ولا أسرة ، فلم أعتمد إلا على مبادئى وواجباتى ، وسلكت فى جلد طرق الاستقامة ، فما تملقت ولا تزلفت إنسانا على حساب العدالة والحقيقة . وفضلا عن ذلك ، فاننى لذت ــ منذ عامين ــ بالعزلة ، دون ان اتسقط الأنباء ، وبدون أى اتصال بشئون العالم . فما كنت احاط بأى شىء ، ولا كنت أهفو إلى أنبــاء شىء ما .. وكنت أعيش على أربعة فراسخ من (باريس) ، وكأننى ــ بفضل عدم اكتراثى ــ أعيش فى جزيرة (تينيان) ، تفصلنى عن هذه العاصمة بحار !

أما جريم ، وديدرو ، ودولباخ فكانوا ــ على النقيض ــ فى وسط الدوامة ، يعيشون فى مجتمع أرقى الطبقات ، يتقاسمون فيما بينهم جميع آفاق الفــكر تقريبا . فكان العظماء ، وذوو

العقول النابهة ، وأهل الأدب ، والمحامون ، والنساء ينصتون جميعا إليهم ، إذا ما أجمعوا على حديث . ومن السهل تبين النفع الذى يضيفه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع مثل وضعى !.. ومن الصحيح أن ديدرو ودولباخ لم يكونا ــ أو اننى لا اعتقد ، على الأقل ، أنهمــا كانا ــ ممن يدبرون الدسائس البالغة الخبث والشر ، إذ ان واحدا منهما لم يكن ذا خبث وشر ، فى حين ان الآخــر لم يكن ذا دهــاء ومكر (١) .. على أن هــذا السبب بالذات ، هو الذى جعل العصبة وثيقة الترابط . فكان جريم يرسم وحده الخطة فى رأســه ، فلا يطلع الاثنين الآخرين على اكثر مما يراه ضروريا لتمكينهما من المساهمة فى تحقيق تلك الخطة . وكان استعلاؤه عليهما يجعل تعاونهما ميسورا ، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة !

* * *

وبهذه المواهب الفائقة ، عمــد جريم ــ وقد أدرك النفع الذى يستطيع أن يستمده من وضع كل منــا ــ إلى وضــع مشروع لقلب سمعتى رأســا على عقب ، ولإضفاء سـمعة مناقضة لها تماما على اسمى ، دون أن يقحم نفسه .. وذلك بأن يبدأ بإحاطتى بصرح من الغموض والإبهــام ، تعذر على أن اخترق حجبه لألقى النور على مناوراته ، ولأكشف أمره !

---

(١) أضاف « روسو » الى هذه العبارة تعقيبا جاء فيه : « وأصبحت الآن ملكا لهم ، وفقا لاتفاق جديد ، عقد بيننا أخيرا » .



ولقد كان هذا المشروع شاقا ، إذ كان على جريم أن يموه ما فيه من ظلم، فى انظار أولئك الذين كان عليه أن يستعين بهم.. كان عليه أن يغرر بالأمنـاء ، وكان عليـه أن يقصى عنى كل الناس ، فلا يدع لى صديقا واحدا ، صغيرا كان ذلك الصديق أو كبيرا ! فماذا عسـاى أقول ؟.. كان لابد له من ألا يدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ إلى .. ولو أن رجلا كريما واحدا جاءنى ، وقال لى : « إنك تؤدى دور الرجل الفاضل ، ومع ذلك ، فانظر كيف تعامل ، وكيف يحكم القوم على أعمالك .. فماذا لديك من قول ؟ » .. كانت الحقيقة خليقة إذ ذاك بأن تنتصر ، فيبوء جريم بالخذلان !.. ولقد كان يدرك هذا ، ولكنه دنس قلبه ، ولم يقدر الناس حق قدرهم .. إننى لحزين من أجل الكرامة الإنسانية ، التى قدرها بمثل هذه الدقة !

وإذ سار فى هذه الدروب المتوارية تحت الأرض ، كان لابد له من أن يبطىء ، كى يطمئن إلى مواقع قدميه . ومن ثم ظل إثنى عشر عاما وهو يتابع خطته ، ومع ذلك فمـا يزال لديه أشق ما يجب أن يفعله .. ذلك هو أن يغـرر بالرأى العام بأسره !.. إن هناك عيونا ظلت تراقبه عن كثب أقرب مما يظن .. وإنه لخائف من هذا ، فهو لا يجرؤ بعد على أن يكشف مؤامرته فى وضح النهار (١) . ولكنه اهتدى إلى أقل الطرق

---

(١) وهنا أضاف « روسو » التعقيب التالى : « ولقـد اتخذ — منذ كتابة هذا — خطوته الكبرى ، بأكمل نجـاح ، وبأكبر توفيق يجل على الأفهام . وانى لأعتقد أن ترونشان هو الذى أمده بالتشجيع والوسيلة » .

صعوبة ، لكى يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة ، فيقضى هذا السلطان على . وإذ استند على هذه الدعامة ، راح يتقدم وهو أكثر طمأنينة . وأذنـاب السلطان لا يولون الاستقامة والعدل كثير تفكير ، فى العادة .. وهم أقل اكتراثا بالصراحة ، ومن ثم فانه لم يعـد يخشى فطنتـه وأمـانة بعض الخيرين إطلاقا !.. على أنه كان من الضرورى له — بوجه خاص — أن أكون محاطا بظلمات دامسة ، وأن تظل مؤامرته متوارية عن بصرى على الدوام . وكانت حيلته الكبرى ، هى أن يبدو للأنظار أنه كان يحابينى ويعطف على — فى الوقت الذى كان يحط فيه من قدرى ، فى الواقع — وأن يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة !

* * *

ولقـد شعرت بأولى نتـائج هـذه الحملة ، عن طريق الاتهامات المستترة التى راحت عصبة دولباخ تشيعها ، دون أن يتسنى لى أن أعلم — بل ولا أن أخمن — ما كانت تتألف منه هذه الاتهامات . ولقد ذكر لى «ديلير» فى رسائله بأننى رميت ببعض الشناعات .. وذكر لى ديدرو الشىء ذاته ، فى غموض وإبهـام ، فلما حاولت استيضـاح كل منهما ، إذا بكل شىء ينحصر فى الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر .

وشعرت بفتور يسرى تدريجا فى رسائل السيدة دوديتو ، فلم أستطع أن أعزو هذا الفتور إلى « سان — لامبير » الذى ظل يكتب لى بعين الود المعهود ، والذى أخذ يزورنى بعد عودته . كذلك لم أستطع أن ألقى اللوم على نفسى ، إذ أننا كنا

قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر ، ولم يحدث — منذ ذلك
الحين — شيء من ناحيتي ، اللهم إلا رحيلي عن (ليرميتاج) ،
وهو امر شعرت هي نفسها بضرروته . ومن ثم فانني لم اعرف
كيف أؤول هذا الفتور — الذي لم تجهر به وإن احسه قلبي —
فشعرت بقلق شامل . وكنت ادرك انهـا اعتادت ان تداهن
زوجة اخيها وجريم ، نظرا لعلاقتهما بسان — لامبير ، فخشيت
مناوراتهما والاعيبهما . ونكأ هـذا القلق الملتـاع جراحي ،
واحال رسائلي عاصـفة ، حتى انها لم تلبث ان اصـبحت
تعافها !.. كنت ألمح الف شيء قاس ، دون ان اميز شـيئا
بوضوح . كنت في وضع هو ابعد الأوضاع عن ان يطيقه رجل
كان من اليسير ان يتقد خياله .. ولو انني كنت في عزلة تامة ،
ولو إنني كنت لا اعرف شيئا على الاطلاق ، لكنت خليقا بأن
اكون اكثر هدوءا ، ولكن فؤادي كان ما يزال متشبثا بالعواطف
التي اتاحت لأعدائي الف مأخذ ضـدي ، ولم تؤد الأشـعة
الواهنة التي كانت تنفذ إلى عزلتي إلا إلى ان ارى المعميات
التي كان القوم يخفونها عني ، اشد حلكة وسوادا من ذي
قبل !

وكنت خليقا — دون ما شك — بأن اتداعى تحت هذا العذاب
الذي كان اقسى واثقل من ان تحتمله فطرتي الصريحة ، التي
كانت تجعل من المستحيل تماما ان اخفي مشاعري ، وكانت
— في الوقت ذاته — تجعلني خائفا كل الخوف ، من تلك الأشياء
التي كانت تخفى عني. على ان امورا اخرى ، لم تلبث — لحسن
الحظ — ان عرضت لي ، وكانت مشوقة لقلبي بدرجة كافية

لكي تولد تحولا سليما ، نأى به عن تلك الأمـور التي كانت
تشغله ، على الرغم منه !

* * *

وكان « ديدرو » قـد حدثني — اثنـاء زيـارته الأخيرة
لليرميتـاج — عن مقال كتبـه « دالمبير » عن (جنيف) في
« الموسوعة » ، وقال لي إن هذا المقال — الذي اقره بعض
ذوي المكانة العليا من اهـل جنيف — كان يرمي إلى إنشـاء
مسرح في (جنيف) ، وإن الخطوات اللازمة قد اتخذت ، وان
الأمد لن يطول حتى يكون هذا الإنشاء قد تم . ولما كان ديدرو
قد حبذ المشروع ، ولم يداخله شك في نجاحه ، كما كانت لدي
كثير من الأمور التي اردت ان ابحثها معه ، فإنني لم اشأ ان
امضي في جدل حول هذا الموضوع ، ولم اقل شيئا . ولكنني
شعرت باستنكار لكل هذه الدسائس التي كانت تحاك لإفساد
موطني ، فانتظرت بصبر نافذ ظهور الجزء الذي ضم المقال
— من « الموسوعة » — لكي اتبين ما إذا كانت ثمة وسيلة للرد
عليه بطريقة تعرقل هذه الحيلة المشئومة !

وتلقيت الجزء عقب استقراري في (مون — لوي) بوقت
قصير ، فوجدت ان المقال قد كتب بكثير من الدهاء والحذق ،
وانه كان أهلا للقلم الذي سطره . على ان ذلك لم يصرفني عن
الاهتمام بالرد عليه ، وبالرغم من الخور الذي كان يعتريني ،
وبالرغم من شجني وآلامي ، ومن قسوة الطقس ، وما اتسم
به مسكني الجديد — الذي لم يكن مقامي فيه قد استقر تماما —

من عدم توفر أسباب الراحة ، فقد عكفت على العمل بتحمس
قهر كل شىء .

وفى شتاء قاس إلى درجة ليست بالبسيطة ، وفى شهر
فبراير ، وفى الظروف التى وصفتها آنفا ، رحت اقضى ساعتين
من الصباح ، ومثلهما من المساء ، فى شرفة مكشوفة ، عند
طرف الحديقة التى كان بيتى يقوم فيها . وكانت هذه الشرفة
— التى كانت تقع فى نهاية درب محاط بسياج — تطل على وادى
مونمورنسى وبركة الأسماك ، وتكشف لى على البعد ، بقدر
ما كان يسمح لى البصر ، قصر (سان جراسيان) الجليل
المنظر ، برغم بساطة بنيانه .. القصر الذى اعتكف فيه
« كاتبنا » الفاضل .. وفى هذه البقعة — التى كانت فى تلك
الفترة قارسة البرد ، والتى كانت بلا وقاء من الريح
والصقيع ، وبلا اية نار سوى نار قلبى — نظمت ، فى ثلاثة
اسابيع ، خطابى إلى « دالمبير » حول المسارح !

وكان ذلك اول موضوع اكملته — إذ لم اكن قد اتممت سوى
النصف من « جولى » — فوجدت فيه سحر العمل . كانت
الغيرة على الفضيلة هى معبودى حتى ذلك الحين ، ولكن
الحنان والرقة حلا محلها فى روحى ، فى هذه المناسبة !

كانت المظالم التى لم أكن — بالنسبة لها — اكثر من متفرج ،
قد أهاجتنى ، اما التى كنت هدفها فقد احزنتنى ، ولم يكن
ذلك الحزن — المجرد من كل حزن ومرارة — سوى شجن قلب
مفرط الحب والحنان .. قلب اغتر فيمن كان يؤمن بأنهم على

شاكلته ، فاضطر إلى ان ينطوى على نفسه !.. كان قلبى قد
افعم بما حدث لى اخيرا ، وكان ما يزال يهتز بانفعالات عديدة
عنيفة ، فراح يمزج إحساسه بآلامه ، بالأفكار التى تولدت عن
تفكيرى فى الموضوع ، فاذا آثار هذا المزج تنعكس على
ما كتبت . وإذا بى — دون أن افطن — أصف فيه حقيقة
موقفى الواقعى .. رسمت فيه جريم ، والسيدة ديبيناى ،
والسيدة دوديتو ، وسان — لامبير ، ونفسى . وكنت أذرف —
وانا اكتب كل هذا — دموعا عذبة !.. فوالهفتاه !.. أن المرء
ليلمس فى المقال أن الحب — هذا الحب الجبار الذى كنت
احاول أن أشفى منه — لم يكن قد فارق قلبى بعد !.. ولقد
كان يمتزج بكل هذا ، شعور بالاشفاق على نفسى ، إذ شعرت
باننى أموت ، وكنت أؤمن باننى أودع الرأى العام للمرة
الأخيرة !.. وبدلا من ان اخاف الموت ، رحت ارقب اقترابه
بغبطة ، ولكننى كنت أحس بالحسرة ، لأننى كنت افارق أبناء
جلدتى دون أن يكونوا قد شعروا بقيمتى وقدرى .. دون ان
يدروا كم كنت جديرا بان أحظى بالحب منهم ، لو أنهم كانوا
اكثر معرفة بى مما هم !.. وهذه هى الأسباب الدفينة للهجة
الغريبة التى سادت هذا المقال ، والتى تبدو جد مناقضة
للهجة مؤلفى الذى سبقه (١) .

ونقحت المقال واعدت نسخه ، واوشكت أن أدفعه إلى
الطباعة ، وإذا بى أتلقى رسالة من السيدة دوديتو — بعد طول

(١) حديث فى عدم المساواة .

صمت ـ وإذا بهذه الرسالة تغرقنى فى هم جديد ، لعله أقسى ما كنت قد خبرت من هموم ، حتى ذلك الحين . فلقد انبأتنى السيدة فى هذه الرسالة (الملف ب ـ رقم ٣٤) بأن هيامى بها بات معروفا فى باريس بأسرها ، وأننى قد افضيت به إلى قوم اذاعوه ، وأن هذه الضجة قد ترامت إلى اذنى عشيقها ، وكادت تكلفه حياته ، وإنه ـ فى النهاية ـ قد انصفها ، فعاد الوئام بينهما .. ولكنها كانت مضطرة ـ من اجله ، ومن اجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك ـ إلى ان تقطع كل علاقة بى !..واكدت لى أن كلا منهما لن يكف ـ بعد ذلك ـ عن ان يهتم بأمرى ، وأن يدافع عنى أمام الملأ .. وانها ستبعث ـ بين الحين والحين ـ فى طلب إخبارى !

* * *

وهتفت فى نفسى : « حتى انت ياديدرو !.. ايها الصديق غير الجدير بالود ! » . ومع ذلك فإننى لم اكن املك بعد ان ابت فى أمره . إذ كان ضعفى معروفا لدى أناس آخرين ، وكان من المحتمل ان يكونوا قد وشوا به . ولقد طاب لى ان استسلم للشك .. ولكننى لم البث ان وجدتنى عاجزا عن ذلك . إذ ان « سان ـ لامبير » أقدم ـ بعد ذلك بقليل ـ على تصرف يليق بكرم نفسه . فقدر ـ وهو العارف بحقيقة نفسى ـ الحال التى كنت فيها ، وقد غدر بى فريق من أصدقائى ، وهجرنى الباقون ، فاقبل يزورنى بنفسه !.. ولم يكن لديه متسع من الوقت فى المرة الأولى ، فاقبل مرة ثانية . ولكننى لم اكن ـ لسوء الحظ ـ فى البيت ، إذ أننى لم اكن اتوقع مجيئه . ودار

بينه وبين تيريز ـ التى كانت فى البيت ـ حديث استغرق نيفا وساعتين ، قال كل منهما للآخر ـ فى سياقه ـ كثيرا من الأمور ، التى كان من الضرورى لكل منا ان يعلم بها .. ولقد كانت دهشتى حين علمت أن احدا لم يكن يرتاب فى أننى عاشرت السيدة ديبيناى، كما كان جريم يعاشرها فى ذلك الحين، تعادل دهشته حين عرف ان هذا النبأ كاذب !.. فلقد كان « سان ـ لامبير » يحظى من نقمة السيدة بمثل ما كنت احظى !.. وكانت جميع الأضواء التى انبثقت عن هذا الحديث كافية لأن تخنق فى نفسى كل اسى داخلها لفصم عرى الود مع هذه السيدة ، إلى غير رجعة !

ولقد اوضح « سان ـ لامبير » لتيريز ـ فيما يتعلق بالسيدة دوديتو ـ كثيرا من الظروف التى لم تكن معروفة لدى تيريز ، بل ولا لدى السيدة دوديتو نفسها !.. فما كان يعرفها سواى أنا وحدى ، وما افضيت بها إلا إلى ديدرو وحده ، وتحت اسم الصداقة ، فاذا به يختار « سان ـ لامبير » بالذات ، ليبوح له بها !.. وكان هذا الأمر الأخير هو العامل الحاسم لدى ، فعقدت العزم على ان اقاطع ديدرو إلى الأبد ، ولم يعد يشغلنى بصدد ذلك ، سوى تخير الأسلوب الذى احقق به القطيعة . فلقد تبينت ان المقاطعة المتكتمة ، كانت لا تلبث ان تنقلب ضدى ، إذ انها كانت تترك قناع الصداقة مسدلا على وجوه افظع اعدائى !

إن قواعد السلوك الطيب التى قامت فى الدنيا على هذا الأساس ، تبدو كما لو كانت من إملاء روح الخداع والغدر .

فان التظاهر بصداقة امرىء ما ــ عندما تكون هــذه الصداقة قد انتهت ــ لا يعنى سوى الاحتفاظ بوسائل إيذاء ذلك المرء ، بالتمويه على ذوى النفوس الشريفة وخداعهم !.. واسترجعت فى ذهنى أن « مونتسكيو » الجليل ، بادر ــ حين قاطع الأب دى تورنمين ــ إلى إعلان القطيعة مدوية ، إذ قال للنــاس اجمعين: « لا تنصتوا إلى الأب تورنمين ، ولا لى ، إذا تكلم كل منا عن الآخر ، فاننا لم نعــد صديقين ! » . ولقد قوبل هذا المسلك بإعجاب بالغ ، واكبر الناس جميعــا صراحته وكرم نفسه . واعتزمت أن انتهج هذا المسلك مع «ديدرو» ، ولكن ، كيف كان يتسنى لى ان اعلن من معزلى هذه القطيعة المشروعة ، لاسيما إذا شئت أن اتجنب الفضائح ؟.. وقررت ان اضمن مقالى فقـرة من الكتاب المقدس من سفر ابن سيراخ تعبر عن هذه القطيعة ــ بل وعن موضوعها ــ بوضوح كاف ، لكل من كان يعنيه الأمر ، دون أن تعنى شيئا لبقية النــاس . وفوق ذلك ، فإننى عنيت بالا أشير ــ فى المقال ــ إلى ذلك الصديق الذى نبذته ، إلا بالأسلوب الكريم الذى ينبغى على المرء دائما نحو أية صداقة باقية . وفى الوسع تبين ذلك فى المقال ذاته .

* * *

ليس فى هذه الدنيا سوى حظ ، وسوء حظ ، ولا وســط بينهما . ويبدو أن كل عمل ينطوى على شجاعة وجراة ، لابد وأن ينقلب ــ عند الخصومة ــ إلى ذنب وجريمة . ذلك لان المسلك الذى اجتلب لمونتسكيو الإعجاب ، لم يجلب على انا سوى اللوم والتقريع !.. فما ان طبع مقالى وحصلت على

نسخ منه ، حتى ارسلت واحدة إلى « سان ــ لامبير » ، الذى كان قد كتب إلى ــ فى اليوم السابق مباشرة ــ رسالة باسم السيدة دوديتو واسمه ، زخرت بأرق آيات الود (الملف «ب» ــ رقم ٣٧) . وهاكم الخطــاب الذى كتبه لى ، وهو يرد النسخة التى أرسلتها إليه (الملف « ب » ــ رقم ٣٨) :

« أوبون : ١٠ أكتوبر سنة ١٧٥٨

« لم استطع حقــا ــ يا سيدى ــ ان اتقبل الهدية التى ارسلتها إلى . فعند ما بلغت من مقدمتك الفقرة التى ذكرت فيها ديدرو ، واوردت فقرة من « سفر الجامعة » ــ (وقــد اخطأ هنا ، فهى من سفر ابن سيراخ) ــ وقــع الكتاب من يدى . فلقد بدا لى ــ بعد الحديث الذى دار بيننا إبان هــذا الصيف ــ انك كنت مقتنعــا ببراءة ديدرو من المخالفــات المزعومة التى رميته بها .

« ومن الجائز ان يكون قد اخطا فى حقك ، فلست ادرى .. ولكن الذى ادريه ، هو ان هذه الأخطاء لا تعطيك الحق فى ان توجه إليه إهانة علنية . فانت لا تجهــل الاضطهادات التى يعانيها ، وها انتذا تضم صــوت صديق قديم إلى صرخات الحاسدين !.. ولست اكتمك يا سيدى ، مدى ما تثيرنى هذه القســوة الفظيعة !.. إننى لا أعاشر ديدرو ، ولكنى اجله واكرمه ، واشعر بحدة الألم الذى تسببه لرجل لم تأخذ عليه ــ فيما بيننا ، على الأقل ــ ما يستحق اللوم ، اللهم إلا قدرا ضئيلا من الضعف .

« إننا لنختلف كثيرا يا سيدى ، من ناحية المبـدأ ، بحيث لن يتسنى لنا أن نكون على اتفاق يوما . فانس وجودى ، ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك . فاننى لم افعل قط من الخير ـ أو الشر ـ للرجال ، ما يظل فى الأذهان امـدا طويلا . واعاهدك يا سيدى ـ من ناحيتى ـ على ان انسى شخصك ، والا اذكر فى نفسى سوى مواهبك » .

ولم يكن شعورى بالألم، اقل من شعورى بالشمم والغضب للكرامة ، من جراء هذا الخطاب . وفى فورة شقائى ، وقد استرددت عزة نفسى ، رددت عليه بالرسالة التالية :

« مونمورنسى : ١١ اكتوبر سنة ١٧٥٨

« سيدى : ما إن قرات خطابك ، حتى شرفتك بالدهشـة منه . ولقد كنت من الحماقة بحيث تأثرت به ، ولكنى وجدته غير جدير بالرد !

« إننى غير راغب فى مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيدة دوديتو ، وإذا لم يرق لها أن تحتفظ بما لديها منهـا ، ففى وسعها ان تردها إلى، وسأعيد لها نقودها . اما إذا استبقتها ، فلها ان ترسـل ـ فى اى وقت شاءت ـ فى طلب ما بقى من أوراقها ونقودها . وإنى لأرجوها ـ فى الوقت ذاته ـ ان ترد إلى ما يكون لديها من أوراقى .

« ووداعا يا سيدى .. » .

والشجاعة فى المحن ، تلقى الروع فى القلوب الهيـابة ، ولكنها تشرح القلوب الكريمة . ويبدو ان هذه الرسالة قد ردت « سان ـ لامبير » إلى حجاه فندم على ما فعل . ولكنه كان

من الإسراف فى الـكبرياء ، بحيث تعذر عليـه أن يقر بذلك صراحة ، فلاذ بالصمت ، ولعله كان يعد العدة ليجعل الضربة ـ التى وجهها إلى ـ مميتة !.. وإن هى إلا خمسة عشر يوما ، حتى تلقيت من السيد دبيناى الرسالة التالية (الملف « ب » الرسالة رقم ١٠) :

« هذا الخميس : ٢٦

« تلقيت يا سيدى ، الكتاب الذى تكرمت بإرساله ، وإنى لأقرؤه بغبطة بالغة . وهذا هو الاحساس الذى اعتـاد أن يداخلنى دائما ، وانا اقرأ كل المؤلفات التى نفثها قلمك . فتقبل جزيل شكرى . ولقد كنت اود ان اقدمه لك شخصيا ، لو أن شئونى سمحت لى بأن اقيم وقتـا على مقـربة من مقامك ، ولكننى قل أن نزلت بلاشيفريت فى هذا العام .

« إن السيد والسيدة دوبان قادمان لتناول الغداء عندى ، يوم الأحد القادم . كما اتوقع ان يكون بين الحضور السيدان دى سان ـ لامبير ، ودى فرانكويى ، والسـيدة دوديتو . ولسوف يكون من دواعى غبطتى حقا، ان تكون بيننا يا سيدى . إن كل الذين سيكونون فى دارى ، يرغبـون فى وجـودك ، وسوف يغتبطون بأن يشاطرونى متعة قضاء بعض اليوم معك .

« وإنه ليشرفنى ان اكون ، مع اكمل التقدير ... الخ » .

واخذ قلبى يدق بعنف مروع ، من جراء هذا الخطاب . ذلك لأن فكرة الظهور امام السيدة دوديتو ـ بعد ان كنا حديث باريس عاما باكمله ـ جعلتنى ارتجف ، فلا اكاد اجد الجرأة

الكافية على أن أواجه هذا الاختبار . ومع ذلك ، فقد كان سان — لامبير راغبا فى ذلك ، وقد تكلم ديبيناى نيابة عن كل ضيوفه ، ولم يكن بينهم من لا أغتبط بلقائه .. ومن ثم فاننى انتهيت إلى أنى لن أكون — من كافة الاعتبارات — متطفلا ، إذا قبلت دعوة إلى الغداء ، كنت مدعوا إليها من كافة الضيوف. ولهذا فاننى وعدت بالحضور . وكان يوم الأحد سيىء الطقس فأرسل السيد ديبيناى عربته لتقلنى . فذهبت !

***

واثار وصولى عاصفة من المشاعر الطيبة ، فما قدر لى يوما ان أحظى باستقبال يفوق هذا مودة وحفاوة .. حتى ليمكن القول بأن القوم كانوا يشعرون بمدى حاجتى إلى ما يشرح صدرى . ولا تدرى سوى القلوب الفرنسية مثل هذه الألوان من العواطف . على اننى وجدت اناسا اكثر مما كنت أتوقع ، بينهم الكونت دوديتو — الذى لم اكن قد تعرفت عليه قط — واخته السيدة دى بلينفيى ، التى كنت ارجو ان اعفى من مقابلتها . وكانت قد وفدت على (أوبون) مرات عديدة ، فى العام السابق ، وكانت زوجة اخيها تتركها تحرق الإرم غيظا عندما كنا ننطلق فى نزهاتنا الخلوية وحيدين . ومن ثم فقد تولاها نحوى نفور راحت ترضيه — اثناء المأدبة — على هوادة .. فمن الممكن حدسه، إن وجود الكونت دوديتو وسان — لامبير لم يكن مبعث طرب لى، وإن الرجل الذى تتولاه الحيرة والحرج — فى مثل هذه المناسبات — لا يستطيع ان يتألق فيها بسهولة .. أبدا ما عانيت مثل ما عانيت إذ ذاك ، ولا اكفهر محياى كما

اكفهر فى هذه المناسبة ، ولا تعرضت لحملات لم تكن متوقعة كتلك التى تعرضت إليها من هذه السيدة .

وعندما غادرنا المائدة اخيرا، ابتعدت عن هذه المرأة السليطة وسرنى ان رأيت سان — لامبير والسيدة دوديتو يسعيان نحوى فظللنا شطرا من فترة ما بعد الظهر ، نتجاذب الحديث فى مسائل لم تكن ذات بال ، فى الواقع ، ولكنها اتاحت لنا عين الألفة التى كانت بيننا قبل طيشى . ولم يغفل قلبى قط هذا الود ، ولو أن سان — لامبير استطاع أن يطلع على دخيلتى ، لاطمأن إلى ذلك يقينا . وبوسعى ان اقسم انه بالرغم من أن مرأى السيدة دوديتو — عند وصولى — قد اثار ضربات قلبى فى عنف بالغ ، حتى أوشكت ان افقد وعيى ، إلا اننى لم أكد افكر فيها — عندما انصرفت — إذ شغلت عنها بسان — لامبير !

وبالرغم من السخريات الخبيثة — التى صدرت عن السيدة دى بلينفيى — إلا ان هذه المأدبة شرحت صدرى ، فرحت اهنىء نفسى بحرارة على اننى لم ارفض الدعوة . فلقد تبينت هناك ان دسائس جريم وعصبة دولباخ ، لم تشتت أصدقائى القدامى عنى (١) . وليس هذا جل ما تبينت ، بل إن مشاعر السيدة دوديتو وسان — لامبير لم تتحول كما اتوقع .. واستطعت ان افهم — اخيرا — ان البعاد الذى حجب السيدة دوديتو عنى ، كان مرده إلى الغيرة ، اكثر مما

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « ولقد كان هذا ما ظللت أومن به — بسذاجة قلبى — حتى كتابة الاعترافات »

كان إلى نقص فى تقديرها إياى . ولقد وجدت فى هـذا عزاء وتسرية !.. ذلك لأن اطمئنانى إلى اننى لم اكن موضع احتقار لدى أولئك الذين كنت اعتز بهم ، كان يمكننى من ان افرض سيطرتى على قلبى بكثير من القوة والتوفيق . وإذا كنت لم اوفق إلى ان اخمد تماما — فى هـذا القلب — هوى آثمـا ومنحوسا ، فاننى استطعت ، ان اسيطر على هذا الهوى وان ارمضه ، على الاقل ، فلم يدفعنى — منذ ذلك الحين — على ان ارتكب خطأ واحدا . وما تزال أعمال النسخ — التى اغرتنى السيدة دوديتو باستئنافها لحسابها — ومؤلفاتى، التى واصلت إرسالها إليها عند ظهورها .. ما تزال هذه وتلك ، تأتينى منها — بين الحين والحين — برسائل ومذكرات ، قد لا تكون ذات قيمة ، ولكنها باعثة على الرضى .. بل إنها ذهبت إلى ابعد من ذلك — كما سيتبين فيما بعد — وان المسلك المتبادل بين ثلاثتنا ، بعد ان انقطع اتصالنا ، ليقوم مثالا على الطريقة التى يفترق بها اهل الشرف ، عندما يصبح من المستحب الا يلتقوا !

وهناك نفع آخر أفدته من هـذه المأدبة . ذلك هو انهـا صارت حديث باريس ، واتخذت كدليل قاطع يدحض الشائعة التى كان أعدائى قد روجوا لها فى كل مكان ، عن اننى كنت على اشد الخصام مع أولئك الذين حضروها جميعا ، لا سيما السيد ديبيناى بالذات !.. وكنت قـد كتبت له — عنـد مبارحة (ليرميتاج) — رسالة شـكر جد مهذبة ، أجاب عنهـا بأدب مماثل ، ولم تنقطع بيننا المجاملات المتبادلة ، سواء بينى وبينه ، أو بينى وبين السيد « ذى لانيف » — شقيقه — الذى كان يفد

إلى (مونمورنسى) لزيارتى ، ويبعث إلى بصوره . وفيما عدا زوجتى شقيقى السـيدة دوديتو ، لم اكن يوما على علاقة سيئة بأحد من الأسرة .

* * *

ولقد حظى مقالى الموجه إلى « دالمبير » بنجاح عظيم . ولقد كان هذا شأن مؤلفاتى جميعا ، ولكن هذا المقال بالذات ، كان احبها إلى نفسى ، إذ انه نبه الراى العـام إلى عـدم الثقـة بتخرصات عصبة دولبـاخ . فعندما انتقلت إلى (ليرميتاج) ، تنبأوا — باعتدادهم المأثور — باننى لن أستطيع بقاء هناك ، لأكثر من ثلاثة اشهر . حتى إذا راونى امكث هنـاك عشرين شهرا ، ثم اظل — بعد ان اضطررت إلى مبارحته — فى الريف ، راحوا يتشدقون بأن هذا لم يكن سوى مجرد عنـاد محض ، واننى قد ضقت — إلى حد الموت — بعزلتى ، ولكن الغرور والكبرياء كانا يغريان قلبى ، ويجعلاننى اوثر الموت هناك — ضحية العناد — على ان ارجع عن رايى واعود إلى باريس . ولكن رسالتى إلى «دليمبير» جاءت عبقة بانفاس روح وادعة ، فى غير اصطناع . ولو اننى كنت اعانى النكد فى عزلتى ، ابدا هذا ملموسا فى لهجتى ، كما كان يبدو جليا فى جميع ما كنت قد كتبت إبان إقامتى فى باريس .. ولكن هـذه الروح اختفت فى اول مؤلف وضعته فى الريف . وقد كانت هذه الظاهرة برهانا قاطعا لدى القادرين على الملاحظة . إذ راوا — فى مقالى — اننى عدت إلى طبيعتى !

ومع ذلك ، فان هذا المقال — المنعم بالعطف — قد جلب لى

عدوا جديدا فى عالم الادب ، من جراء غفلتى وسـوء طالعى المعهود ! . . ذلك اننى كنت قـد تعـرفت ــ لدى السـيد ديلا بوبلينير ــ على « مارمونتيل » ، ثم توثق هـذا التعارف لدى البـارون . وكان مارمونتيل يتولى ــ إذ ذاك ــ تحرير صحيفة « ميركور دى فرانس » . ولمـا كنت اربأ بنفسى ان ارسل مؤلفاتى إلى اولئك الذين يكتبون للصحف ، ومع ذلك فقد كنت راغبا فى ان أرسل هذا المؤلف بالذات إلى مارمونتيل ، دون ان اشعره بأنه موجه إليه كمحرر ، او لكى يتحدث عنه فى صحيفته ، فقد كتبت على النسخة التى ارسلتها إليه ، أنهـا غير موجهـة إلى « محرر الميركور » ، وإنمـا إلى « السـيد مارمونتيل » . وظننت أننى بذلك كنت اقدم له مجاملة لطيفة ، ولكنه ــ كما بدا ــ رأى فيها إهانة بالغة ، فأصبح عدوا لا تهدأ لخصامه سورة . وكتب ضد مقالى مقالا مؤدبا ، ولكن أسلوبه لم يخل من غل ملموس . ومن ذلك الحين ، لم يدع فرصة تمر دون ان يطعننى فى المجتمع ، أو ان يسىء إلى ــ فى مؤلفاته ــ إساءة غير مباشرة . . إلى هذا الحد يتعذر ترويض انانية اهل الأدب ، وإلى هذا الحد يجب أن يكون المرء على حـذر فيما يوجهه إليهم من مجاملات ، فلا يدع اى شىء يمكن ان يؤول على غير معناه !

سنة ١٧٥٩

اما وقـد غدوت مطمئنـا ، من كل جانب ، فقـد رحت أستغل فراغى وحريتى فى استئناف اعمالى الأدبية بمزيد من الانتظام . فاتممت ــ فى ذلك الشتاء ــ « جولى » ، وارسلتها

إلى « ريه » الذى اتم طباعتها فى العام التالى . غير ان انصرافى إلى العمل ، لم يلبث ان اضطرب من جراء حادث تافه ، ولكنه مكدر . فلقد علمت ان الاستعداد كان يجـرى فى « الأوبرا » لعرض « عراف القرية » من جديد ، وغاظنى أن وجدت أولئك القوم يتصرفون فى إنتاجى ، دون اكتراث بى ، فعـدت إلى المذكرة التى كنت قـد أرسلتهـا ــ يومـا ــ إلى السـيد دارجنسون ولم اتلق عنهـا جوابا ، فنقحتها ، وارسلتها عن طريق السيد « سيلون » ، مع خطاب تكرم بأن يعنى بتسليمه إلى السيد الكونت « دى سان ــ فلورنتان » ، الذى كان قد خلف السيد دارجنسون فى إدارة دار « الأوبرا » . ولقد تحدث «ديكلو» ــ إذ انبأته بما فعلت ــ إلى « الكمانيين الصغيرين » بهذا الشأن ، فعرضا عليه ان يعيدا إلى ، لا أوبراى ، وإنما التصريح بدخول الدار دون مقابل ، وهو ما لم يكن ذا نفع لى . وإذ رايت انه لا امل لى فى اى إنصاف ، فقد تخليت عن المسألة كلها . وواصـل المشرفون على إدارة « الأوبرا » استغلال « عراف القرية » وفق هواهم ــ وكأنهـا ملك خاص لهم ــ ويجنون منها الأرباح ، دون ان يعنوا بالرد على احتجاجاتى ، او ينصتوا إليها ، مع ان هذه « الأوبرا » ملك لى وحـدى ، دون منازع (١) .

---

(١) اضاف « روسو » الى هذه الفقرة التعقيب التالى : « اعترف بأن كل ما استطعت ــ منذ كتابة هذا المؤلف ــ أن اتبينه خلال الحجب الغامضة التى تحيط بى ، يجعلنى اخشى الا أكون ... المعرفة » !

ومذ نفضت عن نفسى ربقة الطغاة الذين أوسعونى جورا ، رحت أعيش حياة سهلة ، مسترسلة ، وادعة ، وقد حرمت من فتنة علاقتين من أقوى العلاقات العاطفية ، وتحررت من أغلالهما الثقيلة . ولفرط مقتى للأصدقاء « الحماة » ، الذين كانوا يظهرون رعايتهم لى، لمجرد الرغبة فى أن يوجهوا مصيرى وفق هواهم ، وأن يجعلونى — على الرغم منى — أسير أفضالهم المزعومة ، عقدت العزم ، على أن أقصر علاقاتى — فى المستقبل — على مجرد حسن النية والود الخالص ، الذى يضفى على الحياة بهجة — دون أن يفرض أية قيود على الحرية التامة — والذى يقوم على أساس المساواة الكاملة !..

ولقد كان لدى من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لأن يمكننى من أن أتذوق متعة الجماعة والإيناس ، دون أن أكون مضطرا إلى أن أعتمد عليها اعتمادا يحد من استقلالى . وما أن جربت هذا الأسلوب من أساليب الحياة ، حتى شعرت بأنه أنسبها لسنى ، ولأقضى الأيام الباقية من عمرى فى سلام ، بعيدا عن الأنواء ، والخلافات ، والمضايقات ، التى كدت أغرق فى حمأتها ، فى الفترة الأخيرة .

* * *

وكنت خلال إقامتى فى (ليرميتاج) ، ومنذ أن استقر بى المقام فى (مونمورنسى) قد عقدت صلات تعارف مستحبة ، فى المنطقة لم تكن تفرض على أية التزامات . وعلى رأس هؤلاء المعارف « لويزو دى موليون » الشاب ، الذى كان ما يزال فى بداية عمله كمحام ، وعلى جهل بالمركز الذى كان موشكا أن

يشغله . ولم تكن لدى من الهواجس مثل ما تولاه ، فرحت أبين له الحياة العملية الموفقة ، التى ينعم بها اليوم . وتنبأت له بأنه إذا حرص أشد الحرص على تخير قضاياه ، وإذا هو تشبث دائما بالدفاع عن الحق والفضيلة ، فإن هذه المشاعر السامية لن تلبث أن تصقل نبوغه ، وتجعله فى مصف كبار المحامين والخطباء . ولقد تبع نصحى ، وإنه ليحظى اليوم بالنتيجة . ولقد كان دفاعه عن السيد « دى بورت » ، خليقا بأن يعادل ما كان يصدر عن الخطيب الإغريقى «ديموستين»!..

وكان يفد لقضاء عطلته من كل عام ، فى (سان — بريس) — على أربعة فراسخ من ليرميتاج — فى ضيعة آل موليون التى كانت تمتلكها أمه، والتى عاش فيها من قبل (بوسيويه) العظيم . وهى ضيعة أدى تعاقب أمثال هؤلاء الملاك عليها ، إلى تعذر بقاء أسرة إقطاعية على أرضها !

وكان لى فى القرية ذاتها — (سان — بريس) — صديق آخر ، هو الكتبى جيران .. وكان رجلا موهوبا ، مطلعا ، لطيفا ، وفى أرقى مصاف أبناء مهنته . ولقد تعرفت بفضله إلى « جان نياولم » ، وكان صديقا له من باعة الكتب ، على تراسل مستمر معه . وهو الذى نشر كتابى « أميل » ، فيما بعد .

وعلى مسافة أدنى من « سان — بريس » ، تعرفت إلى راعى كنيسة (جروسلى) — السيد مالتور — الذى كان يصلح لأن يكون وزيرا ومن رجال الحكم ، منه لأن يكون خوريا لكنيسة إحدى القرى .. أو كان جديرا — على الأقل — بأبرشية يديرها، إذا قدر للمواهب أن تحدد مراكز الرجال !.. ولقد كان يوما سكرتيرا للكونت « دولوك » ، وعرف جان باتيست روسو

معرفة وثيقة . وكان يفعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل ـ الذى قدر له أن يقصى عن موطنه ـ بقدر ما كان ملىء القلب بالمقت لذلك الوغد (سورانى) الذى كان سببا فى القضاء على ذلك الشاعر .. وكان الخورى يعرف عددا من النوادر الطريفة عن كل منهما ، لم يذكرها « سيجاى » فى سيرة الشاعر ، التى لم تنشر بعد . ولقد اكد لى السيد مالتور ان الكونت دولوك لم يجد يوما سبيلا إلى الشكوى منه ، بل إنه ظل يكن له صداقة حارة إلى آخر أيام حياته . ولقد منح السيد دى فانتميل الخورى منصبه المريح ـ بعد وفاة مخدومه السابق ـ ليعيش فى عزلة هادئة . وقد روى لى انه استخدم ـ قبل ذلك ـ فى كثير من الأعمال ، ظل ـ رغم تقدم سنه ـ يحتفظ بذكريات واضحة لها ، وكان يحدثنى عنها بلهجة تنم عن حكمة وحصافة . وكان حديثه مفيدا بقدر ما كان مسليا ، لا يوحى إلى المرء قط بعقلية « خورى » القرية ، وكان يجمع بين دارية الرجل الخبير بالدنيا ، وشوق الطالب الراغب فى التعليم . ولقد كانت صحبته هى احب صحبة إلى بعض المقيمين فى المنطقة من جيرانى . ولقد فارقته وفى نفسى ابلغ الأسف لذلك .

وتعرفت فى مونمورنسى إلى اعضاء هيئة الوعظ ، ومنهم الأب « بيرتييه » الذى كان أستاذا فى العلوم الطبيعية ، والذى توثقت صلتى به ـ برغم نفحة من الاختيال بعلمه فى خلقه ـ لما لمسته فيه من طيبة . على اننى وجدت عناء فى محاولة التوفيق بين سذاجته المسرفة ، وبين تحايله على ان يزج بنفسه فى كل مكان .. فى دور العظماء ، وبين النساء ، ولدى

الأتقياء ، وفى أوساط الفلاسفة . كان يعرف كيف يرضى أهواء جميع الناس !.. ولقد وجدت متعة بالغة فى صحبته ، ورحت اتحدث عنه إلى كل إنسان ، ومن الجلى ان كل ما كنت اقوله عنه ، قد نمى إليه . فقد شكرنى ذات يوم ، مبتسما ، لاننى كنت اعتبره رجلا طيبا . ولمحت فى ابتسامته لونا من اللؤم بدل سحنته ـ فى نظرى ـ تبديلا تاما ، ولا تزال هذه الابتسامة تتمثل فى ذاكرتى احيانا ، منذ ذاك الحين . ولست املك ان اصورها باكثر من انها ابتسامة « بانورج » وهو يبتاع اغنام « داندينو » . ولقد بدأ تعارفنا عقب وصولى إلى (ليرميتاج) بوقت قصير ، ثم اخذ يكثر من التردد على الدار لزيارتى بعد ذلك .

وكنت قد استقررت فى مقامى فى (مونمورنسى) ، عندما رحل الأب « بيرتييه » إلى باريس ، ليقيم فيها . وهناك ، اخذ يلتقى بالسيدة لوفاسير فى كثير من الأحيان . وقد كتب لى ذات يوم ـ كان فيه أبعد الناس عن ذهنى ـ يطلعنى ، على لسان هذه المراة ، على أن « جريم » عرض عليها ان يعولها ، ويستاذننى باسمها فى قبول هذا العرض . وعلمت أن جريم عرض عليها معاشا قدره ثلاثمائة ليبرة ، على شريطة ان تذهب لتقيم فى (دويى) ، بين (لاشيفريت) و (مونمورنسى) . ولست بحاجة إلى ان اذكر وقع هذا النبأ على نفسى .. لقد أثار دهشة تفوق ما لو علمت أن « جريم » أوتى دخلا قدره مائة الف ليبرة ، أو أنه انشأ علاقة غير شريفة مع هذه المراة ! .. وكانه لم يعتبره إجراما منى ان اصطحب هذه المراة إلى

ذات الريف الذى يميل الآن إلى إعادتها إليه .. أو كأن السن رجعت بها القهقرى منذ أثار هذا الاتهام !

وادركت ان العجوز الماكرة ما كتبت تسالنى الإذن ـ وهى التى لم تكن تتورع عن ان تغض البصر عنه إذا ما رفضت ـ إلا لكى تتفادى ان تفقد ما كنت أمنحهــا إياه من ناحيتى . ومع ان هذا التطــوع للخير ـ من جانب جريم ـ بدأ غير عادى فى عينى ، إلا انه لم يشغلنى إذا ذاك ، بقدر ما شغلنى فيما بعد . على انه لو قدر لى حينذاك ان اعرف كل ما عرفت بعده ، لما احجمت عن ان أعلنها بموافقتى ـ كما فعلت إذ ذاك ـ ما لم اكن على استعداد لأن اعوضها عما عرضه عليها « جريم » !

ومنذ ذلك الحين ابرانى ، الأب « بيرتييــه » من الاغترار بطبيعة الأمر الذى بدا له عجبا ، حين صارحته به فى غباء !

* * *

كان هذا الأب « بيرتييه » بالذات ، على معرفة برجلين ، كانا بدوريهما ينشدان التعرف إلى، دون ان ادرى لذلك داعيا ، إذ لم يكن ثمة تقارب يذكر ـ فى الواقع ـ بين ميولهما وميولى . ذانك هما ابنا « ميلشيسيديك » اللذان لم يقدر لأحد ان يعرف وطنهما ، ولا اسرتهما ، بل ـ وربما ـ لقبهما الحقيقى . وكانا من « اليانسيين »(١) وقد أخذهما القوم على انهما راهبــان مستخفيان ، ولعل ذلك كان راجعــا إلى عادتهما التى كانت

---

(١) « اليانسيون » اتباع مذهب دينى ، ورد شرحه فى الجزء الأول من « الاعترافات » .

تعرضهما للســخرية .. عادة حمــل سيفين طويلين ، كانا يتشبثان بهما . وكانت السرية الضافية التى راحا يسبغانها على كل تصرفاتهما ، تكسبهما مظهر زعماء الأحزاب أو الشيع ، ولم اشك قط فى انهما هما اللذان كانا يصدران « الجازيت اكليسيا ستيك » ، الصحيفة الدينية .

وكان أحدهما فارع القامة ، بشوشا ، متملقا ، يدعى السيد « فيرو » .. اما الآخر ، فكان قلة فى الجسم ، ربعــة القوام ، ساخرا ، كثير الجدل فيما لا طائل منه ، ويدعى السيد «مينار» . وكان كل منهما ينادى الآخر بيا « ابن العم » . وكانا يقيمان فى باريس مع « داليمبير » ، فى بيت مربيتــه ، وقد اتخــذا فى (مومورنسى) بيتا صغيرا ، راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام ، وكانا يدبران شئون بيتهما بنفسيهما ، دون خدم ولا حشم . وكانا يتناوبان اسبوعيا الذهاب إلى الســوق ، والطهو ، وكنس البيت . وفيما عدا ذلك، كانا يعيشان ناعمين، وكنت اتناول الطعام على مائدتهما ، ويتناولانه على مائدتى ، فى بعض الأحيان . ولست ادرى السر فى انهما كانا يشغلان بى ، فى حين اننى لم اكن احفل بهما إلا لأنهمــا كانا يهويــان الشطرنج .. ولكى اظفر بمباراة صغيرة ، متواضعة ، كنت احتمل اربع ساعات مضجرة . ولما كانا يسعيان إلى ان يدسا انفيهمــا فى كل شىء ، فان « تيريز » اطلقت عليهمــا اسم « الثرثارين » ، وقد لصق بهما هذا الاسم فى (مونمورنسى) .

هؤلاء ، مع السيد متى ـ صــاحب بيتى ، الذى كان رجلا وقورا ـ كانوا اهم معارفى فى الريف وكنت لا أزال احتفظ

بعدد كاف فى باريس ، لكى آنس إلى الحياة هناك ــ كلما طاب لى ذلك ــ خارج نطاق وسط الأدباء ، حيث لم اكن اعول على صديق سوى « ديكلو » وحده ! .. فقد كان « ديليير » ما يزال جد صغير السن بالنسبة لى . ومع انه لم يلبث ــ إذ عرف عن كثب الدساسين ضدى من العصبة الفلسفية ــ ان ناى بنفسه تماما عن هذا الوسط ، أو هكذا ظننته ، على الأقل .. ولم اكن قد استطعت بعد ان انسى سهولة مبادرته إلى جعل نفسه بوقا لكل أولئك المتآمرين !

وكنت ما أزال احتفظ ــ فى المكانة الأولى ــ بصديقى القديم المحترم السيد « روجان » . وهو من أصدقاء الأيام الطيبة ، الذين لا ادين بمعرفتهم لكتاباتى ، وإنما لشخصى . ولهذا السبب استطعت ان احتفظ به دواما . وكان من اصدقائى ايضا ، مواطنى الشيخ الطيب « لينييب » ، وابنته السيدة « لامبير » ، التى كانت إذ ذاك ارملة . وهناك ــ كذلك ــ شاب من (جنيف) يدعى « كوانديه » ، كان فتى طيبا ــ كما بدا لى ــ مجتهدا ، خدوما ، ذا حمية .. بيد انه كان جاهلا ، متواكلا ، شرها ، نفعيا . وقد جاء ــ منذ البداية ــ لزيارتى فى (ليرميتاج) ، وبدون دعوة ــ اللهم إلا من نفسه ــ استقر فى بيتى ، بالرغم منى . وكان على ميل للرسم ، وعلى معرفة بأهل الفن . وقد افدت منه فى رسوم « جولى » ، فآلى على نفسه ان يشرف على الرسوم واللوحات « الكليشيهات » ، وقد أدى هذه المهمة خير أداء .

وكان لدى ــ فوق ذلك ــ بيت السيد دوبان ، الذى غدا

اقل بهاء ، مما كان فى أنضر ايام السيدة دوبان (أيام شبابها) والذى ظل من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم ، وبفضل الصفوة التى كانت تتردد عليه . ولما كنت قد اعتدت ان افضلهم على من عداهم طــرا ، ولم اهجرهم إلا لكى اعيش طليقا ، فانهم لم يكفوا قط عن أن يرمقونى بعين الود ، وكنت واثقا من حفاوة السيدة دوبان بى فى جميع الأوقات . بل إننى استطيع اعتبارها من جاراتى فى الريف ــ كذلك ــ منذ اقاموا دارا فى (كليشى) ، اعتدت ان اقضى فيها يوما أو يومين ــ فى بعض الأحيان ــ وكنت خليقا بأن اكثر من التردد عليها ، لو ان السيدة دوبان والسيدة شينونسو كانتا تعيشان على مزيد من الوئام . ولكن تعذر توزيع اهتمام المرء بين امرأتين لاتنسجمان معا ، جعلنى اضيق كثيرا بكليشى . ولما كنت مرتبطا بالسيدة شينونسو بود اكثر يسرا واشد الفة ، فاننى كنت احظى بمتعة رؤيتها ــ وانا اكثر ارتياحا ــ فى (دويى) ، التى كانت جد قريبة من مسكنى ، حيث كانت قد استأجرت دارا صغيرة .. كما كنت اسعد برؤيتها فى دارى ، حيث اعتادت ان تأتى لزيارتى فى كثير من الأحيان .

كذلك كان بين معارفى فى باريس السيدة دى كريكى ، التى أوغلت فى التعبد والتدين ، وكفت عن لقاء داليمبير ومار مونتيل ومن على شاكلتهما ، ومعظم اهل الأدب ، اللهم إلا الأب تروبليه ــ على ما أعتقد ــ الذى كان فى ذلك الحين شبه مراء متملق ، حتى انها لم تلبث أن ضاقت به . اما انا ، فكانت تنشد صحبتى ، ولم تفقد ودها نحوى ، بل ظلت دائما على تراسل معى . وقد

ارسلت لى بعض دجاج (لومان) السمين ، كهدية فى راس السنة . كما كانت تعتزم ان تفد لزيارتى فى العام التالى ، عندما افسدت عليها خطتها رحلة قامت بها السيدة دى «لوكسمبورج» فى الوقت ذاته . وإنى لاحتفظ لها فى نفسى بمكانة خاصـــة ، ولسوف تظل ذات مقام ممتاز فى ذاكرتى على الدوام .

* * *

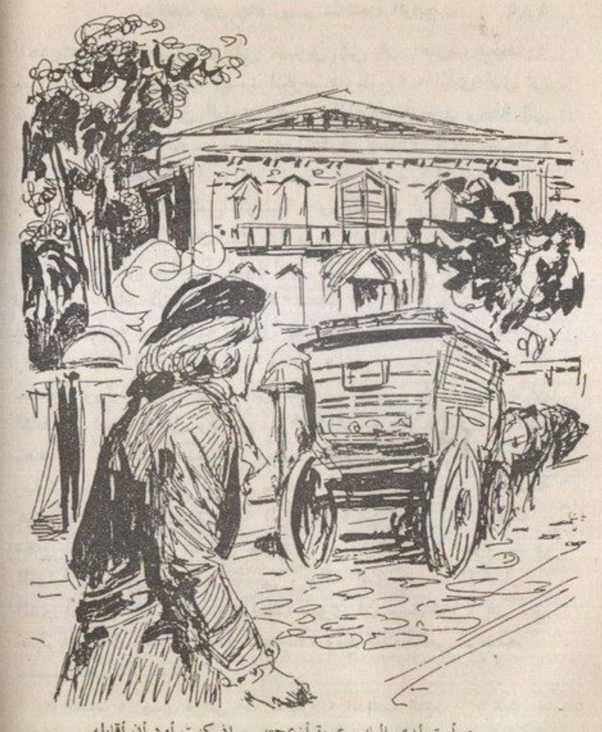
وكان لدى صديق ، جدير بأن اجعله فى مقدمة الجميع اللهم إلا روجان . ذلك هو زميلى وصديقى القديم « كاريو » ، الذى اصبح السكرتير الأسمى للسفارة الأسبانية فى البندقية ، تم فى السويد ، حيث عينه بلاط بلاده قائما بالأعمـــال ، ثم عين سكرتير اصليا لسفارة بلاده فى باريس . ففاجأنى بزيـــارة فى (مونمورنسى) ، فى وقت كنت فيه ابعد ما اكون عن ان اتوقعه . وكان يتقلد وساما اسبانيا — نسيت أسمه — ذا صليب بديع مرصع بالأحجار الكريمة . وكان مضطرا إلى ان يضيف إلى اسمه — فى وثائق النسب — حرفا آخر ، فأصبح يحمل اسم « الشيفالييه دى كاريون » . ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائما : عين القلب الرائع ، والعقل الذى يزداد لطفا وسحرا يوما بعد يوم .. وكنت خليقا بأن اعاود الفتى معه ، كما كنا من قبل ، لو لم يدخل « كوانديه » بيننا — كعهده — فينتهز بعدى عن باريس ، ليتسلل — باسمى — إلى مكانى منـــه ، ويغدو موضع ثقته ، ويسلبنى وده فى تحمسه لخدمتى !

وتعيد ذكرى « كاريون » إلى ذهنى ذكر احـــد جيرانى فى الريف ، كنت خليقـــا بأن اذنب اشـــنع ذنب لو اننى اغفلت

الحديث عنه لا سيما وأننى مسوق إلى أن أعترف بخطأ لا يغتفر نحوه . ذلك هو السيد الكريم «لوبلون» ، الذى ادى لى كثيرا من الخدمات فى البندقيـــة ، والذى جـــاء فى رحلة إلى فرنسا — مع أسرته — فاستأجرا دارا ريفية فى (لابريش) ، التى لم تكن تبعد كثيرا عن (مونمورنسى) . وما أن عرفت أنه جارى ، حتى خفق قلبى طربـــا ، ورأيت أن أزوره بدافع من سرورى ، اكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب . وذهبت لذلك فى اليوم التالى مباشرة ، وإذا بى ألتقى بأناس كانوا قادمين لزيارتى . فاضطررت إلى العودة معهم . وبعد يومين ، سعيت إليه مرة ثانية ، فوجدته يتناول غداءه فى باريس مع أسرته[1] . وذهبت مرة ثانية ، فاذا به فى داره ، وســـمعت اصـــوات نساء ، ورأيت لدى الباب عربـــة ازعجتنى . إذ كنت أود أن اقابله — دون دخيل ولو فى المرة الأولى ، على الأقل ، لأتكلم معه عن علاقاتنا القديمة . وموجز القول ، اننى رحت أرجىء زيارتى يوما بعد آخر ، حتى منعنى حيائى من التقصير — طيلة هذه المدة — فى تحقيق هذا الواجب ، من أن أؤديه إطلاقا . فكان إقدامى على الانتظار طويلا ، سببا فى أن لا أجرؤ — فى النهاية — على أن اظهر نفسى . ولقد أدى هـــذا الإهمال — الذى لم يكن السيد لوبلون يملك سوى ان يستنكره ، عن حق — إلى أن جعل تخاذلى يبدو جحودا . ومع ذلك فاننى لم أشعر ..

---

(1) أضاف « روسو » الى هذه العبارة ، التعقيب التالى : « كنت عند كتابة هذا ، مفعما بتقتى القديمة العمياء ، ابعد ما اكون من ان ارتاب فى السبب الحقيقى لهذه الرحلة الى باريس ، وفى نتائجها » .



ورأيت لدى الباب عربة أزعجتنى . إذ كنت أود أن أقابله
— دون دخيل ولو فى المرة الأولى ..

فى قرارة فؤادى — بأى تثريب .. ذلك لأننى لو كنت قادرا على أن أتيح للسيد لوبلون أى سرور حقيقى — وإن لم يكن على علم به — فانه ما كان ليجدنى ، فى يقينى ، متكاسلا . ولكن الخمول ، والاهمال ، والتهاون فى أداء الواجبات التافهة ، كثيرا ما كانت أبلغ إساءة إلى ، بل من أعظم الرذائل . كانت أبشع أخطائى تتمثل فى التغاضى ، فنادرا ما كنت أفعل ما لم يكن ينبغى أن أفعله ، وأندر من ذلك — لسوء الحظ — أننى لم أكن أفعل ما يجب فعله !

* * *

وما دمت قد عدت إلى المعارف الذين ظفرت بهم فى البندقية ، فخليق بى الا أنسى علاقة تتصل بهم ، وقد دامت أمدا أطول من بقية العلاقات . وأقصد علاقتى بالسيد دى « جونفيى » ، الذى ظل — منذ عودته من (جنوا) — يواصل إبداء كثير من الود نحوى . وكان شديد الشغف بلقائى ، وبالحديث عن المسائل والشئون الإيطالية ، وعن حماقات السيد دى مونتيجى ، التى عرف — من ناحيته — بعض نوادرها ، عن طريق وزارة الخارجية ، التى كانت له بها كثير من الصلات . ولكم سررت إذ التقيت فى داره بزميلى القديم «دوبون» ، الذى كان قد حصل على منصب فى إقليمه ، وكانت شئونه تحمله إلى باريس من آن إلى آخر .

ولقد أخذ السيد جونفيى يزداد إلحاحا فى لقائى ، شيئا فشيئا ، حتى أصبح مصدر إزعاج لى . وما كنا نقيم فى حين

متباعدين ، فقد بات يثير ضجة بيننا ، إذا انقضى أسبوع كامل دون ان اذهب فأتناول الغداء لديه وكان إذا ذهب إلى ضيعة (جونفيى) ، يسعى دواما إلى اصطحابى ، ولكننى بعد ان قضيت هناك ثمانية ايام — ذات مرة — شعرت بأنها لا تكاد تنصرم ، لم أعد أجد رغبة فى العودة إليها . ولقد كان السيد جونفيى رجلا كريما ، شهما — بكل تاكيد — كما كان لطيفا فى نواح خاصة ، ولكنه كان محدود الذكاء .. وكان جميلا ، مزهوا بشكله إلى حد ما ، وباعثا على الضجر .. وكانت لديه مجموعة فريدة فى نوعها ، بل لعلها كانت وحيدة فى العالم ، فكان جد مشغول بها ، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجدونها — احيانا — اقل تشويقا مما كان يجدها هو . تلك كانت مجموعة جد كاملة من اغانى البلاط الملكى ، والأغانى الباريسية — منذ اكثر من خمسين عاما — توجد بينها كثير من الطرائف ، التى كان من المستحيل على الباحث أن يعثر عليها فى اى مكان آخر .. وإنها لذكريات فى تاريخ فرنسا ، نادرا ما تخطر بالبال لدى كافة الأمم الأخرى !

وفى ذات يوم — وقد كنا فى اوج وئامنا — استقبلنى استقبالا باردا ، جليديا ، لا يماثل مسلكه العادى ، حتى أننى بعد ان اتحت له فرصة ليشرح هذا المسلك — بل وسألته إيضاحا — فلم يفعل ، خرجت من داره وقد قر عزمى على الا اضع قدمى فيها مرة اخرى ، إذ أننى لا أشاهد ثانية — على الاطلاق — حيث أكون قد حظيت باستقبال سيئى مرة .. ولم يكن هنا ديدرو يشفع للسيد دى جونفيى . ولقد أرهقت عقلى عبثا .

كى اتبين اى ذنب يحتمل أن أكون قد ارتكبته نحوه ، إذ أننى لم أستطع ان أتذكر شيئا . وكنت موقنا من أننى لم أتحدث قط عنه او عمن يمت إليه ، إلا باحترام كبير ، إذ أننى كنت صادقا فى ودى له . وبجانب اننى لم اكن أملك ما اقوله عنه سوى كل خير ، فقد كان من اكثر مبادئى صلابة ، الا اتحدث عن البيوت التى ازورها ، إلا فى إجلال وأمانة .

واخيرا ، وبعد تخبط ، انتهيت إلى الحدس التالى ، ففى آخر مرة التقينا فيها ، دعانى إلى العشاء فى مسكن فتيات من معارفه ، مع اثنين أو ثلاثة من موظفى وزارة الخارجية ، وكانوا رجالا متزنين ، لا يبدو عليهم قط اى فجور أو خلاعة .. وبوسعى ان اقسم على إننى — من ناحيتى — قضيت الامسية فى خواطر حزينة من اجل النصيب التعس الذى أوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات . ولم أساهم فى نفقات العشاء ، لأن السيد دى جونفيى كان صاحب الدعوة .. كما اننى لم اهب الفتيات شيئا ، لأننى لم اتح لهن فرصة التكسب منى ، كما فعلت فى واقعة « البادوانا »(١) . وبعد ثلاثة أيام أو اربعة — لم ازر فيها الفتيات مرة أخرى — ذهبت لتناول الغداء فى دار السيد دى جونفيى ، الذى لم اكن قد رأيته منذ تلك المناسبة ، فاذا به يستقبلنى على النحو الذى ذكرته . ولما لم أستطع ان اتصور سببا سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لأمر ما يتصل بذلك العشاء ، وإذ تبينت انه غير راغب فى ان يشرح

---

(١) وردت قصة « البادوانا » فى الجزء السابق .

مسلكه ، فقد انقطعت عن زيارته ، ولكنى ظللت أرسل إليه مؤلفاتى ، فكان يبعث إلى — أحيانا — بتحياته .

وفى ذات مسـاء ، قابلتـه فى غـرفة الاستراحة بمسرح «الكوميدى» ، فاذا به يعتب على فى لطف اننى لم اعد ازوره ، ولكن هذا لم يحملنى على العودة إليه . وهكذا ، بدا الأمر — فى هذه الحالة — مجرد إحجام اكثر منه قطيعة !.. على اننى لم أره قط بعد ذلك ، ولا سمعت عنه مزيدا بعد ذلك الوقت. وقد تكون الفرصة جد متأخرة — بعد أن انفصمت صلتنـا لعدة سنوات — لكى نجدد صداقتنا. وهذا هو السبب فى اننى لم اذكر هنا السيد دى جونفيى ، بين الأصدقاء الذين ظللت احتفظ بهم فى باريس، برغم أننى ترددت على داره فترة طويلة.

***

على اننى لن اضخم هذه القائمة باسماء معـارف آخرين اقل الفة ، او اسماء أولئك الذين قل توثق الفتى بهم تدريجا ، لتغيبى عنهم ، ولو اننى ما ازال اراهم فى الريف أحيانا ، سواء فى دارى أو فى دور جيرانى . ومنهم — على سبيل المثـال — الراهبان دى كونديلاك ، ودى مابلى ، والسادة دى ميران ، ودى لاليف ، ودى بواجيلو ، وواتيليه ، وانسيليه ، وغيرهم ممن يطول سرد اسمائهم . كذلك اورد فى ذكر عابر ، السيد دى مارجينسى، الأمين الخاص للملك ، والعضو القديم فى ندوة دولباخ ، والذى لم يلبث أن هجرها كما هجرتها أنا ، وقد كان صديقا حميما للسيدة ديبيناى ، ولم يلبث أن انفصل عنها كما انفصلت أنا .. ثم اذكر صديقه «ديماهى» ، مؤلف المسرحية

الفكهة : «السفيه» ، الذى اكتسب شهرة ، ولكنه لم يلبث ان غاب عن الأذهان والأسماع. ولقد كان الأول — دى مارجينسى — جارا لى فى الريف ، إذ كانت ضيعة (دى مارجينسى) قريبة من (مونمورنسى) . وكنا على تعارف قديم ، ولكن الجوار ، وبعض التشابه فى تجاربنا فى الحياة ، قربا بيننا !.. اما الثانى، فلم يلبث أن مات بعد تعرفنا بقليل . وكان ذا كفاءة وذكاء ، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكهة ، فى بعض النواحى ، إذ كان ماجنا — بعض الشىء — مع النسـاء ، ولم يحظ بكثير من الأسف أو الحزن عند موته !

على اننى لا استطيع ان اغفل علاقة جديدة بالمراسلة — فى تلك الآونة — كان لها من الأثر على ما تبقى من حياتى ، ما لا يدعنى اتجاوز ذكر منشئها . واقصـد بهـذا السيد « دى لاموانيون دى ماليزيرب » ، أول رئيس لمجلس المعونة ، الذى كان — إذ ذاك — رقيبـا على الكتب المطبوعـة ، وقد ادى مهمته بكثير من الحصافة وسعة الأفق واللين ، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الأدب. ولم اكن قد زرته قط فى باريس ، ولكننى كنت القى منه كثيرا من التيسيرات الجديرة بالتقدير ، فيما يتعلق بالرقابة .. وقد علمت أنه فى اكثر من مناسبة ، كان يؤنب — فى قسوة — أولئك الذين اعتادوا ان يكتبوا ضدى. ولقد وقعت على ادلة جديدة على كرمه وافضاله ، بالنسبة لنشر « جولى » . فإن إرسال « بروفات » مؤلف ضخم كهذا من « أمستردام » — حيث كان يطبع [illegible] — كانت باهظة . ومن ثم فإنه سمح بأن ترد باسمه هو ، إذ كانت المراسلات الموجهة

إليه معفاة من رسوم البريد . فكانت « البروفات » ترسل باسمه ، فيبعث بها إلى دون نفقات كذلك ، بفضل والده السيد حامل الأختام . وعندما تم طبع الكتاب ، رفض بيعه في المملكة إلا بعد طبعة دبر أمرها ، بحيث يؤول ربحها إلى وحدى ، بالرغم منى .. ولما كان هذا الربح يعتبر — من جانبى — سرقة وجورا على حقوق الناشر « ريه » ، الذى كنت قد بعثته أصول كتابى، فإننى لم أرفض فحسب قبول هذه الهدية — التى دبرت لى بدون إذنه ، وإن كان قد أقرها فى كرم النفس — بل إننى رغبت فى أن أقتسم معه المائة « بيستول » التى تجمعت منها ، والتى أبى أن يقبل منها شيئا . ولقد ضايقتنى هذه المائة « بيستول » ، إذ لم يكن السيد دى ماليزيرب قد شاورنى فى أمرها ، ولم يمهد لدى حتى أكون على علم إذ أرى مؤلفى يستغل استغلالا بغيضا ، فيمنع بيع الطبعة الجيدة ، ريثما تستنفد نسخ الطبعة الرديئة ! (١) .

ولقد اعتدت أن أنظر دائما إلى السيد دى ماليزيرب كرجل أجمعت الشواهد على استقامته . فما حملنى شىء مما حدث على أن أرتاب فى أمانته لحظة واحدة ، ولكنه كان ضعيفا بقدر ما كان شريفا ، ومن ثم فإنه كان يسبب المضايقات أحيانا ، لأولئك الذين كان يشغل بأمورهم ، رغبة منه فى حمايتهم ، وفى سبيل هذا لم يكتف بأن أمر بحذف أكثر من مائة صفحة من

---

(١) الطبعة الجيدة هى التى طبعت فى (امستردام) ، أما الرديئة فهى التى دبر « دى ماليزيرب » اصدارها فى باريس لمصلحة « روسو » .

طبعة باريس ، بل إنه عدا على النسخة التى أرسلها إلى السيدة « دى بومبادور » — من الطبعة الجيدة — بطريقة جديرة بأن تسمى انتهاكا للأمانة . فلقد قيل فى سياق ذلك الكتاب ، إن زوجة الفحام أجدر بالاحترام من عشيقة أمير . وإنى لأقسم على أن هذه العبارة قد عرضت لى فى سياق التأليف ، دون أن يقصد بها أحد . وقد تبينت — عندما أعدت قراءة الكتاب — أن الخواطر قد تتجه إلى شخص بالذات . غير أننى لم أشأ أن أحذف هذه العبارة، جريا على مبدئى الصلب المتعنت ، من عدم حذف أى شىء مراعاة لأى تأويل قد يحمل على محمله ، ما دام ضميرى شاهدا على أننى لم أكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبته !.. واكتفيت بأن أبدلت كلمة « ملك » — التى كنت قد كتبتها فى بادىء الأمر — بكلمة « أمير » !

ولم يرض هذا التعديل السيد دى ماليزيرب — على ما بدا — فحذف العبارة تماما فى طبعة جديدة للصفحة فى ورقة مستقلة ، ألصقها فى عناية تامة على الصفحة الأصلية ، فى النسخة الموجهة إلى السيدة دى بومبادور . على أنها لم تجهل هذه الحيلة من حيل التعمية ، فقد وجدت بعض نفوس « طيبة ! » أطلعتها عليها . أما أنا ، فلم أعلم بها إلا بعد زمن طويل ، عندما شرعت أحس آثارها !

أو ليس هذا — بدوره — أصل كراهية مستترة ، ولكنها مريرة ، من سيدة أخرى كانت فى وضع مشابه (١) ، وإن لم

---

(١) يقصد الكونتة دى بوفلير ، التى كانت عشيقة الأمير دى كونتى !

اعرف عنه شيئا ، بل ولا كنت قد عرفتها هى عندما كتبت هذه الفقرة ؟ . ولقد تم تعارفى بها عندما نشر الكتاب ، فشعرت بكثير من القلق وعدم الارتياح ، واعربت عن ذلك للشيفالييه دى لورنزى ، الذى ضحك ساخرا ، واكد لى أن هذه السيدة لم تمس بما يجرح كرامتها فى شىء ، بل إنها لم تنتبه إلى الأمر . ولقد صدقت قوله ، ولعلنى كنت متلهفا بعض الشىء عليه ، فاستعدت طمأنينتى فى وقت لم يكن من الملائم لى ان أطمئن فيه !

وتلقيت مع مقـدم الشتاء ، دليلا جـديدا على كرم السيد دى ماليزيرب ، قدرته كل التقدير ، وإن لم أر من الحكمة أن انتفع به . فلقد كان ثمة منصب خال فى صـحيفة العلماء ، « جورنال ديه سافان » ، وقد كتب لى « مارجينسى » يعرض هذا المنصب على، وكأنه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه ، بيد انه كان من اليسير على ان أرى من أسلوب خطابه (الملف «جـ» ـ رقم ٣٣) أنه كان يعمل بأوامر من سـلطة فوقه .. بل إنه أوحى إلى بنفسه ، فى خطاب تال (الملف «جـ» ـ رقم ٤٧) أنه كان مكلفا بأن يعرض على المنصب . وكان العمل بسيطا ، يتألف من قطعتين تستخلصان شهريا من كتب ترسل إلى، ومن ثم فلن اكـون بحاجة قط إلى ان اذهب إلى باريس ، ولو فى زيارة للمسئول ، أقدم فيهـا شكرى . ولقد مهد لى هـذا المنصب سبيل دخول مجتمع ادباء الطبقـة الأولى ، السادة : ميران ، وكليرو ، ودى جيينى ، والراهب بارتليمى . وقد كنت على تعارف سابق بالأولين ، فتطلعت فى غبطة إلى التعرف بالأخيرين . .

وفوق كل ذلك ، كان لى أن أتقاضى عن هـذا العمل غير المرهق ـ الذى كان من السهل على اداؤه ـ مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك ، مخصصة لهذا المنصب .. وفكرت بضـع ساعات ، قبل أن انتهى إلى قرار . وبوسعى ان أقسم بأن ترددى ما كان راجعا إلا إلى الخوف من إغضاب مارجينسى ، وعدم إرضاء السيد دى ماليزيرب . على ان الضيق ـ الذى لم اقو على مقاومته ـ من عـدم تمكنى من العمل فى الوقت الذى يحلو لى ، واضطرارى إلى أن اكون مقيـدا بمواعيد معينة ، ثم تأكدى من عدم إجادتى للأعمال التى أكون مجبرا على ادائها .. كل هذه تحالفت وتغلبت ـ فى النهاية ـ على كل اعتبار آخر ، وحملتنى على أن أقرر رفض منصب لم اكن مهيأ له !. فلقد. كنت اعرف أن نبوغى لم يكن يأتى إلا عن نوع معين من الاهتمام المشبوب بالموضوعات التي ارى علاجها ، وانه لم يكن ثمة ما هو أقوى ـ على إذكاء عبقريتى ـ من حب كل ما هو عظيم ، وكل ما هو صادق وحقيقى ، وكل ما هو جميل !.. فما قيمة الموضوعات التى كان على أن استخلصها من اغلب الكتب .. بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لدى ؟.. كان عدم اكتراثى بكل هذا كفيلا بأن يجمد قلمى، وان يلبد ذهنى!.. لقد ظنوا ان بوسعى أن اكتب بحكم المهنـة فحسب ـ ككل الأدباء الآخرين ـ فى حين أننى لم اكن قط أملك أن اكتب إلا عن إيحاء وإلهام !.. ويقينا ان هـذا لم يكن بالمـادة اللازمـة لصحيفة العلماء . ومن ثم فاننى كتبت إلى مارجينسى رسالة شكرته فيها ، وشرحت له ـ فى اكثر ما وسعنى من أدب ـ أسباب رفضى بالتفصيل ، حتى لا يكون له ـ أو للسيد دى

ماليزرب ـ أن يظن أن لسوء الطبع ، أو للغرور أثرا فى هذا الرفض . ولقد أقرنى كلاهما على ما ذهبت إليـه ، دون أن يؤثر ذلك على ودهما لى .. وظل الأمر سرا مصونا ، فلم يتح للرأى العام أن يعرف أتفه شىء عنه !

* * *

والواقع أن هذا العرض لم يأتنى فى لحظـة مناسبة لكى أوافق عليه ، إذ أننى كنت قد اعتزمت ـ منـذ فترة ـ أن أهجر الأدب هجرانا تاما ، بل أهجـر مهنـة التأليف . فإن كل الذى جرى جعلنى أشمئز تماما من أهل الأدب ، وقد ثبت لدى أنه كان من المستحيل أن أمضى فى هذه المهنة بالذات ، دون أن أتصل بهم . ولم يكن اشمئزازى من أهل المجتمع بأقل من ذلك .. بل إننى كنت قد برمت بالاختلاط الذى أقدمت عليه فى الحيـاة عامة ، سـواء من ناحيتى أو من ناحية المجتمع ، فإننى لم أكن مهيأ لذلك . وعلى ضـوء التجارب المتواصلة ، شعرت أكثر من ذى قبل ، بأن كل العلاقات القائمة على غير تكافؤ أو مساواة ، تكون مضرة دائما بالجانب الضعيف فيها. ولقد كانت معيشتى مع قوم ذوى ثراء ، يمتون إلى طبقة أخرى غير التى اخترتهـا ، دون أن أعيش على نمطهم ، ومع ذلك فإننى كنت مضطرا إلى أن أقلدهم فى كثير من الأمور .. وكانت النفقات النثرية ـ التى لا تعد شيئا مذكورا لديهم ـ عبءا مرهقا ، بقدر ما كانت ضرورة لازمة !.. فإذا ما ذهب رجل لزيارة بيت فى الريف ، اضطلع بخدمته ـ سواء على المائدة ، أو فى مخدعه ـ خادمه الخاص .. فهو يرسله وراء حاجاته ،

دون أن يتصل اتصالا مباشرا بخدم البيت ، بل وربما دون أن يقع عليهم بصره ، فلا شىء بينـه وبينهم اللهم إلا أنه يمنحهم هبة كلما طاب له ذلك .. أما أنا ، فقد كنت وحيدا ، بلا خادم خاص ، ومن ثم فإننى كنت تحت رحمـة خـدم البيت الذى أزوره ، وكان من الضرورات الماسة لى أن أكسب وُدهم ، إذا شئت ألا أعانى كثيرا من المضـايقات .. ولما كنت أعامل كسيدهم ، على قدم المساواة ، فقد كان لزاما على أن أعامل الخدم كما يعاملهم السيد ، بل وأن أبدى لهم أكثر مما يبدى أى أمرىء آخر ، لأننى كنت ـ فى الواقع ـ أكثر من سواى حاجة إلى خدماتهم !

ولم تكن هذه بالمسألة الجسـيمة ، فى الدور التى لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من الخدم .. ولكن الدور التى كنت أزورها ، كانت تضم أعدادا كبيرة منهم ، كلهم أنذال مسعورون ، شديدو اليقظة .. لمصالحهم الخاصة !. وكان الأنذال يعرفون كيف يدبرون خططهم ، بحيث أحتـاج إلى خدمات كل واحـد منهم بدوره !

وكل نسـاء باريس ـ اللائى أوتين ذكاء فائقـا ـ لا يصبن إطلاقا فى آرائهن بهذا الصدد ، ومن ثم فقد استنزفن مواردى ، فى رغبتهن فى الإبقاء على هذه الموارد . فإذا كنت ذاهبا لتناول العشاء فى دار لإحداهن ـ على مسافة قليلة من بيتى ـ أمرت السيدة بإعداد جيادها لتقلنى مركبتها فى عودتى ، بدلا من أن تدعنى أطلب مركبة بالأجر .. وكانت تغبط لأنهـا توفر على بذلك الأربعة والعشرين «سو» ، أجر العربة ، دون أن يخطر

ببالها شىء من « الايكو » الذى كنت أهبه خادم العربة والحوذى . ولو ان سيدة كتبت إلى من باريس ، وشاءت أن تبعث برسالتها إلى (ليرميتاج) أو (مونمورنسى) ، فانها إشفاقا على من ان ادفع الأربعة « سو » — التى كان يكلفنيها خطابها (١) — كانت ترسله مع واحد من خدمها ، فيأتى به سيرا على قدميه ، وهو مبلل بعرقه .. وكنت اضطر إلى ان امنحه غداء ، واهبه « ايكو » لاشك انه كان أهلا لاكتسابه !.. اما إذا هى دعتنى لقضاء ثمانية ايام — أو خمسة عشر — معها ، فى الريف ، فانها كانت تقول لنفسها : « لسوف يكون هذا توفيرا لبعض نفقات المسكين ، على أية حال !.. فهو لن يتكبد شيئا من نفقات قوته، أثناء مقامه هنا » !.. وكانت تنسى اننى لم اكن أقوم باى عمل — فى تلك الفترة — وإننى اظل مسئولا عن دفع إيجار مسكنى ، ونفقات من فيه ، والغسيل ، والكساء .. وإننى كنت أدفع — فى سبيل قص شعرى وإزالة لحيتى — ضعف ما اعتدت ان ادفع .. وان إقامتى فى دارها ، كانت تكبدنى فوق ما اعتدت ان انفق فى دارى !

ومع اننى اقتضبت المنح البسيطة التى كنت اهبها لخدم البيوت التى اعتدت ان انزل عليها كثيرا ، إلا انها ظلت ترهق مواردى . واعتقد اننى انفقت ما يزيد على خمسة وعشرين « ايكو » ، فى دار السيدة دوديتو — فى (أوبون) — حيث لم انم اكثر من اربع أو خمس مرات .. واكثر من مائة

(١) كان المرسل اليه هو المسئول عن نفقات البريد اذ ذاك .

« بيستول » فى (ايبيناى) و (لاشيفريت) ، خلال السنوات الخمس او الست التى أعتدت فيها ان أكون ضيفا مترددا على القصرين .

* * *

ذلك ان النفقات من الأمور التى لا مفر منها لرجل فى مثل حالى ، لا يعرف كيف يؤدى لنفسه شيئا ، ولا كيف يستعمل ذكاءه فى إنجاز شىء ، ولا يستطيع — كذلك — أن يطيق رؤية وصيف يزمجر ويؤدى مهامه وهو ساخط .. بل إننى فى دار السيدة دوبان — حيث كنت فى مكانة اى فرد من افراد الأسرة ، وحيث أديت ألف خدمة للخدم — لم أحظ منهم يوما بشىء ، ما لم تكن نقودى واسطة بيننا . ومن ثم فاننى لم ألبث ان اضطررت إلى ان اتخلى نهائيا عن هذه المنح الضئيلة ، التى لم يعد مركزى يسمح لى بانفاقها .. وإذ ذاك فقط ، شعرت — أكثر من ذى قبل — بمضار الاختلاط بمن ينتمون إلى غير طبقة المرء !

اضف إلى هذا ، اننى لو استمرأت هذه الحياة ، لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة ، إذ انها تكون — إذ ذاك — ثمنا لمسراتى . ولكن الإفلاس الذى لا يأتى بغير المضايقة ، أمر يفوق كل احتمال . ولقد اشتد شعورى بوطأة هذا المسلك من مسالك الحياة ، حتى اننى انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرر ، التى كنت أحظى بها — إذ ذاك — فعقدت العزم على ان أجعلها دائمة ، بأن أنبذ — نبذا تاما — المجتمع الراقى ، وتأليف الكتب ، وكل صلة بالأدب ، وان أعتكف — ما بقى لى

من أيـام فى الحيـاة — فى ذلك النطاق الضـيق ، الوادع ، الهادىء ، الذى كنت أشعر بأننى خلقت من أجله !

ولقدت أدت أرباح الكتاب الذى ضمنته مقالى « رسالة إلى داليمبير » ، وكتاب « هيلويز الجديدة » إلى زيادة لا بأس بها ، فى مواردى التى كانت قد اعتصرت فى (ليرميتاج) . فقد رأيت أمامى حوالى الف « ايكو » . وكنت قد تقدمت كثيرا فى تأليف كتاب « أميل » ، الذى قصرت عليه اهتمامى بعـد أن فرغت من « هيلويز » ، وكان دخله جديرا بأن يضاعف هذا المبلغ ، على الأقل . ومن ثم فقـد فكرت فى مشروع لاستثمار هـذا الرصيد بطريقة تجلب على إيرادا صغيرا يكفى — إذا ضم إلى ما تدره على أعمال النسخ — لأن يوفر معاشى دون ما حاجة إلى المضى فى الكتابة . كذلك كان لدى كتابان مؤجلان ، أولهما « المذاهب السياسية » .. ولقد درست حال هذا الكتاب ، فوجدت أنه ما يزال يتطلب عدة سنوات من العمل . ولم تكن لدى جراة على المضى فيه ، وأن أنتظر إلى أن يتم ، قبـل أن أنفـذ ما اعتزمت . ومن ثم فاننى عدلت عنـه ، وقررت أن أستخلص منه ما يسعنى استخلاصه ، ثم أحرق ما يزيد .. وإذ انهمكت فى هذا العمل بكل قوة ، دون أن أقطع استرسالى فى « أميل » ، قدر لى أن أضع — فى أقل من عامين — العبارات الأخيرة لكتاب « العقد الاجتماعى » ! (١) .

---

(١) قدم « كتابى » ملخصا لكتاب « أميل » فى عدده الرابع ، وملخصا لكتاب « العقد الاجتماعى » فى العدد ٣٢

وبقى « قاموس الموسيقى » — أو « الموسوعة الموسيقية » — وكان العمل فيها مجرد جهـد آلى ، يمكن القيام به فى أى وقت ، ولم أقدم عليه إلا طلبا للنقود فحسب . وقد احتفظت لنفسى بحق نبذه ، أو إتمامه متى شئت ، وفقا لمـا إذا كانت مواردى الأخرى توحى بأن دخله ضرورى ، أو أنه فائض عن الحاجة . أما كتاب « الأخلاق فى الشئون الحسية » — الذى كنت قد وضعت خطوطه الأولى — فقد نبذته نهائيا !

وكنت أعول على مشروع أخيرا ، إذا ما قدر لى أن استغنى عن أعمال النسخ .. ذلك هو أن أوغل فى الابتعاد عن (باريس)، حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتى فادحـة ، ويحرمنى من الوقت لزيارتهـا .. ولكى أدفع عنى فى عزلتى سعور الملل — الذى يقال إنه يعدو على المؤلف ، إذا هو ألقى قلمه جانبا — احتفظت لنفسى بعمل كفيل بأن يملأ الفراغ فى وحدتى ، دون أن يستدرجنى إلى الانسـياق لإغراء نشر أى جديد ، خلال ما تبقى من عمرى . فمـا كنت أدرى أية نزوة تملكت « ريه » ، فراح — منـذ زمن طويل — يستحثنى على كتابة ذكريات حياتى . ومع أن هذه الذكريات لم تكن — حتى ذاك الحين — مشوقة ، من حيث الأحـداث ، إلا أننى شعرت بأن من الممكن أن أجعلها مشوقة ، بفضل الروح التى أتناول بها الموضوع . ومن ثم صممت على أن أجعلها عملا فريدا فى نوعه ، بأن أكتبها بصدق لا مثيل له ، حتى يتسنى — ولو مرة واحدة — أن يرى الناس رجلا على حقيقته ، كما يرى هو دخيلة نفسه !

ولقد اعتدت دائما ان اسخر من سذاجة « مونتانى » التى غررت به ، فجعلته يعنى عناية فائقة بالا ينسب إلى نفســه إلا كل مستحب ، فى حين انه كان يتظاهر بالاعتراف بعيوبه .. اما انا — الذىاعتدت ان اعتقد دائما اننى، من كافة الاعتبارات، خير الرجال — فقد شعرت بانه ما من قلب بشرى ، مهما يكن نقيا ، إلا ويطوى بين جوانحه عيبا ذميما . ولقد كنت ادرك اننى صورت للناس فى صورة تخالف تماما صورتى الحقيقية ، بل وتبدو فى بعض الأحيان مشوهة ، حتى اننى — برغم السوء الذى لا ابتغى إخفاءه قط — لن ابوء إلا بالكسب ، إذا اطلعت الناس على حقيقة نفسى !.. وإلى جانب هذا ، فما كان من الميسور ان اكشف نفسى ، دون ان اكشــف الآخــرين على حقيقتهم . ومن ثم فانه لم يكن فى الوسع نشر هذا المؤلف ، إلا بعد وفاتى ، ووفاة كثيرين غيرى . ولقد زادنى هذا قوة على الاقدام على تسجيل اعترافاتى ، التى لن يقدر لى ان اخجل منها امام إنسان . ولهذا فقد عولت على ان اخصص اوقات فراغى للمضى فى تنفيذ هذا المشروع ، وبدات اجمع الرسائل والأوراق التى قد ترشد ذاكرتى او تعينها ، والأسف يملأ نفسى حسرة على كل ما كنت قد مزقتــه ، او احرقتــه ، او اضعته حتى ذلك الوقت !

* * *

ولقد كان لمشروع الاعتكــاف التــام — وهــو من احــكم المشروعات التى خطرت لى — اثر قوى على ذهنى ، وكنت قد شرعت فى تنفيذه ، عندما القت بى السماء — التى كانت تعد لى مصيرا آخر — فى دوامة جديدة !

ذلك أن إقليم (مونمورنسى) ، الميراث العريق الفخم — الذى كانت تتوارثه الأسرة ، صاحبة هذا الاسم — لم يعد ملكا لهذه الأسرة ، مذ صودر . وكان قــد آل — بزواج اخت الدوق هنرى — إلى أسرة «كونديه» ، التى ابدلت اسم (مونمورنسى) باسم (انجيان) . ولم يكن لهذه الدوقيــة من قصر ســوى حصن قديم ، تحفظ فيه الوثائق ، ويتلقى فيه السادة امارات الولاء . على أن ثمة بيتا معينــا يرى فى (مونمورنسى) — او (انجيان) — شيده « كروازيه » — الملقب بالفقير — ويضارع فى فخامته اعظم القصور ، حتى ليستحق أن يسمى قصرا .. ان المنظر المهيب لهذا المبنىالبديع ، والمرتفع الذى يقوم عليه، والمنظر الذى يشرف عليــه ، والذى قد يكون له شــبيه فى العالم ، وقاعة الاستقبال الرحبة فيه ، التىازدانت برسوم يد حاذقة ، وحدائقه التى غرسها « لونوستر » الذائع الصيت .. كل هذه تؤلف وحدة شاملة ، ذات جلال باهر ، يمثل — فى الوقت ذاته — بساطة لا أدرى مبعثها ، ولكنها توحى بإعجاب باق !

ولقد اعتاد السيد المارشال دوق دى لوكسمبورج — الذى كان يشغل هذا البيت ، فى ذلك الحين — ان يفــد فى كل عام مرتين إلى هذا الأقليم الذى كان آباؤه واجداده سادة له فيما مضى ، فيقضى خمسة اسابيع او ستة ، كأى ساكن عادى ، ولكن فى ابهة لا تقل رواء عمــا للبيت من روعة عريقــة !.. وفى اول رحلة جــاء فيهــا ، بعد ان استقر بى المقــام فى (مونمورنسى) ، اوفد إلى وصيفا يحمل تحيات السيد المارشال

والسيدة زوجته ، ودعوة إلى تناول العشاء معهما ، عندما يروق لى ذلك !

وما من مرة جاءا فيها واهملا إرسال التحيات ذاتها ، والدعوة عينها . وقد ذكرنى هذا بالسيدة دى بوزينفال حين همت أن ترسلنى لتناول الغداء مع الخدم(١) . ولقد تغير الزمن، ولكننى بقيت على حالى . ولم أكن راغبا البتة فى أن ارسل لتناول الغداء فى قاعة الخدم ، كما أننى لم أكن احفل كثيرا بموائد العظماء . وقد كنت أوثر لو أنهم تركونى فى حالى ، دون أن يكرمونى ، ودون أن يحقرونى . ومن ثم فقد رددت فى أدب واحترام على مجاملات السيد والسيدة « دى لوكسمبورج » ، غير أننى لم أقبل قط دعوتهما . فان صحتى المعتلة — فضلا عن خجلى وتهيبى الطبيعيين — كانت تجعلنى اتشعر لمجرد التفكير فى أن اظهر فى جمع من أعضاء البلاط الملكى .. بل أننى لم أذهب إلى القصر فى زيارة للشكر والتحية ، برغم أننى ادركت كل الإدراك ، أن هذا ما كان يبتغى منى ، وأن كل هذا الإلحاح لم يكن صادرا عن كرم وتلطف ، بقدر ما كان صادرا عن فضول !

على أنهما واصلا مجاملاتهما ، بل وراحا يضاعفانها . وكانت السيدة كونتة دى بوفلير — التى كانت وثيقة الصلة بالسيدة المارشالة — قد جاءت إلى (مونمورنسى) ، فأرسلت تسأل عنى ، وعما إذا كان لها أن تزورنى ، وأجبت كما كان

(١) روى « روسو » هذا الحادث فى الجزء الثالث .

ينبغى أن أجيب ، ولكنى لم أحرك ساكنا . وفى خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية — ١٧٥٩ — زارنى مرارا الشيفالييه دى لورنزى ، الذى كان ينتمى إلى حاشيه السيد الأمير دى كونتى ، وإلى ندوة السيدة دى لوكسمبورج . ولقد توثقت المعرفة بيننا ، فراح يلح على بالذهاب إلى القصر . ولكنى ابيت !

واخيرا ، وفى أصيل ذات يوم ، رأيت السيد المارشال دى لوكسمبورج ، وكان آخر من توقعت رؤيته .. وكان يقترب وفى معيته خمسة أشخاص أو ستة . ولم يبق لى من وسيلة للتهرب ، وما كنت أملك أن أتحاشاه . كما أننى لم أكن أملك أن أتفادى رد زيارته ، وتقديم آيات احترامى للسيدة المارشالة — التى أغرقتنى بما حمله إلى من مظاهر تفضلها — وإلا اعتبرت متغطرسا سىء التربية .

وهكذا بدأت — تحت أنحس الطوالع — علاقة لم يكن بوسعى أن أتهرب منها أطول مما فعلت .. وإن كان شعورا عميق الجذور ، قد أوحى إلى بالتوجس مما اقتحمت عليه !

* * *

كنت فى خوف بالغ من السيدة دى لوكسمبورج ، فلقد كنت أعلم أنها لطيفة مليحة ، وقد رأيتها مرارا فى المسرح ، وفى دار السيدة دوبان ، قبل عشر أو اثنتى عشرة سنة ، حين كانت تلقب بدوقة دى بوفلير ، وهى بعد تتلألأ فى طلائع أضواء جمالها . ولكنها عرفت بالخبث وسوء السيرة ، وكانت هذه السمعة لسيدة فى مثل مكانتها العظيمة ، تثير ارتعادى !

وما أن رأيتها ، حتى وقعت أسيرها . فقد ألفيتها ساحرة .. أوتيت ذلك السحر الذى لا يعدو عليه الزمن ، والذى خلق لكى يفتك بفؤادى !.. وكنت أتوقع أن أجد حديثها ساخرا ، مليئا بالتوريات . ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان أفضل من ذلك بكثير . ذلك لأن حديث السيدة دى لوكسمبورج لا يتألق بالذكاء ، ولا يكشف عن سمو الروح ، كما أنه لا ينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة ، ولكنه مفعم بالفكاهة التى لا تؤذى إطلاقا ، ولكنها تبهج السامع دائما !.. وكانت مجاملاتها وعباراتها المتملقة تعبث بالنفوس، بقدر ما هى بسيطة ، توحى بأنها إنما كانت تتساقط من بين شفتيها دون تفكير منها ، وكأنها فورات قلب مترع !.. وخيل إلى أننى لمحت ـ خلال زيارتى الأولى ـ أنها استطابت مجلسى، برغم انطوائى، وثقل عباراتى .. ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذقن إحداث هذا الأثر ـ سواء كن فى ذلك صادقات ، أو مصطنعات ـ عندما يحلو لهن ولكنهن جميعا لم يكن يحذقن إحداثه بالطريقة الفاتنة التى كانت تجيدها السيدة دى لوكسمبورج ، فلا يقوى المرء على أن يرتاب فى صدقه !

ولقد كان من المحتمل أن تصل ثقتى بها إلى الكمال ، منذ اليوم الأول ـ كما صارت بعد ذلك بوقت قصير ـ لولا أن السيدة الدوقة دى مونمورنسى ، زوجة ابنها ، كانت على شىء من الحقد ، وكانت ـ فيما أعتقد ـ شابة رعناء ، مشاكسة ، عقدت عزمها على أن تهاجمنى، حتى جعلتنى ـ وسط مجاملات حماتها ومغازلاتها ـ أعتقد أنهما إنما كانتا تسخران منى !

ولعلنى كنت خليقا بأن أجد ارتياحها ، نظرا لهذا التوجس الذى داخلنى نحو السيدتين ، لولا أن الكرم البالغ الدافق من السيد المارشال ، أقنعنى بأن ودهما كان صادقا . ولم يكن ثمة ما هو أدعى للعجب ـ إذا ما نظرنا إلى طبيعتى الخجول ـ من مبادرتى إلى أخذ السيد المارشال بكلمته ، من حيث المساواة التى أرادنى على أن أكون عليها معه .. ليس أعجب من هذا ، سوى مبادرته إلى احترام رغبتى فى الاستقلال التام الذى أردت أن أعيش فيه . ومن ثم فإنه والسيدة دى لوكسمبورج لم يبديا أى قلق ـ ولو للحظة واحدة ـ بصدد مواردى وأسباب عيشى ، اقتناعا منهما بأننى كنت على صواب فى أن أكون قانعا بمركزى ، غير راغب فى أى تغيير !.. فمع أننى لم أكن أملك أن أرتاب فى الاهتمام العطوف الذى كانا يبديانه نحوى ، إلا أنهما لم يعرضا قط أن يسعيا لإيجاد منصب لى ، أو أن يساعدانى بنفوذهما ، اللهم إلا مرة واحدة ، عندما أبدت السيدة دى لوكسمبورج رغبة فى أن أدخل المحفل الفرنسى ، « الأكاديمية فرانسيز » .. ولقد أشرت إلى أن عقيدتى الدينية تقوم دون ذلك ، فقالت إن هذه لم تكن عقبة تذكر ، وإلا فإنها تتكفل بإزاحتها ، إذا كانت كذلك !.. وأجبت بأنه برغم الشرف الذى يضفيه على انتمائى إلى مثل هذه الهيئة الموقرة ، فإننى ـ بعد رفضى دعوة السيدة دى تريستان ، وملك بولندا ، بطريقة ما ، أن أنضم إلى محفل نانسى ـ لا أستطيع أن أقبل عضوية أى محفل آخر ، وأنا مرتاح الضمير . ولم تحاول السيدة دى لوكسمبورج أن تمضى فى الإلحاح ، ولا دار أى حديث فى هذا الصدد بعد ذلك !

هذه البساطة فى الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظام ، الذين كان فى وسعهم أن يضفوا على المآثر ـ إذ كان السيد دى لوكسمبورج صديقا شخصيا للملك ، عن جدارة ـ تتناقض تماما ، وبشكل عجيب ، مع الاهتمام المستمر ـ الذى لم يكن أقل مضايقة مما هو اصطناعيا ورياء ـ الذى كان يبديه أولئك الأصدقاء الذين هجرتهم ، والذين كانوا يتظاهرون برعايتى ، ويسعون إلى استذلالى ، أكثر مما كانوا يسعون إلى خدمتى !

وعندما زارنى السيد المارشال فى (مون ـ لوى) ، استقبلته وحاشيته فى غرفتى الوحيدة ، وأنا محرج .. لا لأننى كنت مضطرا إلى أن ادعوه إلى الجلوس وسط صحاف القذرة وأوانى المهشمة ، وإنما لأن أرض الحجرة كانت متداعية ، متساقطة ، وقد خشيت أن يؤدى ثقل مرافقيه إلى انهيارها . وما خشيت على نفسى من الخطر ، وإنما خشيت على هذا السيد الجليل مما كان تواضعه يعرضه له ، فعملت على التعجيل بإبعاده عن الحجرة ، إذ اقتدته ـ برغم الجو الذى كان شديد البرد ـ إلى شرفتى التى كانت فى مهب الرياح ، ولم تكن بها مدفأة ما !.. وما أن صرنا هناك ، حتى أطلعته على السبب الذى اقتدته من أجله إلى المكان ، فرواه بدوره إلى السيدة المارشالة ، وألحا معا فى حملى على الإقامة فى القصر ـ ريثما يتم إصلاح أرض الحجرة ـ أو فى مبنى ملحق بالقصر ، وسط المتنزه ، يطلق عليه اسم « القصر الصغير » ، إن شئت .

* * *

وهذا المسكن الفاتن جدير بالحديث .. ذلك أن متنزه ، أو حديقة (مونمورنسى) لم تكن فى مستوى واحد ، كحديقة (لاشيفريت) ، فهى تل غير مستو ، تتناثر فيه المرتفعات والمنخفضات ، التى استغلها الفنان الماهر ، ليخلق سلسلة من المتنوعات : من أحراش ، ومياه ، وزخارف ، ومناظر متباينة ، وليضاعف ـ كما ينبغى أن يقال ـ المساحة المحدودة ، فى نظر الرائى . ويتوج هذا المتنزه ، شرفة يعلوها القصر .. أما فى طرفه الأدنى ، فانه يؤلف مضيقا لا يلبث أن ينفتح ويتسع ، فى اتجاه الوادى ، وتمتد فى زاويته صفحة شاسعة من الماء . وبين بساتين البرتقال ـ التى ملأ المساحة التى يتسع عندها المضيق ـ والماء ، وفى وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار ، يقوم « القصر الصغير » الذى أشرت إليه !

ولقد كان هذا المبنى ، والأراضى المحيطة به ، ملك للوبرون الشهير(١) ، من قبل ، وقد جعل من إنشاء هذا المبنى وتزيينه ملهاة له ، وأقبل على ذلك بأفخم فنون العمارة والزخرفة ، اللذين برز هذا الرسام العظيم فيهما . ولقد أعيد بناء هذا القصر فيما بعد ، ولكن التصميمات التى وضعها صاحبه الأول ، روعيت عند التجديد . وهو قصر صغير ، وبسيط ، ولكنه أنيق . ولما كان يقوم بين خزان رى بستان البرتقال ، وبين المساحة المائية الشاسعة ، فقد كان معرضا للرطوبة ، ومن ثم فقد كان يخترقه فى وسط ، رواق مكشوف (منور) ، بين طبقتين

---

(١) رسام فرنسى مشهور ، ولد فى سنة ١٦١٩ ... ١٦٩

من الأعمدة ، فكان الهواء الجارى فى المبنى كله ، يتخفف من رطوبته فى ذلك الرواق . وعندما ينظر المرء إلى المبنى من عل — من زاوية الجانب المقابل — يراه محوطا تماما بالماء ، فكأنه جزيرة مسحورة ، أو كأنه أبدع جزر (بوروميه) الثلاث — جزيرة (ايسولابيلا) — فى بحيرة (ماجيورى) .

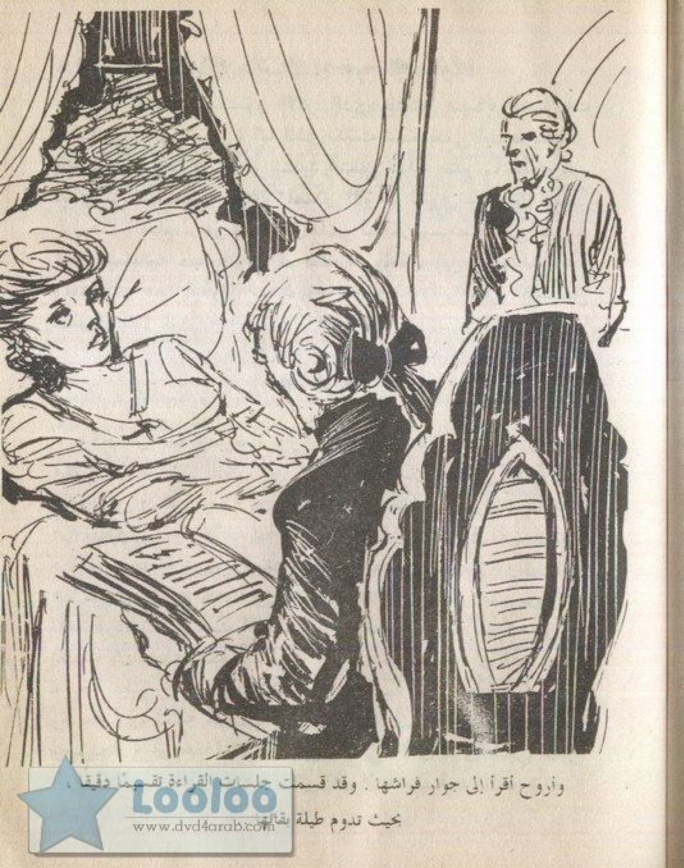
فى هذا المبنى المنعزل ، ترك لى حق اختيار احد الأجنحة الأربعة الكاملة ، التى كان يضمها ، فضلا عن الطابق الأرضى ، الذى كان يتألف من قاعة للرقص ، واخرى للبلياردو ، ومطبخ . وقد اخترت أصغر الأجنحة وابسطها ، وهو الذى كان يعلو المطبخ ، الذى سمح لى باستخدامه . وكان الجناح بديعا ، نظيفا ذا اثاث يشيع فيه اللونان الأزرق والأبيض . وفى هذه العزلة العميقة ، البهيجة — وسط الغابات والمياه ، وعلى شقشقة الطيور من كل نوع ، محوطا بعبير زهور البرتقال — وضعت الجزء الخامس من « اميل » ، وانا شبه ثمل .. ومن ثم فان اللون الجديد الذى يبدو فيه الشطر الأكبر منه ، يرجع فى الواقع إلى الأثر الفعال الذى عكسه الوسط الذى كنت اكتبه فيه !

لكم كنت أهرع ملهوفا — عند بزوغ الشمس ، فى الصباح — كى أتنسم الهواء العبق فى الرواق !.. وما احلى القهوة الممزوجة باللبن ، التى كنت أتناولها مع « تيريز » هناك ! . وكانت قطتى وكلبى يؤنساننا . وكانت هذه الصحبة وحدها ، كافية لإيناسى طيلة حياتى ، فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل !.. كنت فى جنة ارضية ، وقد عشت هناك فى حال من السذاجة والبراءة ، ورحت أنعم بالسعادة !

ولقد أبدى لى السيد والسيدة دى لوكسمبورج ، خلال الزيارة التى قاما بها فى شهر يوليو ، كثيرا من ألوان الرعاية ، وعاملانى فى كرم بالغ ، حتى إننى — وقد كنت أعيش فى رحابهما ، مغمورا بمجاملاتهما — لم اكن أملك ما أجازيهما به ، سوى أن اكثر من ترددى عليهما . فأصبحت لا اكاد افارقهما إطلاقا : إذ كنت أذهب فى الصباح ، لأقدم تحياتى إلى السيدة المارشالة .. وبعد ان أتناول غدائى هناك ، كنت أتمشى، إبان الأصيل ، مع السيد المارشال .. ولكنى لم اكن أمكث للعشاء ، إذ كانا يدعوان إلى مائدتهما دائما عددا من علية القوم ، فضلا عن أنهما كانا يتناولان العشاء فى ساعة متأخرة بالنسبة لى .. وإلى ذلك الوقت ، كان كل شىء يمضى مواتيا ، وما كان ليقع شىء من الضر ، وإننى عرفت كيف أدع الأمور تجرى فى أعنتها . ولكنى لم اكن يوما بقادر على ان انهج منهجا وسطا فى علاقاتى الودية ، ولا استطعت يوما أن اكتفى بأن أؤدى واجباتى نحو المجتمع ، وإنما كنت دائما انشد احد أمرين : إما كل شىء ، أو لا شىء !.. وما ان أظفر بكل شىء ، وأرى نفسى مكرما مدللا لدى قوم من ذوى الجاه ، حتى اتجاوز الحدود ، فتتملكنى نحوهم صداقة لا تباح عادة إلا بين الأنداد المتعادلين . وكنت اكشف لها بالألفة المتحررة من الكلفة ، فى حين انهم لم يكونوا — من ناحيتهم — يتخلون عن آداب اللياقة التى نشأوا عليها وتعودوها . ومع ذلك ، فإننى لم اشعر يوما بأننى متحرر على سجيتى ، مع السيدة المارشالة ! ومع اننى لم اكن مطمئنا كل الاطمئنان إلى شخصيتها ، إلا اننى لم اكن اخشاها بقدر ما كنت أخشى عقلها .. وهذا وحده ما كان يكبح جماحى .

فلقد كنت أعرف أن إرضاءها فى الحديث صعب ، وكان من حقها أن تكون كذلك . إذ كنت أدرك أن النساء ـ وسيدات الطبقة الرفيعة منهن، بوجه خاص ـ كن لا يشتهين من الحديث سوى التسلية والترويح ، وأنهن يؤثرن التجريح على الإملال ! .. وقد حدست ـ من ملاحظات السيدة دى لوكسمبورج على أحاديث الذين كانوا ينصرفون من لدنها ـ ما كان قد خامرها ولا بد بصدد أحاديثى السخيفة . ومن ثم فاننى فكرت فى حيلة لأعفى نفسى من حرج الحديث إليها .. تلك هى أن أقرأ عليها !. وكانت قد سمعت عن « جولى » ، وعرفت أنها طبعت ، فأبدت شوقا إلى رؤية هذا الكتاب . وإذ ذاك عرضت عليها أن أقرأه لها ، فوافقت .

وأصبحت أذهب إليها فى الساعة العاشرة من كل صباح ، ولا يلبث أن يأتى السيد دى لوكسمبورج ، ويغلق الباب . وأروح أقرأ إلى جوار فراشها . وقد قسمت جلسات القراءة تقسيما دقيقا ، بحيث تدوم طيلة بقائها ، لو أنها لم تقطع حبل إقامتها ، إذ أدى خسران معركة كبرى ، إلى استياء الملك فاضطر السيد دى لوكسمبورج إلى المبادرة بالعودة إلى البلاط . ولقد فاق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت، إذ استولى على السيدة دى لوكسمبورج شغف طاغ بـ «جولى» وبمؤلفها. فأصبحت لا تتكلم إلا عنى ، ولا تفكر إلا فى طيلة اليوم ، وتعانقنى عشر مرات فى النهار ، وأصرت على أن أجلس باستمرار إلى مائدتها ، وكانت ـ إذا حاول أى واحد من كبار السادة أن يحتل مكانى ـ تخبرهم أن ذاك مقعدى ، وتحملهم على الجلوس فى أماكن أخرى !



وأروح أقرأ إلى جوار فراشها . وقد قسمت جلسات القراءة تقسيما دقيقا ، بحيث تدوم طيلة بقائها

ومن السهل تصور الأثر الذى خلفته هذه التصرفات الساحرة ، فى نفسى ، انا الذى كانت تستعبدنى ابسط مظاهر العاطفة . فاذا بى اغدو شديد التعلق بها ، بقدر ما كانت هى تبدى لى من ميل . وكان المصدر الأوحد لخوفى ـ حين فطنت إلى هذا الهيام ـ هو شعورى باننى لم اكن مستملحا إلى الدرجة التى تستبقيه حيا ، ومن ثم فانه قد ينقلب إلى كراهية .. ولقد كان هذا الخوف ـ لسوء حظى ـ قائما على أسس سليمة جدا !

* * *

ولابد ان ثمة تعارضا كان قائما بين اتجاه عقلها واتجاه عقلى .. فبغض النظر عن كثير من الهذيان الأحمق الذى كان يفلت منى فى كل لحظة من لحظات احاديثنا ، بل وبغض النظر عن خطاباتى .. كانت ثمة أشياء تكدرها ، حتى فى خير اوقات صفائى معها ، دون أن يقدر لى ان احدس سببها . ولن اذكر هنا سوى مثال واحد ، وإن كنت أستطيع ان أذكر عشرين !.. فلقد عرفت أننى كنت أعد للسيدة دوديتو نسخة من «هيلويز» تكلفت كل صفحة منها مبلغا كبيرا ، فرغبت فى ان اعد لها نسخة على الأسس ذاتها . ووعدتها بأن افعل ، ومن ثم وضعتها فى قائمة عملائى ، وكتبت لها بضعة سطور رقيقة وصريحة ، أو هكذا كانت نيتى ، على الأقل ، وإذا بى أتلقى الرد التالى ، الذى ادهشنى كل الدهشة (الملف « ج » رقم ٤٣) :

« فرساى : هذا الثلاثاء .

« إنى لمغتبطة ، وإنى لراضية .. ولقد ادخل خطابك على نفسى سرورا لا حد له ، وإنى لأبادر إلى ان اعلنك بذلك ، وإلى ان أشكرك من اجله .

« هاك نص تعبيرك فى خطابك : « بالرغم من انك عميلة جد طيبة حقا ، فاننى اجد بعض صعوبة فى قبول نقودك . والأحرى ان يكون على ان ادفع ثمن المتعة التى سأحظى بها إذ أعمل من اجلك » . ولن اذكر هذا الموضوع مرة اخرى !

« يؤسفنى ويقلقنى أنك لا تحدثنى قط عن صحتك ، فليس ثمة ما يهمنى اكثر منها . إننى احبك من كل قلبى .. وانه ـ كما أؤكد لك ـ لأمر محزن حقا ان اطلعك على هذا ، إذ إننى كنت أؤثر ان احظى بغبطة قوله لك بلسانى !

« إن السيد دى لوكسمبورج يحبك ، ويقبلك من كل فؤاده ! » .

وما ان استلمت هذا الخطاب ، حتى سارعت إلى الإجابة عنه ـ قبل ان افحصه فحصا مليا ـ لأحتج ضد التأويل غير اللائق . وبعد ان عكفت عدة ايام على هذا الفحص ، فى قلق يسهل تصور مداه ، ودون ان افقه شيئا من الأمر ، وجدتنى فى النهاية اكتب ردى النهائى بهذا الصدد :

« مونمورنسى : ٨ ديسمبر ١٧٥٩

« فحصت الفقرة التى ترجمت إليها خطابى مائة مرة ومرة ،

منذ رسالتى الأخيرة . ولقد تأملتها من حيث معناها الطبيعى الصحيح ، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن ان تحمله ، وإنى لأعترف ، يا سيدتى المارشالة ، بأننى لم اعد ادرى ما إذا كنت انا الذى يدين لك بالاعتذارات ، أو انه يجدر بك ان تكونى انت المدينة بها لى » .

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل . وكم من مرة فكرت فيها ، منذ ذلك الحين .. وما أزال ــ حتى فى يومى هذا ــ فى غباء من هذا الموضوع ، حتى إننى لم استطع ان افهم ما الذى يحتمل أن تكون قد وجدته فى تلك الفقرة .. ولن اقول إنها وجدت شيئا ماسا ، ولكنه من المحتمل ان يكون مكدرا .

اما عن النسخة المخطوطة من « هيلويز » ، التى رغبت السيدة دى لوكسمبورج فى أن تقتنيها ، فخليق بى ان اذكر هنا ما كنت قد عزمت على ان افعله ، لكى اضفى عليها امتيازا خاصا ، دون بقية النسخ جميعا . ذلك أننى كنت قد كتبت مغامرات اللورد ادوارد مستقلة ، وكنت قد ظللت طويلا مترددا ، لا اقطع بما إذا كنت اضمها ــ سواء كاملة ، او بعض فقرات منها ــ إلى هذا الكتاب ، الذي كانت تلوح انها غير متمشية معها . ولقد قررت فى النهاية ، ان احذفها كلها ، لأن عدم اتساقها مع أسلوب بقية الكتاب ، كان كفيلا بأن يفسد بساطته المؤثرة . ثم وجدت سببا أقوى ، عندما تعرفت إلى السيدة دى لوكسمبورج . فلقد كانت فى تلك المغامرات مركيزة رومانية ذات شخصية بالغة التهتك . وكان من الممكن أن

يحاول بعض من كانوا لا يعيرون السيدة المارشالة إلا بسمعتها ، أن يربطوا بين صفاتها وبعض صفات تلك المركيزة ، بالرغم من انه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنتين .. لذلك غبطت نفسى على القدر الذى اتخذته ، وآليت ان اتشبث به . ولكننى فى رغبتى العارمة فى أن أزيد من قيمة نسخة السيدة دى لوكسمبورج بشىء لم تتضمنه النسخ الأخرى .. الم يكن يحسن بى ان اتذكر هذه المغامرات المشئومة ، وان ارسم خطة لكى استخلص شيئا منها اضيفه إلى النسخة ؟.. كان مشروعا اخرق ، لا يمكن للمرء ان يعزو الاندفاع إليه ، إلا إلى القدر الأعمى الذى كان يجرنى إلى هلاكى .

(١) Quos Volt Perdere Jupiter, Lementat

ولقد كنت من الحماقة بحيث اعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية ، وبكثير من الجهد ، وارسلتها إليها وكأنها أجمل شىء فى الدنيا . واخبرتها ــ فى الوقت ذاته بأننى قد أحرقت النسخة الأصلية . وهو ما كنت قد فعلته حقا ، ومن ثم فانها الوحيدة التى كانت تمتلك هذه القطعة ولن يقدر لإنسان سواها ان يراها ، إلا إذا اطلعته هى عليها . ولكن هذا العمل كان ابعد من أن يثبت لها حكمتى وحصافتى ــ كما كنت أتوقع ــ إذ انه لم يوح إليها بالفكرة التى كانت قد خطرت لى ، عن الشبه

---

(١) بيت من الشعر القديم ، أعتاد كتاب القرن السادس عشر ــ فى فرنسا ــ أن يدسوه فى كتاباتهم ، ومعناه أن الإله « جوبتير » يطيش ــ او يمحو ــ عقل اولئك الذين يقضى عليهم بالهلاك

بين بطلة المؤلف وبينهـــا ، وهو ما لا بد قد اذى شعورها . على ان غبائى كان من الافراط بحيث انى لم استشعر اى شك فى انها خليقة بان تبهر بمـــا فعلت .. ولم تمتـــدح لى عملى بالتحمس الذى كنت اتوقعه ، بل إنها ــ لدهشتى البالغة ــ لم تتحدث إلى قط عن المخطوط الذى أرسلته إليها. وما حدست الأمر ــ لفرط ما كنت مغتبطا بتصرف ــ إلا بعد أمد طويل ، وبسبب ظواهر أخرى ، كانت مترتبة على ذلك !

* * *

اما نسختها المخطوطة من الكتاب الأصلى ــ « هيلويز » ــ فقد واتتنى فكرة اخـــرى بصددها ، كانت اكثر حـــكمة من سابقتها ، ولكنها كانت ــ فى اثرها البعيد ــ تكاد تعادلهـــا إساءة إلى . فلكم يساهم كل شىء فى مساعدة القـــدر ، عندما يدفع بإنسان إلى الشقاء !.. فلقد كانت فكرتى هى ان أزين هذه النسخة المخطوطة بصور من لوحات « جولى » ، التى تصادف أن كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط . فطلبت هذه الرسوم من « كوانديه » إذ انها كانت ملكا لى بكل حق مشروع فضـــلا عن أننى كنت قد تركت له ما درته هـــذه الرسوم من ربح، إذ انها كانت قد لقيت رواجا عظيما. على أن « كوانديه » كان اكثر خبثا ، مما كنت انا عكس الخبث !.. وقد ادى إلحاحى فى طلب هـــذه الرســـوم ، إلى ان يحدس الغرض الذى كنت اريدها من أجله . ثم اغرانى بأن أدعهـــا

معه ، زاعما انه سينقحها وما لبث ــ فى النهاية ــ أن قدمها إلى السيدة بنفســه !.

(١) Eg. Versicuios Feci. Tulit Alter Honores

ولقد أدى هذا إلى دخوله قصر دى لوكسمبورج ، وحظوته بمكانة معينة . وكان ــ منذ استقرارى فى القصر الصغير ــ يكثر من زيارتى ، ويختار الصباح دائما موعدا لهذه الزيارة ، لا سيما عنـــدما كان يتصادف وجود الســـيد والســـيدة دى لوكسمبورج فى (مونمورنسى) . وكان هـــذا يؤدى إلى الا اذهب إلى القصر إطلاقا ، لكنى اقضى معـــه سحابة الصباح . وكنت الام على هذا التغيب ، فاذكر السبب ، فأقابل بإلحاح فى دعوة السيد « كوانديه » إلى القصر .. وقد فعلت ، وكان هذا عين ما ابتغاه الوغد !.. وهكذا كان للأفضال الكريمة العارمة ، التى كانت تغدق على ، اثرها الكبير فى ان الكاتب الأجير لدى السيد « ثيلوسون » والذى كان يدعى أحيانا إلى مائدة مخدومه ــ عندما لا يكون ثمة ضيف آخر يؤنس السيد ــ وجد نفســه فجاة على مائدة احـــد قادة فرنســا العظام ، مع الأمراء ، والسيدات الدوقات ، وكل أصحاب المكانة العليا فى البلاط الملكى !

ولن انسى البتة انه كان مضطرا إلى العودة إلى باريس مبكرا ــ ذات يوم ــ فقال السيد المارشال للحضور ، عقب الغداء . « تعالوا نسر على الطريق المفضية إلى (ســـان ــ دنيس) ،

---

(١) من شعر « فيرجيل » : « انا انظم الشعر وغيرى يجنى المجد » !

لنرافق السيد «كوانديه» . ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال
فدار رأسه لهذا الكرم . اما انا ، فقد اهتز قلبى ، حتى أننى
لم اقو على أن انبس بكلمة واحدة . وسرت وراء القوم ، وانا
ابكى كالطفل ، واموت لهفة على أن اقبل مواقع قدمى هـذا
المـارشال الطيب .. على أن استئناف قصـة ذلك الكتاب
المنسوخ ، جعلنى أسبق الزمن إلى هذه الواقعة . فلنعد إلى
الأحداث وفقا لنظام ورودها ، بقدر ما تسمح لى ذاكرتى .

* * *

لم يكد العمل فى البيت الصغير فى (مون — لوى) يفرغ ،
حتى فرشته بأثاث مناسب وبسيط ، وعدت إلى الإقامة فيه ،
غير قادر على أن انبذ ذلك القانون الذى وضعته لنفسى إذ
غادرت (ليرميتاج) ، واعنى به أن يكون مقامى دائما فى مسكن
امتلكه . على أننى — مع ذلك — لم استطع أن اقطع بالتخلى
عن مسكنى فى « القصر الصغير » ، ومن ثم فقد ظللت محتفظا
بمفتاحه ، وكنت كثيرا ما انام هناك — لفرط ولعى بالفطـور
البديع فى الرواق — كما كنت اقضى فيه يومين او ثلاثة ، فى
بعض الأحيـان ، وكأنه بيت خـلوى للترويح عن النفس ،
ولعلنى كنت احظى — فى تلك الفترة — بمسكن أكثر إراحـة
ولياقة مما كان يحظى به أى فـرد عادى فى أوربا . ذلك لأن
صاحب الدار التى كنت أسكنها — السيد متى ، الذى كان خير
رجل فى الدنيا — ترك لى الإشراف الكلى على عمليات الإصلاح
فى (مون — لوى) ، واصر على أن أستخدم عماله وفق ما كنت
أهوى دون أى تدخل فيه . وقد وجدت ما مكننى من أن أجعل
من غرفة واحدة فى الطابق ، الأول جناحا كاملا مؤلفا من حجرة

للنوم ، وحجرة أخرى ملحقة بها ، وخزانة كبيرة للثياب . وفى
الطابق الأرضى ، كان ثمة المطبخ وحجرة تبريز . أما الشرفة
فقد تحولت إلى حجرة للمكتب ، بعـد إقامة حاجز زجاجى ،
وإدخال مدفأة عليها . ولقد رحت أتسلى — كلما كنت هناك —
بزخرفة الشرفة الخارجية ، التى كانت تقبع تحت ظلال صفين
من أشجار الزيزفون الصـغير . فغرست صفين آخرين .
لأقيم أيكة دائمة ، وعملت على إقامة بضع أرائك حجرية هناك ،
واحطتها بالشجيرات ذات الزهر الأبيض ، وباللبلاب ، وزهر
الجبل . واقمت سياجا بديعـا من الزهـور ، موازيا لصفى
الأشجار .. ولما كانت هذه الأيكة أكثر ارتفاعا من شرفـة
القصر — وكان المنظر الذى تشرف عليه لا يقل عن ذاك الذى
تشرف عليـه الأخـرى ، وقد عمرها عدد من الطيور التى
استألفتها واستأنستها — فإننى جعلت منها حجرة استقبال
إذا ما وفد على ضيوف ، كالسيد والسيدة دى لوكسمبورج ،
والسيد الدوق دى فيلروى ، والسـيد الأمير دى تينجرى ،
والسيد المركيز دارمنتيير ، والسيدة الدوقة دى مونمورنسى ،
والسيدة الدوقة دى بوفلير ، والسيدة الكونتة دى فالينتينوا ،
والسيدة الكونتة بوفلير . وغيرهم ممن كانـوا فى مكانتهم ،
والذين كانوا يتفضلون بتجشم عناء صعود طريق متعبة ، من
القصر إلى (مون — لوى) . وقد كنت مدينـا بالحظوة بكل
هذه الزيارات ، إلى السيد والسيدة دى لوكسمبورج وقـد
كنت المس هذا ، فكان قلبى يطفر بالعرفان بأفضالهما . ولقد
حدث فى إحدى نوبات التأثر العاطفى ، أن قلت للسـيد دى
لوكسمبورج : « آه ، يا سيدى المارشال ! . لقد كنت أكره

العظماء قبل ان اعرفك ، وانا الآن اكثر كراهية لهم ، منذ جعلتنى اشعر كم يسهل عليهم ان يجعلوا انفسهم موضع حب وإعجاب ! » .

وفيما عدا ذلك ، فاننى اسائل كل أولئك الذين عرفونى اثناء هذه المدة ، عما إذا كانوا قد لاحظوا أن هذه اللمحة من الذكاء قد بهرتنى لحظة ، وما إذا كان دخان هذا البخور قد صعد فى راسى ، وعما إذا كانوا قد راونى اقل تمشيا مع طباعى ، واقل بساطة فى مسلكى، واقل تلطفا مع الناس ، واقل الفة مع جيرانى ، واقل استعدادا لمعونة كل امرىء عندما يكون ذلك فى مكنتى ، دون أن اتعرض للضر الذى يترتب على السخافات والسفاهات التى لا حصر لها ، والتى كثيرا ما تنطلق فى غير حكمة ، فتورثنى الحرج دون انقطاع ؟..

وإذا كان قلبى قد اعتاد أن يجتذبنى نحو قصر مونمورنسى، نظرا لصادق تعلقى بصاحبيه ، فانه كان لا يلبث أن يردنى بنفس الطريقة إلى جيرتى ، لاتذوق حلاوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة ، التى لم يكن لى من سبيل إلى السعادة خارج نطاقها . ولقد اتصلت روابط الصداقة بين تيريز وابنة واحد من جيرانى ، كان يعمل فى البناء ـ ويدعى بيلو ـ فحذوت حذوها مع الأب .. وكنت أتناول الغداء فى القصر ، فى الظهيرة ـ وانا كاره بعض الشىء ـ رغبة فى إرضاء السيدة المارشالة ، وكنت اعود فى المساء ، لاتناول العشاء مع بيلو الجليل واسرته ، فى بيته أحيانا ، وفى بيتى أحيانا اخرى .

وإلى جانب هذين البيتين ، سرعان ما وجدت ثالثا فى قصر

دى لوكسمبورج ، بباريس ، إذ راح صاحباه يلحان على فى إخلاص كى ازورهما فى بعض الأحيان ، حتى إننى استجبت لهما ، برغم نفورى من باريس ، التى لم اذهب إليها ـ عقب اعتكافى فى ليرميتاج ـ إلا فى المناسبتين اللتين ذكرتهما من قبل .. وحتى إذ ذاك ، ما كنت اذهب إلا فى أيام محدودة من قبل ، لمجرد تناول العشاء ، ثم اعود فى الصباح التالى ، وكنت ادخل القصر واغادره خلال الحديقة المتصلة بالطريق المؤدية من الريف ، بشكل استطيع معه ان اقول ـ بكل صدق ـ إننى لم اضع قدما على أرض باريس المرصوفة !

* * *

وفى غمرة هذا الرخاء العابر ، راحت النكبة ـ التى حددت نهايته ـ تتجمع على البعد . فلقد عقدت ـ عقب عودتى الإقامة فى (مون ـ لوى) تعارفا جديدا ، بالرغم منى ، كالمعهود .. تعارفا يعتبر بداية مرحلة فى تاريخى . ولسوف يبدو ـ فيما يلى ـ ما إذا كان هذا التعارف طيبا او سيئا .

اما الطرف الآخر فيه ، فكانت السيدة المركيزة دى فيرديلان، جارتى التى كان زوجها قد ابتاع منزلا ريفيا فى (سوامى) ، على مقربة من (مونمورنسى) . ولقد كانت الآنسة «دارس» ، ابنة للكونت دارس، الذى كان رجلا ذا مكانة ، ولكنه كان فقيرا .. ثم تزوجت من السيد دى فيرديلان، وكان كهلا، قبيح الشكل، اصم ، جاف الخلق ، قاسى الطبع ، غيورا ، مشوه الخلقة بالندوب ، اعور .. ولكنه كان ـ فيما عدا ذلك ـ رجلا طيبا، إذا ما عرف المرء كيف يفهمه .. وكان يملك ما بين خمسة

عشر الفا وعشرين الفا من الليبرات دخــلا سنويا ، من اجله زفت الفتاة إليه !. وكان هذا الرجل العجيب يتوعد ، ويصرخ ، ويزمجر ، ويغرى ، ويبكى امراته طيلة النهار ، ولكنه ينتهى دائما بان ينفذ ما ابتغت هى ، بعد ان يكون قد أحنقها .. فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد انه هو — وليس هى — الذى كان يبتغى ذلك الشىء المنشود !

ولقد كان السيد دى مارجينسى — الذى تحدثت عنــه من قبل — صديقا للسيدة ، واصبح صديقا لزوجها كذلك . وقد اسكنهما — منذ بضع سنوات — بالأجر ، فى قصره القائم فى (مارجنيسى) ، على مقربة من (اوبون) و (ارديى) وهناك ، كانا يقيمان فى فترة هيامى بالسيدة دوديتو . ولقد تعرفت كل من السيدة دى فيرديلان وهذه الاخيرة ، عن طريق صديقتهما المشتركة ، السيدة دوبيتير . ولما كانت حديقة قصر مارجينسى تقع على الطريق التى اعتادت السيدة دوديتو ان تسلكها — فى رياضتها المحببة إليها — إلى (مونت اوليمب) ، فان الســيدة دى فيرديلان أسلمتهــا مفتاحهــا ، لتستطيع ان تمر خــلال الحديقة . وبفضل هذا المفتاح ، كنت اسعى إليها فى كثير من الأحيان ، ولكننى لم أكن مولعا باللقاءات غير المرتقبة ، وكنت إذا قابلتنا الســيدة دى فيرديلان مصادفة ، اتركهما دون ان انبس بكلمة ، وأمضى فى سيرى . وما كان هــذا المسلك غير اللبق ، ليعطيها فكرة طيبة عنى . ومع ذلك ، فإنها سعت إلى صحبتى عندما كانت فى (سواسى) !

ولقد وفدت على (مون — لوى) عدة مرات لتقابلنى ، دون أن تجدنى فى البيت . فلما لم ارد زياراتها هــذه ، رات ان ترسل إلى بعض أصص الزهــور لأزين بهــا أيكتى ، لكى تضطرنى إلى ان أزورها . ووجدتنى مسوقا إلى الذهاب إليها وشكرها . وكان فى هذا ما يكفى لأن يتم التعارف !

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة فى بدايتها ، شان كل علاقة كنت أعقدها بالرغم منى .. بل إنها لم تكن يوما هادئة ، فى الواقع . فان اتجاه عقل السيدة دى فيرديلان ، كان مخالفا اكثر مما ينبغى لاتجاه عقلى . وكانت تطلق الفــاظ الســوء والسخرية المتوارية بكثير من البساطة ، حتى إنها كانت تتطلب من المرء انتباها مستمرا — ومرهقا بالنسبة لى — لكى يدرك متى كان يحلو لها أن تهزا به !.. وتحضرنى إحدى نوادر عبثها وسفاهتها ، التى تكفى للحكم عليها . فلقد حدث أن عين أخوها قائدا لسفينة حربية (فرقاطة) ، كانت فى طريقها ضد الإنجليز . وقدر لى أن اتحدث عن طريقة تسايح هذه الفرقاطة ، دون أن امس سرعتها بنقد ، وإذا بهــا تقول ، بدون أن تغير لهجتها : «أجل .. إن المرء لا يأخذ من المدافع إلا القدر اللازم لهزيمته»!.. ونادرا ما سمعتها تقول خبرا عن أى من أصدقائها الغائبين ، اللهم إلا إذا دست خلاله شــيئا ضدهم . وكانت تسخر ممن لا تجد فيه سوءا ، ولم تستثن من ذلك صديقها مارجينسى !

ومن الامور التى وجدت انها لا تطاق منهــا ، ذلك الازعاج المستمر الذى كان يتمثــل فى رسائلها الصغيرة ، وهداياها البسيطة ، وقصاصاتها التى كنت اضطر إلى أن أتعثر بخى

لكى أجيب عنها ، والتى كانت تسبب لى حرجا متجددا ، سواء لكى أشكر ، أو لكى أرفض !.. ومع ذلك فاننى لم ألبث أن تعلقت بها ، بحكم رؤيتى إياها باستمرار. فقد كانت ـ مثلى ـ لها شجونها، وكان تبادلنا الفضفضة، يتيح لنا خلوات طريفة. فليس أقوى على ربط القلـــوب من لذة المشاركة فى إراقة الدموع !.. فكان كل منا ينشد الآخر ، لكى نتبادل التسرية والتعزية ، وهذه الحاجة بالذات ، كثيرا ما جعلتنى أغفل عن أمور كثيرة . وكنت قد خشنت كثيرا فى صراحتى معها ، فكان لزاما على ـ بعد أن أبديت أضال الاحترام لشخصيتها ، فى بعض الأحيان ـ أن أخشى عن حق ، ألا يكون بوسعها أن تصفح عنى . وهاكم مثالا للخطابات التى كنت أكتبها أحيانا إليها ، والتى يجدر ـ ونحن بصددها ـ أن أذكر أنها لم تكن تبدى فى ردودها عنها ، أية بادرة من بوادر الغضب :

« مونمورنسى : ٥ نوفمبر سنة ١٧٦٠ .

« تقولين لى ، يا سيدتى ، إنك لم تحسنى الإفصاح عن نفسك ، حتى تجعلينى ألمس أننى أسأت الإفصاح عن نفسى . وتحدثيننى عن غبائك المزعوم، لتنبهينى إلى غبائى. وتتشدقين بأنك طيبة ، وكأنك تخشين أن تؤخذى بكلمتك ، كما أنك تبدين الأعذار ، لتشعرينى بأننى مدين بشىء منها إليك .

« أجل ، يا سيدتى ، إنى لأدرك هذا تماما ، فأنا الذى كنت غبيا ، ساذجا ، وأسوأ من هذا ، إن أمكن !.. أنا الذى أسأت اختيار عباراتى ، دون أن أرعى رضاء سيدة فرنسية ، تبدى كثيرا من الاهتمام إلى الأقـــوال ، وتحسن الحديث ، مثلك . ولكن .. لاحظى أننى أخذت هذه العبارات على محملها العادى

فى اللغة ، دون أن أعرف أو أحدس شيئا من التأويلات التى تعلق بها أحيانا ، فى الأوساط الباريسية الفاضلة . فاذا كانت ثمة تعبيرات تحتمل تأويلات ـ فى بعض الأحيان ـ فإننى أحاول بمسلكى أن أحدد معناها .. الخ » .

وكانت بقية الرسالة بالأسلوب ذاته . فتأمل ردها (الملف « د » ـ رقم ٤١) ، واحكم على مدى الهدوء، الذى يكاد يفوق التصور ، والذى أوتيه قلب امرأة ، لم تجد ما يستثير سخطا من خطاب كهذا ، ســـوى ما أوردته فى ردهـــا ، وما أبدته بمسلكها !.. ولم يبطىء « كوانديه » ـ بما عرف عنـــه من انتهاز للفرص ، وجــرأة تذهب إلى درجة القحة ، وتربص بأصدقائى ـ فى أن يتقدم إلى السيدة دى فيرديلان باسمى ، وسرعان ما أصبح أوثق صلة منى بها ، دون أن أدرى .. لقد كان هذا « الكوانديه » مخلوقا عجيبـــا ، لا مثيل له !.. كان يتقدم باسمى إلى جميع معـــارفى ، فيوطد مكانه فى دورهم ، ويأكل على موائدهم دون كلفة ! وكان فى وفائه المتحمس لى ، لا يتحدث عنى إليهم إلا والدموع فى عينيه ، ولكنه إذا ما زارنى، تمسك بأشد ألوان التكتم عن هذه العلاقات ، وعن كل شىء كان يشعرنى أنه يثير اهتمـــامى .. وبدلا من أن يذكـــر لى ما سمعه ، أو قاله ، أو رآه ـ مما يهمنى ـ كان يلزم الإصغاء إلى ، بل ويوجه إلى الأسئلة ! وما عرف يوما شيئا عن باريس إلا ما كنت أنبئه به .. وقصارى القول ، إنه لم يكن ليحدثنى عن أى امرىء ، فى حين كان كل امرىء يحدثنى عنه . وما كان مغلقا ، غامضا ، إلا مع صديقه .. أنا !

ولكن ، لندع « كوانديه » والسيدة دى « غيرديلان » فى الوقت الحاضر ، فلن نلبث ان نعود إليهما فيما بعد !

* * *

حدث بعد عودتى إلى مسكنى (مون ــ لوى) بوقت قصير ، ان اقبل الرسام « لاتور » لزيارتى ، وحمل إلى صورة رسمها لى بالطباشير « الباستيل » ، وكان قد عرضها بضع سنوات ــ قبل ذلك ــ فى صالة العرض . وكان يرغب فى ان يقدمها هدية لى ، ولكنى ابيت ان اقبلها . غير ان السيدة ديبيناى ــ التى اهدتنى صورتها ، وودت ان تأخذ هذا الرسم ــ كانت قد حملتنى على أن أعدها بأن أطلبه ، فاذا « لاتور » يستغرق بعض الوقت فى تنقيحه . وفى تلك الأثناء ، حدثت القطيعة بينى وبين السيدة ديبيناى ، فرددت إليها صورتها ، ولم اعد افكر فى ان اهديها صورتى ، ومن ثم فاننى علقت هذه فى غرفتى فى « القصر الصغير » . ولقد رآها السيد دى لوكسمبورج هناك ، فأعجب بها ، ومن ثم فاننى عرضتها عليه ، فتقبلها .. وارسلتها إليه !

ولقد ادرك والسيدة دى لوكسمبورج اننى خليق بأن اسر إذا ما حصلت على صورتيهما ، فعهدا إلى فنان ماهر بأن يرسمهما فى صورتين دقيقتين، زين بهما صندوقا للحلوى صنع من البللور الصخرى ، على قاعدة من الذهب ، وقدماه إلى بطريقة لبقة ، طربت لها . وما رضيت السيدة دى لوكسمبورج قط عن حرصى على ان اجعل صورتها فى الجانب الأعلى من الصندوق .. وكانت كثيرا ما تعتب على ، اننى كنت اكثر حبا للسيد دى لوكسمبورج منى لها . وما دفعت هذا عن نفسى

يوما لانه كان حقيقة . ومن ثم فقد شاءت أن ترينى فى لباقة ــ ولكن فى وضوح كاف ــ بإصرارها على مكان صورتها ، انها لم تنس هذا الإيثار منى لزوجها !

ولقد ارتكبت ــ حوالى هذه الآونة بالذات ــ حماقة لم تساعد على احتفاظى بودها ومجاملاتها . فمع اننى لم اكن على تعارف بالسيد دى سيلويت ــ المراقب العام للمالية ــ وكنت غير ميال إليه ، إلا اننى كنت اعتنق فكرة جد طيبة عن كفاءته الإدارية . فلما بدات قبضته تشتد على رجال المال ، رايت انه لم يشرع فى هذه الخطة ، فى لحظة مواتية . ومع ذلك ، فاننى رجوت له كل توفيق .. لذلك فقد بادرت دون ترو ــ حين بلغنى انه اقيل من منصبه ــ إلى كتابة الرسالة التالية إليه .. وهى رسالة لا احاول ــ فى الواقع ــ ان ابررها :

« مونمورنسى : ٢ ديسمبر سنة ١٧٥٩

« تكرم يا سيدى ، فتقبل احترام رجل معتزل ، غير معروف لديك ، ولكنه يقدر فيك مواهبك ، ويحترمك لكفاءتك الإدارية ، وقد كرمك بأن ايقن بأن هذه الإدارة لن تبقى فى يديك طويلا . إنك جرؤت على ان تواجه صيحات جامعى المال ، إذ رايت ان ليس فى وسعك إنقاذ الدولة إلا على حساب راس المال الذى اودى بها إلى الدمار ، ولقد غبطتك على منصبك ، إذ رايتك تسحق هؤلاء الأنذال .. وإنى اليوم لأكبرك ، إذ اراك تغادره دون ان تكذب نفسك !.. فاهنأ بنفسك يا سيدى ، فقد اجداك موقفك شرفا ستظل تنعم به ، دون منازع ، امدا طويلا .. إن ترهات الأوغاد لمجد للرجل المستقيم

سنة ١٧٦٠

ولقد حدثتنى السيدة دى لوكسمبورج عن هذا الخطاب ــ وكانت تعلم أننى كتبته عندما اقبلت فى عطلة عيد الفصح ، فاطلعتها عليه .. ورغبت فى الحصول على نسخة منه ، فاعطيتها بغيتها ، ولكنى كنت اجهل ــ إذ قدمتها إليها ــ انها كانت من « جامعى المال » الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج « البورصة » ، والذين عملوا على إقالة « سيلويت » .

ومن الجدير ان يقال ، إننى بدوت وكأننى كنت استنهض عامدا بغضاء سيدة لطيفة وذات نفوذ ، كنت ــ فى الواقع ــ ازداد تعلقا بها يوما بعد يوم ، وكنت بعيدا كل البعد عن أن ارغب فى ان اجر على نفسى سخطها ، بالرغم من أننى كنت ــ بتصرفاتى الرعناء المتكررة ــ افعل كل ما يتطلبه ذلك . واعتقد ان لا حاجة بى إلى ان اذكر ان إلى هذه السيدة بالذات ، تعزى قصة الدواء الملين للمعدة الذى وصفه السيد ترونشان ، والذى تحدثت عنه فى الجزء الأول من اعترافاتى (١) .. اما السيدة الأخرى ، التى كانت معها ، فهى السيدة دى ميربوا ، وما ذكرت لى اى منهما هذا الموضوع مرة اخرى ، ولا ابدت اية بادرة توحى بأنها تذكره ، ولكن افتراض ان تكون السيدة دى لوكسمبورج قد نسيته حقا ، امر عسير ، وإن لم يقدر للمرء ان يعرف الحوادث التى أعقبته . أما أنا ، فقد كنت أحاول ان أطمئن نفسى من أمر حماقاتى متوسلا لذلك بأننى لم اكن أصدر فى أى من هذه الحماقات عن قصد الإيذاء ، وكأنما

(١) ذكرت القصة فى الكراسة الثالثة ــ (الجزء الأول) .

كان من المحتمل أن تغفر امراة امورا من هذا القبيل ، ولو كانت على اتم يقين من انها لم تكن متعمدة !

ومع ذلك ، فبالرغم مما كان يلوح عليها من انها لم تكن ترى شيئا ، او تحس بشىء ، وبالرغم من أننى لم استشعر اى تضاؤل فى شعورها ، ولا تغير فى تصرفاتها إلا أن هاجسا خفيا ــ لم يكن منبعثا إلا عن اساس مكين ــ راح يوحى إلى دون انقطاع ، بأن النفور لن يلبث أن يعقب هذا الهيام . افكان لى أن اتوقع من سيدة عظيمة القدر ــ إلى هذا الحد ــ ثباتا ووفاء يكون بمأمن من غبائى وضعف حيلتى ؟.. إننى لم اكن أعرف ان اخفى عنها شيئا ، حتى هذا الهاجس الذى راح يقض راحة بالى ، ولم يزدنى إلا جفاء وانطواء . وهذا ما يمكن رؤيته فى الخطاب التالى ، الذى انطوى على نبوءة عجيبة .

تنبيه : هذا الخطاب الذى لم تحمل مسودته تاريخا ، كتب فى شهر اكتوبر سنة ١٧٦٠ ، على أكثر تقدير .

« ما اقسى افضالك !.. لماذا تعكرين طمأنينة شخص وحيد معتزل ، نبذ ملاذ الحياة لكى يستشعر مزيدا من الملل منها ؟.. لقد قضيت أيامى أبحث عبثا عن علاقات ودية ثابتة . ولقد عجزت عن ان اوطد شيئا منها ، فى الأوساط التى كنت أملك إليها وصولا .. افكان على ان أبحث عنها فى اوساطك انت ؟

« ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية إغراء لدى ، فأنا مغرور بعض الشىء ، هياب بعض الشىء ، وبوسعى ان اقاوم كل شىء ، فى العواطف !.. فلماذا تهاجمين ... يجب

أن اتغلب عليه ، ما دام تدفق القلوب الحساسة لن يقوى على أن يقربنى منكما ، نظرا للبون الذى يفصل بيننا ؟

« أفيكون العرفان كافيا لقلب لا يعـرف رياء ، ولا يشعر بأنه قـادر إلا على الصـداقة ؟.. الصـداقة يا سيدتى المارشالة ! .. آه .. هنا مصدر تعاستى ! .. من الجميل منك، ومن السيد المارشال ، أن تستخدما هذه الكلمة ، ولكنى أحمق إذ أصدق أنكما تعنيانها ! .. إنكما تلهوان لتسريا عن نفسيكما ، أما أنـا فمتعلق بوفـاء ، فماذا نهاية اللهـو تعدنى لحسرات جديدة ! .. لكم أكـره كل ألقابكمـا ، ولـكم أرثى لكمـا إذ تحملانها ! .. إنكمـا لتبدوان — فى نظـرى — جديرين بأن تتذوقا كل مفاتن الحياة الخاصة ، المغمورة ! .. لم لا تقيمان فى (كلاران) ؟.. إننى لأتوق إلى أن أنشد هناك هناء حياتى ، أما قصر مونمونسى ، وأما قصر لوكسمبورج !؟ .. أفهنـاك تنبغى رؤية جان جاك ؟.. أفهناك ينبغى لواحد من أصدقاء المساواة أن يروى عواطف قلب حساس ، يخشى — إذ يدفع بهذا الشكل ثمن التقدير الذى أبدى إليه — أن يعطى أكثر مما يتسلم ؟

« إنكما طيبان وحكيمان كذلك ، وإنى لأدرى ذلك ، وقـد رأيته . وإنى لآسف على أننى لم أستطع أن أصدقه قبل الآن . على أننى إذ أقدر الطبقة التى تنتميان إليها ، والأسلوب الذى تعيشان عليه ، أرى أن لا شىء يستطيع أن يترك طابعا باقيا فى نفسيكما . ومن ثم فإن أشياء كثيرة تتعاقب لديكما ، فيمحـو كل منها الآخر ، ولا يقدر لأحد أن يبقى دائما ! » .

« لسوف تنسيننى يا سيدتى، بعد أن جعلتنى أعجز ما أكون

عن أن أحذو حذوك فأنسى أنا الآخر . لقد خلقت لكى تجعلين منى إنسانا شقيا ، دون أن يكون لك العذر ! » .

* * *

وما قرنت اسم السـيد دى لوكسمبورج باسمهـا ، إلا لأخفف من جفوة الرسـالة ، وفيما عدا ذلك ، فقد كنت واثقا منه ، فلم أشعر بالقلق لحظة إزاء دوام صداقته ، وما قـدر لشىء من الهواجس التى راودتنى بشـأن زوجته ، أن يمتـد إليه ! .. أبدا ما شعرت بأقل تزعزع فى ثقتى بشخصيته ، التى كنت أعرف أنها ضعيفة ، ولكنها أهل للثقة ، فما كنت أخشى نتورا من ناحيته، إلا بقدر ما كنت أترقب منه إقداما بطوليا ! .. كانت بساطة وألفة علاقاتنا تبين كيف كان كل منا بركن إلى الآخر . وقد كنا معـا على صـفاء ، ولسوف أظل ما حييت أمجد ذكرى هـذا السيد الفاضل وأعتز بها .. مهمـا تكن المحاولات التى بذلت كى تباعد بينه وبينى ، فسأبقى مطمئنا إلى أنه مات وهو صديق لى .. كما لو كنت قد تلقيت آخـر أنفاسـه !

ولقـد انتهت مطالعات « جولى » فى زيارتهمـا الثانيـة لمونمورنسى ، فى سنة ١٧٦٠ . وكان على أن أنتقل إلى «أميل» لكى أبقى مع السيدة دى لوكسمبورج ، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقا ، إما لأن الموضوع لم يرق لها ، وإما لأنها كانت قد ملت كل هذه المطالعات . ومع ذلك ، فإنهـا رغبت — وهى تلومنى على أن تركت نفسى لتغرير الناشرين بى — فى أن أترك لها طبع الكتاب ونشره ، حتى تستطيع أن تعقد صفقة

افضل . ووافقت على اقتراحها ، مشترطا الا يطبع الكتاب فى فرنسا .

وهذا ما قام بيننا خلاف طويل حوله . فقد كنت ارى أن من المستحيل الحصول على إذن بطبعه فى المملكة ، وان ليس من الحكمة طلب هذا الإذن .. وما كنت ـ فى الوقت ذاته ـ لأقبل ان يطبع فى فرنسا بغير ذلك . اما هى ، فكانت ترى أن هذا ليس بالأمر العسير ـ من ناحية الرقابة ـ تحت النظام الذى انتهجته الحكومة . وقد وجدت الوسيلة التى جعلت بها السيد دى ماليزيرب يقرها على آرائها ، فكتب إلى رسالة طويلة ، لكى اقر بان كتاب « عودة أسقف سافوا إلى الإيمان » هو عين ما يجب ان يقابل بالتحبيذ من كل الجنس البشرى فى كافة الأرجاء ، بل وفى البلاط الملكى ، فى تلك الظروف !.. وعجبت إذ وجدت هذا الموظف المسئول ، الذى كان بطبيعته رعديدا ، قد تساهل فى هذه المسألة إلى هذا الحد !

ولما كانت مجرد الموافقة منه كافية لإجازة طبع الكتاب قانونا ، فإننى لم اعد أملك اى اعتراض . على اننى ـ بسبب نذر خفى غريب هجس فى نفسى ـ ظللت اصر على أن يطبع الكتاب فى (هولندا) ، وبوساطة المكتبى « نياولم » ، الذى لم اكتف بان ارشدت إليه ، بل إننى كتبت إليه أستشيره . ووافقت على ان تكون الطبعة لحساب ناشر فرنسى ، اى ان يتم إعدادها فى (هولندا) ، وتباع فى باريس ، او فى اى مكان آخر ، فما كان البيع ليعنينى فى شىء . وهذه هى عين النقاط التى اتفقت عليها مع السيدة دى لوكسمبورج ، والتى اسلمتها المخطوط بعد إبرامها .

* * *

وكانت قد أحضرت معها ـ فى هذه الرحلة ـ ابنة أختها ، الآنسة دى بوفلير ، وهى الآن السيدة دوقة دى لوزون . وكان اسمها « آميلى » . ولقد كانت فتاة فتانة ، وكان وجهها ، ورقتها ، وخفرها ، تجمل براءة العذارة الحقيقية . فما كان ثمة ما هو الطف ولا أدعى للاهتمام من وجهها ، ولا كان هناك ما هو اكثر طهرا من المشاعر التى كانت تثيرها فى النفس !.. ولا غرو ، فقد كانت طفلة ، لم تتجاوز العام الحادى عشر من عمرها . وإذ وجدتها السيدة المارشالة بالغة الحياء ، راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل . فسمحت لى مرارا بأن اقبلها ، الأمر الذى اقدمت عليه بحيائى المعهود . وبدلا من المداعبات اللطيفة التى كان اى امرىء آخر خليقا بأن يقولها ـ إذا ما كان فى موضعى ـ ظللت صامتا ، عييا .. فلم ادر من كان اكثرنا حياء : الصغيرة المسكينة ، ام انا ؟..

وفى ذات يوم، صادفتها وحيدة على سلم «القصر الصغير»، وكانت قد اقبلت لتزور تيريز ، حيث كانت مربيتها فى زيارتها . وإذ لم ادر ما ينبغى أن أقوله لها ، سألتها أن تمنحنى قبلة ، فلم تأبها على ، بكل ما فى قلبها من براءة وطهر ، لا سيما وانها كانت قد منحتنى قبلة اخرى فى صباح اليوم ذاته ، بأمر من خالة امها ، وفى حضورها .

وفى اليوم التالى ، صادفت ـ وأنا اقرأ « أميل » على السيدة المارشالة ـ فقرة حرمت فيها ، بحجة قوية ، عين الشىء الذى كنت قد فعلته ـ أنا نفسى ـ فى اليوم السابق . ووجدت السيدة أن ما ذهبت إليه ـ فى تلك الفترة ـ كان صوابا ،



وفى ذات يوم ، صادفتها وحيدة على سلم « القصر الصغير » ..

وابدت بعض ملاحظات معقولة ، جعلتنى أتضرج خجلا . لكم ألعن غبائى الذى يفوق التصور ، والذى كثيرا ما جعلنى ابدو خبيثا ، آثما ، فى حين اننى لم اكن اكثر من احمق ، سريع الارتباك !.. ولقد كانت حماقتى من ذلك النوع الذى يؤخذ على أنه عذر زائف ، من رجل عرف عنه أنه ذكى !.. إن بوسعى ان اقسم على ان تلك القبلة كانت خالية من كل ما يستحق اللوم ، وان قلب الآنسة « آميلى » وعواطفها ، لم تكن — فى هذه الناحية — اطهر من قلبى وعواطفى انا !.. بل إن بوسعى كذلك ان اقسم إننى لو كنت قد استطعت — فى تلك اللحظة — ان اتحاشى لقاء الصبية لفعلت ، إذ اننى — بالرغم من سرورى لمرآها — كنت فى حيرة بالغة ، لا أكاد أجد شيئا مناسبا أقوله لها وانا امر بها .

ترى كيف يتسنى لطفلة أن تبعث الارتباك لدى رجل لم يستطع سلطان الملوك ان يرهبه ؟.. اى قرار يتخذ ؟.. وكيف يتصرف ، إذا هو تجرد فجأة من حضور ذهنه ؟.. إننى إذا غصبت نفسى على الحديث إلى من اقابلهم من الناس ، فلست أقول سوى هذيان لا يفهم .. وإذا انا لم اقل شيئا ، اتهمت بأننى انفر من البشر ، وبأننى حيوان وحشى ، وبأنى دب ! .. لقد كان الغباء الكامل احب إلى من هذه الحال ، ولكن المواهب التى كانت تعوزنى فى صحبة الناس ، هى التى جعلت تلك التى املك ، اداة لدمارى !

وفى نهاية مقام السيدة دى لوكسمبورج — فى هذه الزيارة — قامت بعمل طيب ، كان لى فيه نصيب . فقد حدث ان اهان «ديدرو» — فى تهور بالغ — السيدة الأميرة دى روبيك ، وكانت

من بنات السيد دى لوكسمبورج . ولقد انتقم لها الأديب الذى يتمتع برعايتها ، « باليسو » ، بمسرحيته الهزلية «الفلاسفة»، التى تعرضت أنا فيها للسخرية ، كما عومل فيها « ديدرو » بقسوة عنيفة . وما كان المؤلف أكثر إشفاقا على ، منه على « ديدرو » ، مراعاة لالتزامات كانت تفرض عليه ذلك نحوى، بقدر ما كان ذلك لخوفه من أن يغضب والد السيدة التى كانت ترعاه ، فقد كان يعرف أن السيد دى لوكسمبورج كان حفيا بى ، ودودا نحوى ! . .

ولقد أرسل إلى « دوشين » الكتبى ــ الذى لم أكن قد تعرفت إليه ، إذ ذاك ــ نسخة من المسرحية ، عندما طبعت فحدست أنه ما فعل ذلك إلا بإيعاز من « باليسو » ، الذى ربما خال أننى قد ابتهج لمرآى رجل ــ فصمت عرى الصلات معه ــ مرغ فى التراب . ولكنه أخطأ فى هذا خطأ مفرطا ، فمع أننى كنت قد قطعت ما بينى وبين « ديدرو » ــ الذى كنت أؤمن بأنه ضعيف ، وغير أمين على الأسرار ــ أكثر منه خبيث ــ إلا أننى احتفظت له فى قلبى بشعور من الولاء ، بل ومن الإكبار والاحترام ، نظرا لصداقتنا القديمة ، التى أوقن من أنها كانت ــ لزمن طويل ــ خالصة صادقة ، من ناحيته ، كما كانت من ناحيتى .

على أن الأمر يختلف بالنسبة إلى جريم ، الذى كان غشاشا خادعا ، والذى لم يحبنى إطلاقا ، بل وما كان بقادر على الحب ، والذى تحول فى الخفاء فأصبح أقذع الشانئين لى ، دون أى مبرر ، اللهم إلا الرغبة فى إرضاء غيرته الحاقدة ! . . وما كان هذا بالشخص ذى القيمة لدى ، أما الآخر ، فسيظل دائما

صديقى القديم . ومن ثم فقد تحركت فى فؤادى أرق المشاعر، عندما رأيت تلك المسرحية البغيضة ، ولم أقو على المضى فى قراءتها ، بل إننى رددتها إلى « دوشين » ولما أتمها ، وأرفقت بها الرسالة التالية :

« مونمورنسى : ٢١ مايو سنة ١٧٦٠.

« ما أن تصفحت المسرحية التى أرسلتها إلى ، يا سيدى ، حتى اشمأززت إذ وجدتنى موضع إطراء . وإنى لأرفض هذه الهدية البشعة . وإنى لأعتقد أنك بإرسالها إلى ، لم تكن تبغى الإساءة ، ولكنك تجهل أو أنك قد نسيت أننى قد تشرفت بأن أكون صديق رجل جدير بكل احترام ، ولم يكن يستحق أن يذم وأن يفترى عليه ، فى هذه المسبة المطبوعة » .

* * *

ولقد أطلع « دوشين » ديدرو على هذه الرسالة ، فبدلا من أن يتأثر بها ، إذا هو يستاء منها . فما كان لأنانيته أن تغتفر لى التصرف الكريم الذى يكسبنى تفوقا عليه . وقد سمعت أن زوجته راحت تحمل على فى كل مكان ، فى حقد لم يحزننى إلا قليلا ، إذ كنت أعرف أن الناس جميعا كانوا يعرفون أنها سليطة !

ولقد وجد « ديدرو » بدوره ، منتقما له فى شخص الراهب « موريليه » ، الذى وضع كتيبا ضد « باليسو » ، ولقد قلد فيه « النبى الصغير » ، وأسماه « الرؤيا » . ولقد أقدم فى تهور ، على إهانة السيدة دى روبيك فى كتيبه هذا ، فعمل أصدقاؤها على إلقائه فى سجن « الباستيل » . . أما هى ، فلم تكن بطبيعتها شديدة الحقد ، كما أنها كانت على شفا الموت إذ ذاك ،

ومن ثم فلست اعتقد انها كانت ذات يد فى هذا الانتقام .

ولقد كتب إلى « داليمبير » ـ الذى كان وثيق الصلة بالراهب موريليه ـ وسألنى ان أرجو السيدة دى لوكسمبورج بأن تشفع له كى يسترد حريته ، واعدا بان يطريها فى « الموسوعة » ، كرمز لامتنانه . وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات ، فى قصر دى لوكسمبورج ، عندما كانت اوراقى مودعة هناك . وها هو ذا ردى :

« لم اكن أرتقب خطابك يا سيدى ، حتى اشهد السيدة المارشالة دى لوكسمبورج على الألم الذى يكبدنيه سجن الراهب موريليه . فهى تعرف الاهتمام الذى لدى نحو هذه المسألة ، ولسوف تعرف كذلك الاهتمام الذى تبديه نحوها . وسيكفيها ذلك لكى تهتم بالأمر بنفسها ، وتعرف انه رجل كفء .

« وفوق ذلك ، فبالرغم من انها والسيد المارشال يشرفانى بكرم هو عزاء حياتى ، وبالرغم من ان اسم صديقك[١] يعتبر ـ لديها ـ توصية فى صالح الراهب موريليه ، إلا اننى اجهل إلى اى مدى يلائمها ان يستغلا ، فى هذه المناسبة ، ما لمكانتهما من نفوذ ، وما لشخصيهما من اعتبار . ولست اميل إلى الاعتقاد ، بأن العمل الانتقامى ـ فى هذا الموضوع ـ ذو علاقة بالسيدة الأميرة دى روبيك ، بالقدر الذى يلوح فى ظنك . بل لو ان الأمر كان كذلك حقا ، فخليق الا نفترض ان لذة الانتقام للنفس ، وقف على الفلاسفة وحدهم ، وانهم إذا اختاروا ان يكونوا نساء ، كان على النساء ان يصبحن فلاسفة!

(١) يقصد « روسو » ـ بهذا التعبير ـ نفسه .

« ولسوف أوفيك بما ستقوله لى السيدة دى لوكسمبورج، عندما أطلعها على رسالتك . وفى الانتظار ، اعتقد أننى من المعرفة بها بالدرجة التى تمكننى من أن اطمئنك مقدما بأنها إذا استطابت أن تساهم فى إطلاق سراح الراهب موريليه ، فانها ـ يقينا ـ تأبى أن تقبل رمز الامتنان الذى تعد بأن تؤثرها به فى « الموسوعة » ، بالرغم من انها قد تشعر بأن فى هذا العمل تكريما لها .. لأنها لا تبذل الخير طمعا فى الثناء ، وإنما لترضى قلبها الطيب فحسب » .

ولم ادخر شيئا فى استثارة حماسة السيدة دى لوكسمبورج وعطفها فى سبيل السجين البائس، واستطعت ان اوفق فى ذلك فقد قامت برحلة إلى (فرساى) ، خصيصا لتقابل السيد الكونت دى سان ـ فلورنتان ، وقد أدت هذه الرحلة إلى تقصير أمد إقامتها فى (مونمورنسى) ، التى اضطر السيد المارشال إلى مبارحتها ـ فى الوقت ذاته ـ ليذهب إلى (روان)، حيث أوفده الملك كحاكم لنورماندى ، من جراء بعض حركات من البرلمان أريد إحباطها . وها هو ذا الخطاب الذى كتبته لى السيدة دى لوكسمبورج ، غداة اليوم التالى لرحيلها :

(الملف « د » ـ رقم ٢٣) .

فرساى : يوم الأربعاء

« سافر السيد دى لوكسمبورج فى الساعة السادسة من صباح أمس ، ولست ادرى ما إذا كنت سالحق به . إننى فى انتظار انبائه ، لأنه هو نفسه لا يدرى كم من الوقت سيقضيه هنـاك .

« لقد قابلت السيد دى سان ـ فلورنتان ، الذى وجدت

عنده أشد الميل إلى مساعدة الراهب موريليه ، بيد أنه يلقى ــ فى ذلك ــ عقبات ، يرجو أن يذللها وينتصر عليها فى أول مرة يحظى فيها بلقاء الملك ، وسيكون ذلك فى الأسبوع المقبل . ولقد سألته صنيعا آخر ، ذلك هو الا ينفى الراهب ، إذ أن هذا كان موضع دراسة ، وكان من المراد إقصاؤه إلى نانسى .

« هذا هو ، يا سيدى ، ما استطعت ان أصل إليه ، ولكنى أعدك بألا أدع للسيد دى سسان ــ فلورنتان ، سبيلا إلى الراحة ، إلا بعد ان تنتهى المسألة وفق ما تشتهى .

« والآن ، تعال اقل لك اى حزن اعانيه لفراقك بهذه العجلة ، ولكنى أعلل نفسى بأنك لا ترتاب فى ذلك !

« إننى أحبك من كل قلبى ، وطيلة حياتى » .

وبعد بضعة أيام ، وتلقيت هذه الرسالة القصيرة من « داليمبير » ، فبعثت فى نفسى فرحة صادقة :

« غادر الراهب « الباستيل » بفضل عنايتك ، يا فيلسوف العزيز ، ولن تكون لسجنه معقبات بعد ذلك . ولقد سافر إلى الريف ، وهو يبعث ــ كما أبعث انا ايضا ــ إليك الف شكر وتحية . ولك تقديرى وودى » .

كذلك كتب لى الراهب ــ بعد بضعة أيام ــ رسالة شكر (الملف « د » ــ رقم ٢٩) ، لم يبد لى فيها اثر من شعور قلبى ، بل لقد لاح فيها انه كان يهون ــ إلى حد ما ــ من قيمة الخدمة التى اديتها له . وبعد زمن قصير تبينت انه و « داليمبير » قد جفانى ــ ولن اقول قد اقتلعانى ليحلا محلى ــ فى الحظوة لدى السيدة دى لوكسمبورج ، واننى فقدت من تقديرها ، بقدر ما كسبها . على اننى جد بعيد عن أن أرتاب فى ان الراهب

موريليه قد ساهم فى الحط من قدرى ، فانى أجله عن ذلك . أما السيد « داليمبير » ، فليس لدى ما اقوله عنه هنا ، وسأتكلم عنه فيما بعد .

* * *

وكانت لدى ــ فى ذلك الوقت بالذات ــ مسألة اخرى . ادت إلى آخر خطاب كتبته إلى السيد « فولتير » .. وكان خطابا اطلق من جرائه الصرخات مدوية ، معلنا انه إهانة له منكرة ، ولكنه لم يطلع مخلوقا عليه قط . ولسوف اورده هنا .

ذلك أن الراهب « تروبليه » ــ الذى كنت على معرفة بسيطة به ، والذى لم أره إلا نادرا ــ كتب إلى ، فى ١٣ يونيه سنة ١٧٦٠ ، (الملف « د » ــ رقم ١١) ، لينبئنى بأن السيد فورمى ــ صديقه ومراسله ــ قد طبع فى يومياته رسالتى إلى السيد دى فولتير ، عن نكبة لشبونة . وقد اراد الراهب « تروبليه » أن يعرف كيف تسنى هذا النشر ، وسألنى ــ بدهائه الجيزويتى ــ رايى فى إعادة نشر هذه الرسالة ، دون ان يريد مصارحتى برايه هو !

ولما كنت اكره أصحاب المكر كراهية تامة ، فاننى شكرته ــ بقدر ما كان يستحق ــ ولكن فى شىء من الجفاء . ولقد لاحظ ذلك ، ولكنه لم يردعه عن أن يحاول استدراجى من جديد ، فى رسالتين أو ثلاث ، حتى تبين كل ما كان يريد أن يعرفه . ولقد ادركت تماما ــ مهما يكن ما يقوله تروبليه ــ أن فورمى لم يكن قد وجد رسالتى إلى السيد دى فولتير منشورة ، وانه انما نشرها بنفسه لأول مرة . وعرفت انه كاتب لا يخجل . اعتاد ــ بصراحة ــ ان يكسب دخلا من مؤلفات غيره ؛

وإن لم يكن قد جرؤ بعد على الوقاحة المذهلة ، وأعنى بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره ، ليضع هو اسمه عليه ، ويبيعه لمنفعته الخاصة (١) .

ولكن ، كيف تسنى لذلك الخطاب أن يصل إلى يديه ؟ . . هذه هى المسألة ، التى لم تكن مستعصية الحل ، وإن كنت من السذاجة بحيث حرت فى أمرها . فبالرغم من أن فولتير كان قد نال تكريما ضافيا فى هذا الخطاب ، إلا أنه كان على حق فى أن يشكو ـ بالرغم من مسلكه النابى ـ لو أننى كنت قد نشرت لخطاب بدون موافقته . ومن ثم فقد رأيت أن أكتب إليه بهذا الشأن . وهاكم هذا الخطاب الثانى ، الذى لم يرد عليه إطلاقا ، والذى تظاهر بالهياج ـ حتى الجنون ـ من جرائه ، كى ينطلق فى فظاعته بكثير من التحرر .

« مونمورنسى : ١٧ يونيه سنة ١٧٦٠ .

« ما ظننت قط يا سيدى ، أننى سأجد نفسى على تكاتب معك ثانية . ولكنى ـ إذ علمت أن الخطاب الذى كتبته إليك فى سنة ١٧٥٦ ـ قد طبع فى برلين ، وجدت من الواجب أن أطلعك على تصرفى فى هذا الصدد ، وأنى لأؤدى هذا الواجب بصدق وبساطة .

« إن هذا الخطاب ، إذ وجه إليك حقا ، لم يكن مقدرا له أن يطبع ، وما أفضيت بمحتوياته ـ بقيود اشترطتها ـ إلا لثلاثة أشخاص ، لم يكن حقوق الصداقة لتبيح لى أو آبى عليهم شيئا من هذا القبيل ، كما أن حقوق الصداقة هذه بالذات ، لا تسمح لهم بأن يسيئوا استغلال الأمانة ، بأن ينتهكوا

(١) أضاف روسو : « وبهذه الطريقة سطا على « أميل » فيما بعد » .

عهودهم . . هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم : السيدة دى شينونسو ـ زوجة ابن السيدة دوبان ـ والسيدة الكونتة دوديتو ، وألمانى يدعى جريم . ولقد كانت السيدة دى شينونسو تواقة إلى أن يطبع هذا الخطاب ، وسألتنى أن أوافق على ذلك . وقد قلت لها إن هذا يتوقف على موافقتك أنت . وقد سألتك ذلك بنفسها ، فأجبت أنت بالرفض ، ولم تثر المسألة بعد ذلك .

« على أن السيد الراهب تروبليه ، الذى لا تربطنى به صلة ما ، كتب إلى أخيرا ، بدافع من عناية مفعمة بالكرم ، فذكر أنه تلقى صفحات من يوميات السيد فورمى وإذا به يقرأ فيها ذاك الخطاب بالذات ، مع كلمة قال فيها المحرر ـ تحت تاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٥٩ ـ إنه وجد الخطاب قبل بضعة أسابيع ، فى مكتبات برلين ، وإنه لما كان من النشرات التى سرعان ما تختفى دون أى رجاء فى عودتها ، فقد رأى أن من واجبه أن يفرد له مكانا من يومياته !

« هذا يا سيدى ، كل ما عرفته عن الأمر . ومن المحقق جدا ، أن هذا الخطاب لم يتسلل إلى سمع أحد ـ فى باريس ـ أو لسانه حتى الآن . ومن المؤكد كذلك ، أن النسخة التى وقعت فى يدى السيد فورمى ـ سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة ـ لا يمكن أن تصل إليه إلا من طريقك أنت ، وهو الأمر غير المحتمل . . أو من طريق واحد من الأشخاص الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم . . وأخيرا ، من المؤكد جدا ، أن أيا من السيدتين لا يمكن أن تقدم على مثل هذه الخيانة للأمانة . وليس بوسعى ـ من معزلى ـ أن أصل إلى مزيد من المعرفة

فى هذا الصدد ولكنك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك — من طريقهم وبمعونتهم — ان تتعقب المسألة حتى مصدرها الأصلى ، إذا رأيت أنها تستحق العناء ، وأن تعرف حقيقة الواقعة .

« ولقد ذكر لى السيد الراهب تروبليه — فى رسالته هذه — انه يحتفظ بتلك الورقة من اليوميات ، وانه لن يعيرها لأحد بدون رضائى قط ، وهذا ما لن يصدر منى قط !.. غير ان هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة فى باريس . ورجائى هو الا يطبع هذا الخطاب هناك ، وسأبذل قصارى وسعى من أجل ذلك . على اننى إذا عجزت عن الحيلولة دون طبعه ، ونمى إلى النبأ — فى الوقت المناسب — فقد استطيع ان اتمسك بحق الأسبقية ، وإذ ذاك ، فلن اتردد فى نشره بنفسى . وهذا — كما يبدو لى — مجرد تصرف طبيعى عادل .

« اما ردك عن الخطاب ذاته ، فاننى لم ابح به لمخلوق ، ولك ان تطمئن إلى انه لن ينشر إطلاقا دون إذنك ، وهو ما ان اكون من الاستهانة بالسر بحيث أسألك إياه ، لأننى اعلم تمام العلم ، ان ما يكتبه إنسان لإنسان آخر ، ليس مما ينشر على الملأ . اما إذا شئت أن تكتب ردا موجها إلى ، بغرض النشر ، فانى اعدك بأن الحقه بامانة برسالتى ، دون ان اعقب عليه بكلمة واحدة .

« إننى لا احبك إطلاقا يا سيدى ، ولكنك وجهت إلى من الاساءات ، ما لا املك سوى ان اشعر بأبلغ الملام بسببها .. انا تلميذك ، واشد المعجبين تحمسا لك !.. لقد اضعت (جنيف) جزاء لها على ما لقيته منها من إيواء .. ولقد نفرت

منى ابناء وطنى ، فى مقابل الثناء الذى اضفيته عليك لديهم إنك انت الذى جعلت حياتى فى وطنى ومسقط رأسى ، امرا لا اطيقه !.. إنك انت الذى ستضطرنى إلى ان اموت على ارض أجنبية — محروما من كل ما يتاح للمحتضرين من تسرية ومواساة — والا القى من التكريم اكثر من ان القى فى حماة .. بينما ترافقك فى وطنى ، كل آيات التكريم التى يحق لإنسان ان يطمع فيها !.. إننى — بإيجاز — اكرهك ، وما دمت قد رغبت فى هذا !.. ولكنى اكرهك كرجل لا يزال خليقا بأن يحبك ، إذا كنت ترغب فى ذلك . إن العاطفة الوحيدة التى تبقى — من كل الأحاسيس التى يزخر بها قلبى نحوك — لهى عاطفة الإعجاب الذى لا يمكن للمرء ان يأباه على عبقريتك البديعة ، والحب لما تكتب . وإذا كنت لا اقوى على ان اكرم فيك سوى مواهبك ، فليس هذا ذنبى . ولن يعوزنى قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب ، ولا السلوك الذى تتطلبه .

« ووداعا يا سيدى » .

. . . . . .

تنبيه : يلاحظ ان هذا الخطاب وإن كتب منذ حوالى سبع سنوات ، إلا اننى لم اتحدث عنه إلى نفس حية ، ولا اطلعت عليه احدا . وكذلك كان شأن الخطابين اللذين اضطرنى السيد هيوم إلى ان اكتبهما له فى الصيف الماضى ، حتى اثار الضجة — التى يعرفها كل امرىء — بشأنهما . إن السوء الذى اضطر إلى ان اقوله لأعدائى ، إنما اوجهه إليهم فيما بيننا . اما الخير — إذا وجد شىء منه — فانى اقوله علانية وبقلب سليم .

. . . . . .

وفى غمرة هذه المشاحنات الأدبية الطفيفة ، التى لم تزدنى إلا إصرارا على عزمى ، قدر لى أن أتلقى أعظم تكريم أسدته إلى مهنة الأدب .. التكريم الذى كنت أشد اعتزازا به منى بأى شىء آخر . وقد تمثل هذا التكريم فى تنازل السيد الأمير «دى كونتى» بزيارتى مرتين ، إحداهما فى «القصر الصغير» ، والأخرى فى (مون ــ لوى) . ولقد اختار فى كل من المرتين ــ على السواء ــ للفترة التى لم تكن فيها السيدة دى لوكسمبورج فى (مونمورنسى) ، حتى يكون أكثر إظهارا لأنه إنما كان قادما من أجلى . وما ارتبت يوما فى أننى إنما كنت مدينا بأولى مكارم هذا الأمير ، إلى السيدة دى لوكسمبورج ، وإلى السيدة دى بوفلير . غير أننى لا أرتاب كذلك ، فى أننى مدين بالعطف الذى لم يكف قط ــ منذ ذلك الحين ــ عن أن يشرفنى به ، إلى مشاعرى الخاصة ، وإلى نفسى .

. . . .

تنبيه : لاحظوا إصرار هــذه التقية العمياء ، الغبية ، على البقاء ، فى غمرة كل الإساءات التى كانت كفيلــة بأن تجعلنى أسىء الظن بها . ولكنها لم تختف إلا بعد عودتى إلى باريس فى سنة ١٧٧٠.

. . . . . .

ولما كان مسكنى فى (مون ــ لوى) جد صغير ، وموقع الأيكة جميل ، فقد أخذت الأمير إليها ؛ وإذا به ــ لكى يتوج أفضاله ــ يرغب فى أن يشرفنى بأن يلعب دورا فى الشطرنج معى . وكنت أعرف أن بوسعه أن يهزم الشيفالييه لورينزى ، الذى كان أمهر منى لعبا . على أننى كسبت الدورين اللذين لعبتهما ، بالرغم

من إشارات وغمزات الشيفالييه وأولئك الذين كانوا حضورا ، فقد تظاهرت بأننى لم أكن أراهــا . وعندما انتهينا ، قلت له فى لهجة جادة ، مفعمة بالاحترام : « مولاى ، إننى أوقر سمعك فى خشوع يفوق أى تورع عن كسبك فى الشطرنج دائما » .. فشعر هذا الأمير العظيم ــ النابه ، المطلع ، الذى كان أهلا لأن يأبى التملق ، أو هكذا ظننت ، على الأقل ــ أننى الوحيد بين الحضور ، الذى عامله كإنســـان ، ولدى كل ما يجعلنى أعتقد أنه شعر بامتنان حقيقى نحوى لذلك !

ولو أننى علمت عنه أنه استاء منى ، لمــا أنبت نفسى على أننى لم أرض بأن أخدعه فى شىء ، ولست أجــد ــ يقينا ــ ما يحملنى على أن ألوم نفسى على أننى أســأت ــ فى قلبى ــ تقبل أفضاله ، وإن كنت قد فعلت ذلك أحيانا حقــا ، فى حين أنه كان يبدى رقة لا حد لها فى مسلكه نحوى . ولقــد أرسل إلى بعد أيام قلائل ، سلة مليئة بطيور القنص ، فتقبلتها بقبول سليم . وما لبث ــ بعد ذلك بفتــرة ــ أن أرســل إلى سلة أخرى ، مصحوبة برقعة من أحد حراس صيده ، كتبت بإملاء منه ، ليخبرنى بأن محتويات السلة من الطيــور التى أصيبت بيد صاحب السمو نفســه . ولقد تقبلتها ، ولكننى كتبت إلى السيدة دى بوفلير ، أنبئها بأننى لن أتقبــل مزيدا من هــذه الهدايا . وقد جلب على هذا الخطاب لوما عاما ، كنت أستحقه . فإن رفض هدايا الصيد ، من أمير من الأسرة المالكة ، يبدى ــ إلى جانب ذلك ــ فى إهدائها كل لطف ، إنما ينم عن فظاظة من شخص سيىء النشأة ، ينسى نفســه ، أكثر مما ينم عن شعور مرهف من رجل ذى كرامــة وكبريــاء ، يرغب فى أن يحتفظ

باستقلاله . وما قرأت قط هــذا الخطاب ، إلا تضرج وجهى خجلا منه ، وإلا أنبت نفسى على كتابته .

على أننى لم أقدم على كتابة اعترافاتى ، لكى أسكت متكتما حماقاتى ، وأن الواقعة الراهنة لتملؤنى اشمئزازاً من نفسى ، إلى درجة تفوق كل ما يمكن أن يغرينى على تكتمها !

وإذا كنت لم أضف إلى ذلك حماقة جديدة بأن أغدو منافسا له ، فأننى كنت جد قريب من أن أفعل هــذا ، إذ أن السيدة دى بوفلير ، كانت ــ فى ذلك الوقت ــ ما تزال عشيقته ، ولم أكن أعرف شيئا عن ذلك . وكانت تفــد لزيارتى كثيرا ، فى صحبة الشيفالييه دى لورينزى . وكانت جميلة ، ما تزال فى شبابها ، وكانت تعجب بالفكر الرومانى ، فى حين أننى كنت دائما مولعا بالخيال الشاعرى ، وكان فى هذا تشابه كاف . ولقد كدت أفضح نفسى ، واعتقد أنها لمحت ذلك . وكذلك لاحظه الشيفالييه ، فقد حدثنى بصدده ــ على الأقل ــ بطريقة لم ترم إلى تثبيط عاطفتى !

ولكنى كنت فى هــذه المرة حكيما ، وكان الزمن يســتدعى ذلك ، إذ أننى كنت فى الخمسين من عمرى . ولمــا كنت مفعم النفس بالنصيحة التى أسديتها إلى الشيب ، فى رسالتى إلى « داليمبير » ، فقد خجلت من ألا أفيــد منهــا . وإلى جانب ذلك ، فإننى ــ بعد أن علمت كل ما لم أكن أعلم من قبــل ــ كنت خليقا بأن أكون قد فقدت صوابى تماما ، لو أننى جرؤت على أن أصبو إلى منافسة غريم فى مثل تلك المكانة الرفيعة . وأخيرا ، فأننى على ما يبدو لم أكن قد شفيت تماما من هوى السيدة دوديتو ، فكنت أحس بأنه ما من شىء بعد هذا الهوى

يمكن أن يحتــل محــله من قلبى ، وودعت الحب ما بقى من عمرى .

لقد تلقيت ــ قبيل اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور ــ ملاطفــات خطرة ، من شابة لها أغــراض لدى ، وقد كانت ملاطفاتها مصحوبة بنظرات زاخــرة بالمعانى ، ولكن .. إذا كانت تتظاهر بنسيان سنى عمرى الخمسين ، فأن من واجبى أن أذكرها !.. وبعد أن انتزعت نفسى من فخها ، لم يعــد يساورنى أى خوف من الوقوع ، بل إننى لأشعر بأن فى وسعى أن أثق بنفسى ــ فى هذا الصدد ــ بقية عمرى !

ولقد لاحظت السيدة دى بوفلير الانفعال الذى بعثه وجودها فى نفسى ، وكان بوسعها أن تلاحظ كذلك أننى قــد انتصرت عليه . إننى لست من الطيش ، ولا من الغرور ، بحيث أعتقد أننى ــ فى هذه السن ــ أثير فى نفسها أى ميل نحوى ، ولكنى ــ على ضوء بعض عبارات استخدمتها فى حديثها إلى تيريز ــ أعتقد أننى أثرت نوعا من الشعور الفضولى فى نفسها . فاذا صح هذا ، وإذا لم تكن قد صفحت عنى لأننى لم أرض هــذا الفضول ، فجدير بى أن أقر بأننى خلقت لأكون ضحية عيوبى وضعفى ، ما دام الحب المظفر مصــدر تعاسة لى ، والحب المهزوم مصدر تعاسة أكبر !

* * *

هنا تنتهى مجموعة الرسائل التى كانت بمثــابة دليل لى فى هذين الجزءين . ومنذ الآن ، لن يكون لى ســوى أن أقفو آثار ذكرياتى . لكنها ــ فى هذه المرحلة قاسية ــ ما تزال باقية، كما أن طابعها ما يزال قويا ، حتى إننى لأرانى عاجزا ــ رغم

ضياعها فى بحر التعاسات البالغة ـ عن أن أنسى دقائق اول غرق منيت به سفينتى ، بالرغم من ان ما بعده ، لا يوفر لى سوى ذكريات مرتبكة ، غير واضحة المعالم .

وهكذا أستطيع السير فى كراستى التالية ، وأنا ما ازال كثير الاطمئنان إلى مواقع قدمى ..

فإذا اشتط بى النأى ، فلن يكون هذا مدعاة لأى عجب !

وفى الجزء الخامس والأخير من

«اعترافات جان جاك روسو»

● **يحدثنا «روسو» عن تعاسات العظمة ، وما يجلبه المجد من محن وشقاء ..**

● **ويحدثنا عن كتبه التى احدثت انقلابا فى الفكر العالمى ، وفى التاريخ السياسى لأوربا ..**

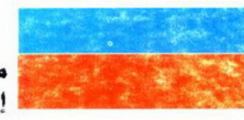
● **ويحدثنا عن ثورة اوساط الفكر الأوربى ضده ، وتنكر الرأى العام له ، وهياج معارفه وجيرانه عليه ، وحرق كتبه فى الميادين ..**

● **ويحدثنا عن عداء السلطات له ، وما اصلته إياه الحكومات من سياط الاضطهادات والجور ..**

● **ويحدثنا عن فراقه لتيريز .. وموت النساء اللاتى لعبن اهم الأدوار فى حياته وقلبه ..**

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ ـ ١٦٣ ـ ١٨٠ ـ ٦





مطبوعات كتابى
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

«واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ...» .

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقى» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولاتتبدل » .

والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، أنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حلمى مراد